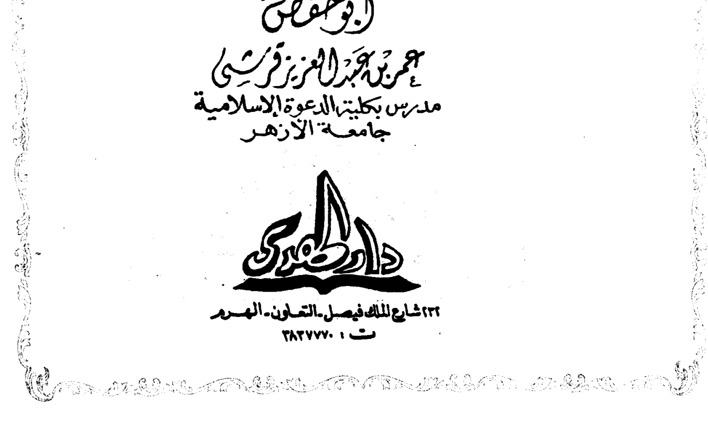
سلسلة العقائد
(١)

حقيقة الإيمان

الجزء الثاني



تأليف
أبو حفص
عمر بن عبد العزيز قريشي
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار الهدى
١٣٢ شارع الملك فيصل - التعاون - الهرم
ت ١ ٣٨٣٧٧٧٠

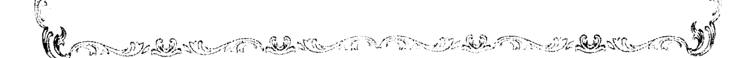
رقم الإيداع ٩٤/٥٣٦٤
الترقيم الدولى : I . S . B . N.
977 - 5333 - 01 - 6





﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

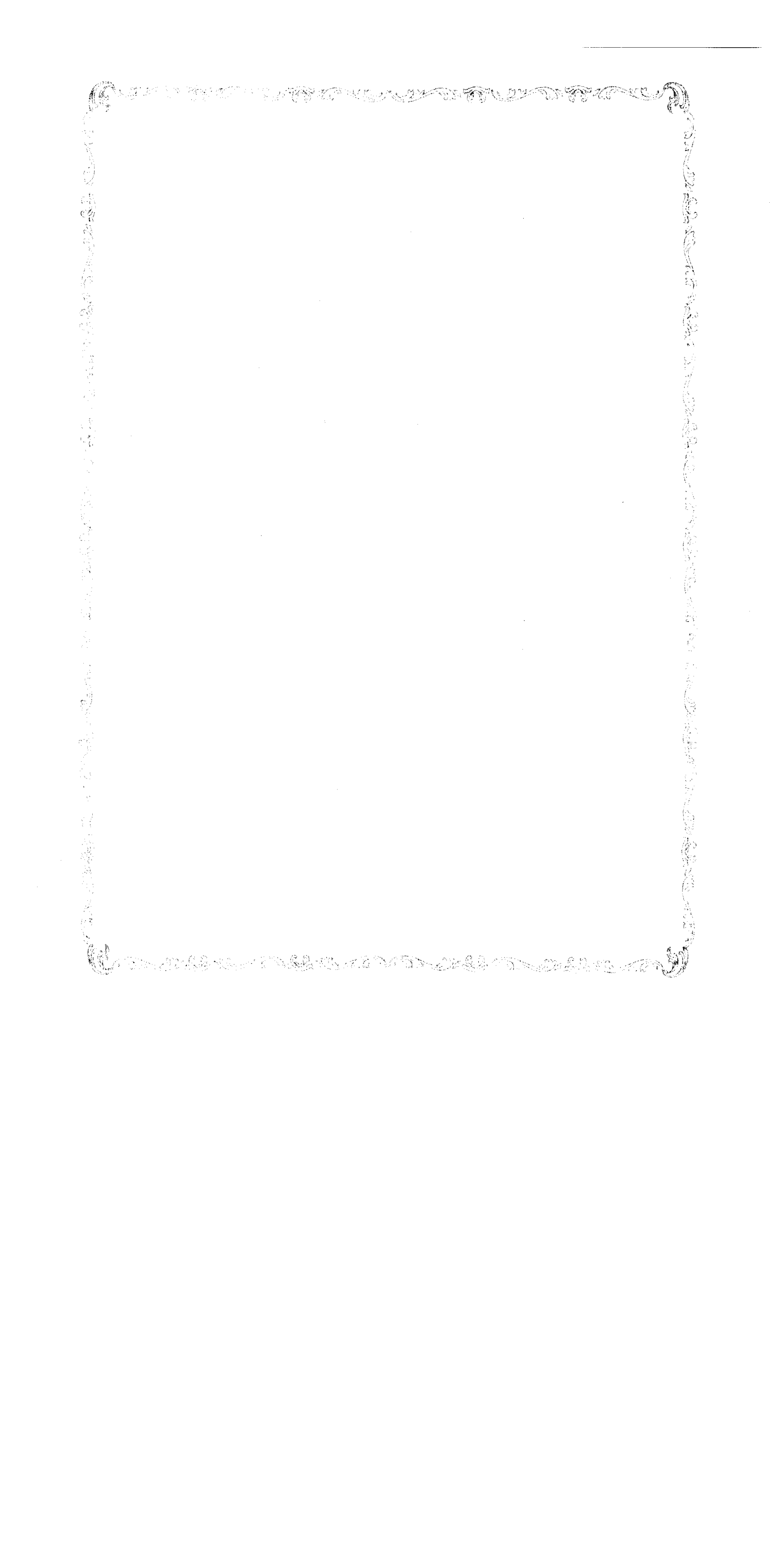
صدق الله العظيم



الباب الأول

الإيمان بالملائكة

* كيف نؤمن بالملائكة
* وجوب الإيمان بالملائكة
* من هم الملائكة
* خلق الملائكة
* تفاضل الملائكة
* أعمال الملائكة
* صفات الملائكة
* عصمة الملائكة



الركن الثاني

الإيمان بالملائكة

مقـــدمة

كيف نؤمن بالملائكة وهم من الغيب ؟

لقـد عاب الكفـار والملحدون على أهـل الإيمان أن يؤمنوا بالغيب ، ورمـوهم بالسفه والجهـالة لأنهم يعتقدون بما لا يرون أو يسمعون أو يحسون أو يلمسون أو يتذوقون أو يشمون يعني بما لا يقع تحت حواسهم الخمس التى هى السمع والبصر واللمس والشم والذوق ، ونسارع بالرد على هؤلاء ونقـول : إن الكون كله ينقسم إلى غيب وشـهادة ، فالغـيب ما غاب عن الموجـودات عن أعين الناظرين ، وإن كانت حقيقة مسلمًا بها .

والشهادة : خلاف الغيب ، وهى كل مـا كان من الموجودات يقع تحت حواس الإنسان .

وبذلك فإن الإنسان بحكم طبـيعة الحياة – مقدر له الإيمان بـالغيب ، ومفروض عليه، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللهم إلا إذا سفه نفسه ، وأراد التخلى عن كرامته الآدميـة ، وعن شرفه الإنسانى ، ليصبح بعد ذلك حـيواناً هابطاً ، لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعى لها ولا إدراك

وذلك لأن الإنسان كائن متـحيز ، متى وجد في مكان استـحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائـه في مكانه الذى هو فيه ، ومن هنا ستصـبح سائر الأمكنة التى تخلو منه ببعده عنهـا غيباً له وليست بشـهادة عنده ولا بد له أن يؤمن بها ،

وما فيها من أشياء ـ جواهر وأعراض ـ متى وجدت آثار تدل على ذلك أو أخبار صادقة تنبئ به فهو يؤمن بالأشياء عن طريق أخبار صادقة أو آثار دالة ، ولا ينحصر إيمانه بالأشياء فيما يقع تحت حواسه ، خاصة وأن حواس الإنسان التى يحصل بها العلم محدودة القوة ، محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه ، فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية ، فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع ، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة ، فإذا صغرت ودقت أو بلغت حداً معينًا من الصغر والدقة عجزت عن رؤيتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفت انقطع إحساسه بها ، وشمه لا يدرك إلا عن قرب، وتذوقه أقرب منه.

وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيا عن تصورها تماماً . ، ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها بأية حاسة ، ولم يدرك حتى تصورها بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً ، ولقيمته البشرية قدرًا من الإحترام والتقدير .

وكيف ننكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما ، ولم يخرج منه أبدًا وهو يؤمن بعشرات البلاد ، ويصدق بوجودها ، وهو لم يرها ولم ير من رآها قط .

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذى لم يره ، ولم ير من رآه أبداً . ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يرى ولا يشاهد أبداً ، ونجد رابعاً وُلدَ ولم يعرف والده لموته قبل ولادته ، وهو يؤمن بأن له والداً ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه لا يؤمن بالغيب أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون أن يؤمن بالغيب .

إن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه ، نعم ، ولكن لا سبيل له إلى معرفة الغيب إلا عن طريق آخر ، هو السماع به ، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه ، فالمرء إذا أخبره أحد أن فلانًا مات ، أو سافر ، أو قدم من سفر ، و كان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موتٍ أو سفرٍ أو قدومٍ منه ، حصل له بواسطة الخبر الذى تلقاه عن غيره من عقلاء الناس .

والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجرى ، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل فبلل الأرض ، وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أحد ، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر الذى دل عليه ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب بالماء مع عدم وجودها فيها قبل ذلك ، وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطاراً ، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينه ولم يخبره به أحد من الناس .

وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التى آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها .

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمرًا معقولاً ، ومطلباً سهلاً ميسوراً ، فالملائكة وإن كانوا غيبا ، فقد دل على وجودهم الدليل الذى ثبتت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان والذى هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات .

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً ، فنقول :

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدقه في خبره ، ويعتقد صحةَ ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بذى الصوت، ويصدق بوجوده كأنه رآه أو شاهده ؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيًا قد وضع في غرفة فيعلم أن هناك أحداً قد وضع هذا الكرسى وأعده للجلوس عليه وإن لم ير من فعل ذلك ؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحدًا أملى هذا الكتاب ، وأن آلة قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها عن طريق الخبر أو الأثر ، وهما الدليل العقلى للإيمان بكل الغيوب .

ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم ، ونقرر أن وجودهم يقينى ، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها .

وأما الذين كفروا بربهم وتنكروا لعقولهم ، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم ، فأصبحوا لا يؤمنون بشىء حتى وجودهم ،فإنا لا نقيم لهم وزناً، آمنوا أو كفروا، صدقوا أو كذبوا .

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام ، وهو الدليل الذى قدمنا انه بواسطته آمن العقلاء ، بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة ، والدليل كما سبق أن عرفناه يتكون من عنصرين : الأول الأخبار ، والثانى : الآثار[1]

أولاً : الأخبــار

(أ) وهى إخبار رب العالمين ، خالق الملائكة ، وخالق الجن والناس أجمعين ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[2]

بلى يعلم ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾[3]

---

(١) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ١٨٢ - ١٨٦ بتصرف ، ط مكتبة الكليات الأزهرية

(٢) سورة الملك ، آية ١٤

(٣) سورة النساء ، آية ٨٧

لا أحد وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً ، إذ الخالق أعلم بما خلق .

ومن إخباره تعالى ، قوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى ، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة ، وأنهم عالم مستقل له كيانه وصفاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴾(٢)

ففى هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى ، وهل يؤمر ويمتثل غير موجود ؟

وقوله تعالى :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(٣)

ففى هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون عن عبادة الله ولا يستكبرون ، وهل يستنكف ويتكبر غير موجود ؟

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٠

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٤

(٣) سورة النساء ، آية ١٧٢.

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾[1]

وفي هذا الخبر ينكر الله تعالى ، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم ، فهل يعقل أن يعاب أو ينكر على غير موجود ؟ وقوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾[2]

ففى هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عن أحد شيئًا ، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟

وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهى كثيرة جداً - كما سنذكر - وكلها تتحدث عن صفاتهم ، وأحوالهم وعباداتهم وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة ، دلالة تكسب اليقين ، اللهم بلى .

(ب) إخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام وتحدثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وتلقيهم الوحى بواسطتهم وهى كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد ﷺ فقد صح عنه ﷺ قوله : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة »[3] . وقوله : «إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[4] ، وقوله : « إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام »[5] ،

(١) سورة الزخرف ، آية ١٩

(٢) سورة النجم ، آية ٢٦

(٣) البخارى ومسلم ، واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/٣٩)، مسلم (١٥٧/٦) والبخارى (١٣٨/٤).

(٤) رواه مسلم (٢/ ٨٠) .

(٥) إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح ، وقد أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان .

وقال : « إذا أمَّن الإمام فأمنوا ، فإن الملائكة تؤمن ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »[١]

كما أخبرﷺ وتحدث عن ملك الموت وأعوانه ، وعن الروح وعن ملكى القبر ، وعن الحفظة ، والكرام الكاتبين ، وعن رضوان خازن الجنان ، وعن مالك خازن النيران وغيرهم من الملائكة فى أحاديث متواترة صحيحة - سنذكر طرفاً منها إن شاء الله - فكيف يسوغ عقلاً ، أو يصح منطقاً وذوقًا أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية ، وهى أصح أخبار فى الوجود ، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم .. اللهم لا ؟ [٢].

ثانيا : الآثــــار :

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً ، نكتفى بطرف منها فنقول : هذا القرآن ، كتاب الله بين أيدينا ، بسوره العديدة ، وآياته الكثيرة ، وعلومه ، ومعارفه ، وإعجازه ، أثر من آثار الملائكة ، إذ تلقاه المنزل عليه ﷺ بواسطة ولم يكن من الله مباشرة، فما هى الواسطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله ، ومنزله في قوله :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٣]

وهذا ملك الموت الذى يتخطفنا يومياً فيأخذ أرواحنا ، وينهى بأخذها حياتنا ،

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (١/٨٣) ، مسلم (٢/١٧) والبخارى (١/١٨٧) .
(٢) عقيدة المؤمن ص ١٨٦ - ١٨٨ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات (١٩٢ - ١٩٥)

ويفصلها عن أجسادنا ، فتعدم الحياة ، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له ؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا .

ولو سألنا خالقنا وقلنا : من يتوفانا ؟ لكان الجواب

﴿ قُلْ يَتَوَفَّٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[1]

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة ، وهما من أعاظم الملائكة ، فجبريل قد دخل المسجد وعشرات المصلين حاضرون ، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس ، فجلس إليه وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه ، فسأله عن الإيمان ، وعن الإسلام والإحسان وأشراط الساعة ، وكان ساعتئذ في صورة رجل[2] .

كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه فكم من مريض تحدث بذلك ، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت .

وبعد ، فإنه لم يبق لنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة ، فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة واجب ، بل هو ركن من أركان الإيمان .

(١) سورة السجدة ، الآية ١١

(٢) الحديث بنصه في الصحيحين وكتب السنة .

وجوب الإيمان بالملائكة

يجب الإيمان بالملائكة ، لأن هذا هو الركن الثانى من أركـان الإيمان ، كما قال تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١)

هذا الركن الركين والأصل المكين لا بد فيه من معرفة تامة .

كما قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾(٢)

كما قال عز وجل :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾(٣)

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٥
(٢) سورة البقرة ، آية ١٧٧
(٣) سورة النساء ، آية ١٣٦

ففى هذه الآيات المباركات يرشدنا القرآن الكريم إلى أن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بوحى الله ورسله ، لأن وحى الله تعالى يصل إلى النبى عن طريق ملك من الملائكة ، وهو جبريل أمين الوحى . فإذا جحد شخص وجود الملائكة فقد جحد إنزال الكتب الإلهية ، وجحد رسالة الرسل ، ولذلك قدم القرآن الكريم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالكتب الإلهية وبالرسل . ومن أنكر وجود الملائكة على الصفة التى بينها القرآن ، فهو كافر ، إذ قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1]

وهكذا أوضح القرآن وجوب الإيمان بالملائكة بهذين الأسلوبين : **إثباته الإيمان لمن آمن بهم في آية البقرة** : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ... ﴾ **ونفيه الإيمان عمن كفر بهم في هذه الآية من سورة النساء** .

وقال ﷺ في الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، حينما سئل عن الإيمان ، قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .. » الحديث[2] . وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركنا من أركان الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به ، وكان من شك فيه أو حاول التشكيك كاذباً كافراً ، لاحظ له في الإسلام ولا مقام له بين المسلمين ، لتكذيبه لله ورسوله والمؤمنين ، ولإنكاره لقضايا العقول ، ومسلماتها البديهية[3] .

(١) سورة النساء ، آية ١٣٦

(٢) سبق تخريجه

(٣) عقيدة المؤمن – أبو بكر الجزائرى – ص ١٨٩ ، ١٩٠ بتصرف

فمن هم الملائكة ؟

الملائكة لغة : جمع ملأك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حذفت الألف تخفيفاً ، فصارت ملكاً ، وهو مشتق من كلمة « الألوكة » التى هى الرسالة ، والجمع ملائك وملائكة[1] .

واصطلاحاً : هم خلق من خلق الله عز وجل ، خلقهم الله عز وجل من نور، وجبلهم على الخير ، وعصمهم من الشر ، وفطرهم على عبادته وتسبيحه ، مع الخوف منه وتقديسه وهم من العظمة بمكان ، ولا يعلم عددهم إلا الواحد الديان .

---

(١) لسان العرب جـ ٦ ص ٤٢٦٩ ط . دار المعارف

خلق الملائكة

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم»[١] .

ولم يبين لنا الرسول ﷺ أى نور هذا الذى خلقوا منه ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث . قال ابن حجر في الفتح ، وذكر في «ربيع الأبرار» عن سعيد ابن المسيب قال : «الملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثاً ، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتوالدون ، ولا ينامون ، ولا يتعبون، فهم مطهرون من الشهوات الحيوانية ، ومبرءون عن الميول النفسية ، ومنزهون عن الأعراض البشرية[٢] . وقد سمى الله تعالى الملائكة : عباداً ، وشرفهم بالإضافة إلي اسمه الرحمن ، وبين أن الذين يظنون أنهم اناثاً، ليسوا على حق ، لأنهم لا علم لهم بذلك، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾[٣]

وعاب سبحانه من وصفهم بالأنوثة ، وسلب عنهم صفة الإيمان ، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[٤]

(١) رواه مسلم (٨ / ٢٢٧)

(٢) فتح البارى لشرح صحيح البخارى ج ١٣ ص ٢٣ بتصرف ط الكليات الأزهرية

(٣) سورة الزخرف آية ١٩ (٤) سورة النجم آية ٢٧

وكانت بعض قبائل العرب تزعم أن الملائكة بنات الله : يعبدونها طمعاً في شفاعتهم لهم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(١)

تفاضل الملائكة

الملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى ، وعلو المنزلة ، كما هى سنته تعالى في الأنبياء والبشر ، أو هم أكبر تفاضلاً .

وأفضلهم «جبريل» عليه السلام لأنه إمام الملائكة ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت عليهم السلام ، ثم الملائكة المقربون لقوله تعالى :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(٢)

ثم حملة العرش ، لقوله تعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾(٣)

ثم الذين يلونهم ، والذين يلونهم.

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٨ - ٢٠

(٢) سورة النساء آية ١٧٢

(٣) سورة الحاقة آية ١٧

أعمال الملائكة

الملائكة أعظم جنود الله سبحانه وتعالى ، وقد سخرهم الله عز وجل فى كثير من الأعمال ، وقد أناط الله عز وجل بهم أعمالاً كثيرة جداً ، ومتنوعة إلى حد كبير ، وبالرجوع إلى القرآن الكريم والنظر فى السنة النبوية الشريفة نجد بياناً لوظائف الملائكة وأعمالهم التى أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة . وإليك أهمها ، أو ما استطعنا الوقوف عليه :

(١) الموكل بالوحى من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، وهو الروح الأمين ، جبريل عليه السلام كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]

كما سماه الله تعالى « روح القدس » فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2]

كما وصفه الله كذلك بالكرم، والقوة ، وأنه مكين عند الله ، ومطاع فى السموات ، وأمين على الرسالات ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3]

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٤

(٢) سورة النحل آية ١٠٢

(٣) سورة النجم الآيات ١ - ٧

وفى قوله جل وعلا :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[1]

كما صح عن النبى ﷺ أنه أخبر أن جبـريل عليه السلام رافقه فى أعظم رحلة تمت فى الوجود . وهي إسـراء النبى ﷺ ومعـراجه حتى بلغ مـعه سـدرة المنتهى بالملكوت الأعلى .

(٢) ومنهم الموكل بالـقطر [المطر] وتصـاريفه إلى حـيث أسـره الله تعـالى ، وموكل كذلك بـأمر النبات وهو « ميكائيل » عليـه السلام ، وهو ذو مكانة عليّه ، ومنزلة رفيـعة وشرف عند ربه عز وجل أيـضاً ، وله أعوان يفعلون مـا يأمرهم به بأمر ربه ، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله تعالى .

وفى حـديث ابن عبـاس - عند الطبرانى - أنه ﷺ قـال لجبـريل : « على أى شىء ميكائيل ؟ » قـال : « على النبات والقطر » وأخرج الإمام أحـمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام « مالى لم أر ميكائيـل ضاحكاً قط ؟ » فقـال عليه السـلام : « ما ضحك مـيكائيل منذ خلقت النار» ، عياذاً بالله منها .

(٣) ومنهم الموكل بالصور ، وهو إسرافيل عليه السـلام ينفخ فيه ثلاث نفخات بأمر ربه عز وجـل الأولى : نفخة الفزع ، والثـانية : نفخة الصعـق ، والثالثة : نفخة القيـام لرب الأرض والسماء . أخرج الإمام أحمد والترمـذى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصـاحب القرن قد التقم القرن

(١) سورة التكوير الآيات ١٩ - ٢١

وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » قالـوا كيف نقول يارسول الله ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وهؤلاء الثلاثة الكرام « جبـريل وميكائيل وإسرافيـل » رؤساء الملائكة ، وكان النبى ﷺ يجمع بينهم فى دعائه « اللهم رب جبـريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عـبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

(٤) ومنهم الموكل بقبض الأرواح ، وهو ملك الموت كما سماه القرآن

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[2]

وقيل يسـمى بـ « عزرائيل » وهو مأخـوذ عن أهل الكتاب ، أو بعض الآثار ، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[3]

وهم صنفان : ملائكة رحمة وملائكة عذاب .

قال تعالى فى شأن المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها (٢/ ١٨٥)

(٣) سورة السجدة الآية ١١

(٣) سورة الأنعام آية ٦١

سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)

وأيضا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٢)

وقال تعالى فى حق الكافرين :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٣)

وقال تعالى فى شأن المنافقين:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾(٤)

وقد جاء فى الأحاديث الصحيحة أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله ، إن كان محسناً ففى أحسن هيئه وأجمل صورة بأعظم بشارة ، وإن كان مسيئاً ففى أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد ، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها فى يده ، بل يضعونها فى أكفان وحنوط يليق بها .

(٥) ومنهم ملائكة يعرجون بأرواح العباد بعد الموت ، لحديث مسلم « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدا بها . . » الحديث (٥) .

(٦) ومنهم ملائكة لسؤال العباد فى القبور ، وهما « منكر ونكير » يسألان العبد عن ربه ودينه ونبيه ، فيقولان له : من ربك ، ما دينك ومن نبيك ؟ لحديث الترمذى وهو حسن الإسناد ، وأصله فى الصحاح ،وفيه «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما « المنكر » وللآخر «نكير » فيقولان : « ما كنت

(١) سورة النحل آية ٣٢
(٢) سورة فصلت آية ٣٠
(٣) سورة الأنفال آية ٥٠
(٤) سورة محمد آية ٢٧
(٥) رواه مسلم (٨/ ١٦٢)

تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقـول : هو عبد الله ورسوله ، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفـسح له فى قبره سبعون ذراعـاً فى سبعين ثم ينور له فيـه ، ثم يقال له : نم كنومـة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب الـناس إليه ، حتى يبـعثه الله من مـضجعـه ذلك ، وإن كان منافـقاً ، قال: « سـمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدرى ، فيقولان : قد علمنا أنك تقول ذلك، فيقال للأرض : التئمى عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » [1] .

هذا وقد ورد حديث يجمع هذه الأعمال « قبض الروح والعروج بها ، والبشارة أو النذارة مع سؤال القبر » عن البـراء بن عازب رضى الله عنه قال : «خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَدْ [لم يدفن بعد] ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده ﷺ عود ينكت به فى الأرض ، ثم رفع رأسـه فقال : استعـيذوا بالله من عذاب القبـر ، قالها مرتـين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبـد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، بيض الثياب ، معهم كفن من أكفان الجـنة ، وحنوط [رائحة] من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسـه فيقول : ياأيتها النفس الطيبة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فىِّ السقاء [فم القربة] فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى ذلك الكفـن ، وذلك الحنوط ولها رائحة طيـبة كأطيب رائحة طيـبة وجدت على ظهر الأرض ، فتقول الملائكة : روح من هذه ؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان ، بـأحسن أسمـائه التى كان يسـمى بها فى الـدنيا ، ثم يصـعدون إلى

(١) رواه الترمذى بسند حسن

السماء، فيستفتحون ، فيفتح لهم ، فما زال يشيعه من كل سماء مقربوها حتى يصل إلى السماء السابعة ، ثم ينادى من قِبَل الله عز وجل ، أن اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، ثم أعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال: فتعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه الملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ومن نبيك ؟ فيقول : محمد ﷺ فيقولان : وما علمك ؟ فيقول : جاء بالقرآن فآمنا به وصدقناه ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فألبسوه من الجنة ، وافرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وروحها ما شاء ، ثم يفسح له فى قبره مد بصره ، ثم يأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الرائحة ، يقول : أبشر بالذى يسرك ، فهذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير؟ فيقول : أنا عملك الصالح طالما ركبتك فى الدنيا وأنت تركبنى اليوم ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

ثم قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل عليه ملائكة من السماء سود الوجوه ، سود الثياب ، معهم المسوح من جهنم ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : ياأيتها النفس الخبيثة : أخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول [أى كما تخرج الحرير من الشوك مثلا] فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ولها رائحة نتنة كأخبث رائحة نتنة وجدت على ظهر الأرض ، فتقول الملائكة : روح من هذه الخبيثة ؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأخبث أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، ثم يصعدون إلى السماء ، فيستفتحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ ﷺ

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

قال : ثم ينادى منادٍ من السماء : أن اكتبوا كتاب عبدى فى سجين ، ثم أعيدوه إلى الأرض قال : فتهوى روحه ، ثم قرأ ﷺ

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

قال: ثم تعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدرى ، فيقولان له : ومن نبيك ؟ فيقول : هاه هاه، لا أدرى ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى فألبسوه من النار وأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من ريحها وسمومها ، ثم يضيق عليه فى قبره حتى تختلف أضلاعه، ثم يأتيه رجل قبيح الوجه ،قبيح الثياب ، خبيث الرائحة يقول له : أبشر بالذى يسوؤك ، فهذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىءبالشر؟ فيقول : أنا عملك السىء، فيقول: رب لا تقم الساعة»[1]

(٧) ومنهم ملائكة «خزنة الجنة» ورئيسهم «رضوان» عليه السلام ، قال تعالى:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[١]

ومعـهم « خدم الجنة » وهم مـلائكة لا يحصى عـددهم إلا الله تعـالى ، قال سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[٢]

(١) سورة الزمر آية ٧٣

(٢) سورة الرعد آية (٢٣ ، ٢٤)

(٨) ومنهم « زبانية جهنم » وهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله تعالى بالنار ، فهم خزانها يعذبون فيها أهلها ، قال تعالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١)

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى « مالك » كما قال تعالى عن أهل النار

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾(٢)

ولهم أعوان أيضاً كما جاء فى الحديث «يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، كل زمام فى يد سبعين ألف ملك يجرونها » (٣) .كما وصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٤)

وقال تعالى بقوله :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾(٥)

(١) سورة المدثر آية ٢٦ - ٣١
(٢) سورة الزخرف آية ٧٧
(٣) رواه مسلم
(٤) سورة التحريم آية ٦
(٥) سورة غافر آية ٤٩ ، ٥٠

(٩) ومنهم الملك الموكل بالرحم لحديث البخارى ومسلم واللفظ له «إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول أى ربى نطفة ، أى ربى علقة ، أى ربى مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال : قال الملك أى ربى ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه »[١] .

(١٠) ومنهم الكرام الكاتبون ، وعملهم كتابة أعمال البشر وإحصاؤها عليهم، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله ، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢]

وقال سبحانه :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ⑰ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٣]

صفتان للملكين ، فرقيب يرقبه وعتيد حاضر عنده لا يغيب ، وملك الحسنات أمير على ملك السيئات .

وفى الحديث « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإن عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال ، دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » [٤] .

وقد أمرنا أن نكرمهم وأن نستحى منهم ،كما قال ﷺ « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند حالتين : الجنابة والغائط ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) سورة الانفطار آية ١٠ - ١٢
(٣) سورة ق آية ١٧ - ١٨
(٤) رواه البغوى عن أبى أمامة

بجرم حائط أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » (١) .

(١١) ومنهم الموكل بحفظ العبد فى حله وارتحاله ، وفى نومه ويقظته وفى كل جالاته وهم المعقبات ، قال الله تعالى :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٢)

جاء فى تفسيرها : أى بأمر الله . وقال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (٣)

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ (٤)

كذلك ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (٥)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد : « ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما من شىء يأتيه إلا قال له الملك وراءك إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه » (٦)

وقال ابن كثير فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾

---

(١) رواه ابن حاتم بسنده
(٢) سورة الرعد آية ١٠ ، ١١
(٣) سورة الأنعام آية ٦١
(٤) سورة الانفطار آية ١٠
(٥) سورة الأنبياء آية ٤٢
(٦) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٠٣ بتصرف

أى بدل الرحمن . يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبيده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلائته وحراسته لهم بعينه التى لا تنام (١) .

وقال ﷺ . «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون :تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون »(٢) .

(١٢) ومنهم الملك الموكل بالجبال وقد ثبت ذكره فى حديث خروج النبى ﷺ إلى « بنى عبد ياليل » وعوده منهم ، وفيه قول جبريل له ﷺ « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك وقد بعث معى ملكًا لتأمره بما شئت ، فإن شئت أطبق على قومك الجبال من فوقهم ، وإن شئت خسف الأرض بهم »، قال النبى ﷺ : « بل استأن بهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا »(٣) . وقال أيضا «فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ، فقال يامحمد ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . . » الحديث (٤) .

(١٣) ومنهم حملة العرش ، كما قال تعالى .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ .. ﴾(٥)

وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾(٦)

قال ابن عباس : ثمانية صنوف من الملائكة ، وقيل : هم فى الدنيا أربعة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ ط مكتبة التراث الإسلامى
(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة
(٣) رواه ابن هشام فى السيرة
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) سورة غافر آية ٧
(٦) سورة الحاقة آية ١٧

ويوم القيامة ثمانية ، وقد ذكر ذلك فى حديث الصور الطويل ، وفيه قال رسول الله ﷺ : « فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حساً شديداً فهالنا ، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ،وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة وبمثلى من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا وهو آت، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية ،وهم اليوم أربعة ، أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم ، لهم زجل فى تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ، سبوح قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت »[1] .

(١٤) ومنهم قسم يسمون به « الكروبيين » وهم سادة الملائكة المقربين ، وهم أقرب الملائكة إلى حملة العرش ، وكلمة « الكروبيين » من مادة « الكرب» بمعنى الحزن ، لشدة خوفهم من الله جل جلاله وخشيتهم إياه ، وقيل إن الكلمة مأخوذة من لفظة « الكرب » بمعنى القرب أو القوة ، وذلك لقوتهم وصبرهم على العبادة [2] .

(١٥) ومنهم زوار البيت المعمور ، الذى أقسم الله تعالى به فى كتابه

---

(١) رواه ابن جرير والطبرانى وغيرهما

(٢) عالم الملائكة للشيخ عبدالحميد كشك ص ٢١ ط المختار الإسلامى

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾[١]

وثبت ذلك فى حديث المعراج ، وهو بيت فى السماء السابعة بحيال الكعبة فى الأرض لو سقط لوقع عليها ، حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، يعنى لا تحول نوبتهم لكثرتهم والحديث بألفاظه فى الصحيحين [٢] .

(١٦) ومنهم ملائكة الدعاء وعملهم الذى وكلوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك « آمين ولك بمثل ذلك » ولحديث مسلم : «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخيرقال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » [٣] .

(١٧) ومنهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ ، لحديث أحمد : قال ﷺ : «إن لله فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » [٤] .

(١٨) ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم : ما يقول عبادى ؟ قالوا: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك . . » الحديث [٥] ولقوله ﷺ : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده»[٦]

---

(١) سورة الطور آية ٤

(٢) معارج القبول ، بشرح سلم الوصول ص ٧٣

(٣) رواه مسلم (٨/٨٦) .

(٤) أخرجه النسائى وابن حبان

(٥) رواه البخارى ومسلم

(٦) رواه البخارى ومسلم

(١٩) ومنهم ملائكة صفوف لا يفترون ، وقيام لا يركعون ، وركع وسجد لا يرفعون ، ومنهم غير ذلك ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(١)

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت (٢) السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » (٣) ، وفى رواية « إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد».

وقال ﷺ أيضاً «ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾(٤)

وقال ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا يارسول الله : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف » (٥) أ .هـ . (٦) .

---

(١) سورة المدثر آية ٣١

(٢) أطت : الأطيط : صوت الرحل الذى يوضع فوق ظهر البعير ، أى أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة ، وقال الترمذى : غريب .

(٤) سورة الصافات ، آية ١٦٤ - ١٦٦

(٥) صحيح البخارى ومسلم

(٦) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد ، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمى ج ٢ ص٦٤ - ٧٤ بتصرف

(٢٠) هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة فى أعمـال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى :

« والصـافـات، والزاجرات ، فـالتـاليـات، والنازعـات، والناشطات، فـالمدبرات ، فالمقسمات »

لقلنا فى صـدق : إن الكون كله علويه وسـفليه قـد أنيط أمر تدبيـره بالملائكة وذلك بإذن ربهم تعالى [١].

ومعنى « الصافات » : أى الملائكة تقف صفوفا عند ربها .

« الزاجـرات» : أى أنها تزجر السحـاب ، وقال الربيع بن أنس : ما زجر الله عنه فى القرآن .

«التاليـات ذكراً»: أى أنهم يجـيئـون بالكتاب والقـرآن من عند الله إلى الناس كقوله « فالملقيات ذكراً » .

« النازعـات » : أى الملائكة حين تنزع أرواح بنى آدم فتأخذ روحه بعسر فتغرق فى نزعها .

« الناشطات » :أى من تأخذ روحه بسهولة من المؤمنين وكأنما حلته من نشاط .

« المدبـرات » :أى تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها عز وجل [٢]

« المقسمات » :أى التى تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد ،وكل ملك مخصص بأمر[٣] .

---

(١) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ١٩٢- ١٩٧ بتصرف .

(٢) ابن كثير ج٤ ص٢ ، ص٤٦٦ بتصرف

(٣) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ج٣ ص٢٥١ بتصرف ط دار القرآن الكريم - بيروت .

بعض صفات الملائكة

وهذه الصفات قد استوحيناها من خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي من القرآن والسنة وقد تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة وأحوالهم، نثبته هنا في بحثنا عن الملائكة كجزء من عقيدة المؤمن تقريرًا وتأكيداً فنقول :

(١) إن من صفات الملائكة : « الحياء » .

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي ﷺ قال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » [١] يعني بذلك الرجل « عثمان بن عفان» رضي الله عنه ، ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء ، فالحياء خير كله ، ونحن أحق بالحياء من الملائكة ، فيجب علينا أن نستحي منهم، وأن نكرمهم بألا يرونا على معصية تغضب الله عز وجل .

(٢) ومن صفاتهم « تأذيهم من المكروه »

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان للحديث « من أكل من الثوم ، والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » [٢] ، وللحديث أيضًا « إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة » [٣] فعدم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما ، دليل على تأذيهم من هذا المكروه ، والمعنى بالملائكة هنا هم ملائكة الرحمة ، لأن الكتبة

---

(١) رواه مسلم (٧/١١٧)
(٢) رواه مسلم (٢ / ٩٠)
(٣) رواه البخاري (٤ / ١٣٨) ومسلم (٦/١٥٧)

والحفظة لا يدعون الإنسان ، والمعنى بالكلب كل كلب عدا كلب صيد أو حراسة ، والمعنى بالصورة ، كل صورة نهى عنها الشرع مجسمة أو معلقة أو عارية أو نحو ذلك ولا يستثنى منها إلا ما كان للضرورة ، أو كان صورة ممتهنة .

وأين هذا مما عليه بيوت المسلمين فى زماننا هذا ، فالكلاب تربى للزينة والفاحشة ، والصور تعلق على الجدران ، وفى كل مكان ، عارية وغير عارية ، ومجسمة وغير مجسمة فيا ليت المسلمين يفيقون من غفلتهم ويعودون إلى ربهم .

(٣) ومن صفاتهم « طاعتهم لله تعالى وخوفهم منه سبحانه »

إن الملائكة مطيعون لله تعالى لا يعصونه بحال من الأحوال ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[٢]

ومع كثرة طاعتهم لله فما أشد خوفهم من الله ، فقد أثبت القرآن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣]

كما قال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[٤]

---

(١) سورة التحريم آية ٦ (٢) سورة الأنبياء آية ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة النحل آية ٤٩ (٤) سورة الأنبياء آية ٢٨

(٤) ومن صفات الملائكة « عظم خلقهم »

للملائكة أحجام كبيرة تفوق أحجام المخلوقات الأخرى التى اعتدنا رؤيتها ، يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[١]

وروى الإمام مسلم عن ابن مسعود قال : « رأى رسول الله ﷺ جبريل فى حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض »[٢] وروى أن النبى ﷺ قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش ، رجلاه فى الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول أى الملك: سبحانك حيث كنت »[٣] .

وهم متفاوتون فى الحجم ، فليسوا متساوين ، إذ أن منهم من له جناحان،ومن له ثلاثة ومن له أربعة حتى أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[٤]

قال الله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٥]

---

(١) سورة التحريم آية ٦
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه أبو داود ، بسند صحيح.
(٤) عالم الملائكة ص ٧
(٥) سورة فاطر آية ١

فبين سبحانه أن للملائكة أجنحة ، بعضهم له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال سبحانه :

﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾

قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، قال القرطبى : وهو قول أكثر المفسرين .

« جمالهم » ومع عظم خلقهم ، فقد خلقهم الله سبحانه على صورة جميلة كريمة كما قال سبحانه فى حق جبريل أمين الوحى

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[1]

قال ابن عباس : « ذو مرة » أى منظر حسن [2] . وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، أنظر ما قالته النسوة فى حق يوسف الصديق عندما رأينه

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[3]

(١) سورة النجم آية ٥
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٧
(٣) سورة يوسف آية ٣١

(٥) ومن صفات الملائكة « كثرة عددهم ، بحيث لا يعلمهم إلا الله »

وصدق الله العظيم إذ يقول

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[(١)]

فالملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ، وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع هذا الحديث ، قال ﷺ : «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد »[(٢)].

أو قوله ﷺ « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك[(٣)]. أو قوله ﷺ فى حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: « . .ثم رفع بى إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[(٤)] يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، وقال العوفى عن ابن عباس : هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لايعودون إليه وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف[(٥)] . فإذا أضيف إلى هؤلاء ما ذكر عن خَدَمَة الجنة ، وما لكل واحد من أهلها من الملائكة ، وكذلك الملائكة الموكلون بأعمالهم والحفظة وغيرهم من السياحين فى الأرض يتلمسون مجالس الذكر والملائكة الصافون فى السموات المسبحون بحمد رب الكائنات .

فماذا عن عددهم ؟لا يبقى إلا أن تسبح بعظمة الله عز وجل،وتخر له ساجداً.

---

(١) سورة المدثر آية ٣١
(٢) سبق تخريجه
(٣) سبق تخريجه
(٤) سبق تخريجه .
(٥) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٩ بتصرف

(٦) ومن صفاتهم أيضاً « تشكيل الملائكة »

فالملائكة تتشكل بغير صورها الحقيقية فيما تشاء من الصور الحسنة ،وتتراءى لبعض الصفوة المختارة من عباد الله ، وكثيراً ما ظهرت الملائكة فى هيئة رجال على مستوى ملحوظ من جمال الصورة وإشراق الوجه ، وحسن الهندام ،إلا أن هذه الأجساد التي تتشكل فيها ، لا يخرجها عن طبيعتها الأصلية التى فطرها الله عليها. فعندما تتشكل مثلا بالأجسام الإنسانية لا تسرى عليها طبيعة البشر ، فلا تأكل ولا تشرب ، كما بين الله عز وجل ذلك فى قصة الملائكة مع « خليله إبراهيم عليه السلام » وكذلك مع « لوط عليه السلام » وما حدث أيضًا فى قصة «مريم » وقد تمثل جبريل عليه السلام لها بشراً سوياً ، وكذلك مجىء « جبريل عليه السلام » للنبى محمد ﷺ مرات فى صورة « دحية بن خليفة الكلبى» أحد أصحاب النبى ﷺ ، كان جميل الصورة،ومرة فى صورة أعرابى أخذ يسأل النبيﷺ ، وغير ذلك .

وأحيانا تتمثل الملائكة فى صورة بشر عادية وتلقى بعض الناس لإخبارهم بما يسرهم ويشرح صدورهم لحسن صنيعهم ، وحميد أفعالهم وكريم خلالهم أو لأجل اختبارهم كما في حديث الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل،وغيره .[1]

(٧) ومن صفات الملائكة « أنهم ينصرون دين الله ويقاتلون مع رسول الله ﷺ» وقد أثبت القرآن الكريم هذا فى غير موضع ، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣ إِذْ تَقُولُ

(١) عالم الملائكة ص ٢٤ - ٢٨ بتصرف

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[2]

وقد تكرر نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ولنصرة دين رب العالمين أكثر من مرة ، ومن ذلك :

١ - فى غزوة بدر ، كما ذكرته الآيات فى سورة آل عمران والأنفال ، وقد نزلت الملائكة أفواجًا إذ أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف.

وفى الحديث عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه ، وكان أبوه من أهل بدر ، قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: «من أفضل المسلمين » قال جبريل : « وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة »[3]

(١) سورة آل عمران آية ١٢٣ - ١٢٦
(٢) سورة الأنفال آية ١٢
(٣) رواه البخارى

٢ - فى غزوة الأحزاب كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(١)

فقوله تعالى: ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يابنى فلان إلىَّ ، فيجتمعون إليه فيقول :النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل فى قلوبهم من الرعب » (٢).

٣ - ضد يهود بنى قريظة ، كما ثبت فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لما رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم ، قال : فإلى أين ؟ قال: ها هنا ، وأشار إلى بنى قريظة، فخرج النبى ﷺ » (٣) .

٤ - وفى غزوة حنين ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾(٤)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٩ - ١١
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧٠ بتصرف
(٣) رواه البخارى
(٤) سورة التوبة آية ٢٥ - ٢٦

وأخرج ابن جرير الطبرى عن عبد الرحمن مولى ابن برثن قال : حدثنى رجل كان مع المشركين يوم حنين ، قال: « لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، قال : فانهزمنا وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها » يعنى الملائكة [١] .

(٨) ومن صفات الملائكة «حضورهم الأعمال الصالحة ، وتنزلهم لها وصلاتهم على أصحابها»

١ - وذلك مثل طاعة الله عز وجل فى ليلة القدر ، كما تحدث القرآن عن ذلك

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَٰئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾[٢]

وقال أنس « إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى » [٣]

٢ - قراءة القرآن وذكر الله تعالى ، كما نزلت الملائكة لقراءة « أسيد بن حضير» القرآن ، وقال له النبى ﷺ بعد أن أخبره: « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » [٤] وقوله ﷺ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده . . » الحديث [٥] وقوله ﷺ « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٥ بتصرف
(٢) سورة القدر آية ٤ - ٥ (٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٣٠
(٤) رواه البخارى (٥) سبق تخريجه

أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . . » الحديث [١] .

٣ - تعليم الناس الخير ، قال ﷺ : « إن الله وملائكته ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير» وفى رواية أخرى « وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء»[٢].

٤- طالب العلم النافع : كما قال ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يطلب ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر » [٣] .

٥ - المشى إلى المساجد والمكث فيها : كما قال ﷺ : « إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد ، فتقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » [٤] ، وورد بنحوه مطولاً .

٦ - الصلاة فى الصف الأول : كما قال ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول » [٥] .

٧ - التبكير إلى الجمعة : كما قال ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر » [٦] .

---

(١) سبق تخريجه
(٢) رواه الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح
(٣) رواه أحمد في مسنده وأهل السنن
(٤) رواه مسلم
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد
(٦) رواه البخارى

٨ - صلاة الفجر والعصر فى المسجد جماعة: قال رسول الله ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون »[1].

٩ - السحور : كما قال ﷺ : «السحور أكله بركة ، فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جزعة من ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين »[2].

١٠ - التصدق والإنفاق في وجوه الخير : كما قال ﷺ : «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكًا تلفًا » [3] .

١١ - الحج والوقوف بعرفة : كما قال ﷺ : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ . . . » [4] .

١٢ - الاستشهاد في سبيل الله : فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: لما قتل أبى جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى ، وينهونني ، والنبى ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمتى فاطمة تبكى ، فقال النبى ﷺ :« تبكين أو لا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » [5]

١٣ - الصلاة على النبى ﷺ : كما قال صلوات ربى وسلامه عليه : « ما من عبد يصلى علىَّ إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى علىَّ ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر » [6] .

---

(١) سبق تخريجه (٢) رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال إسناده قوى
(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة (٤) رواه مسلم عن السيدة عائشة
(٥) رواه البخارى (باب ظل الملائكة على الشهيد)
(٦) رواه أحمد فى مسنده بسند صحيح

١٤ - عيادة المريض : قال ﷺ : « ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى ، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة » [1] .

١٥ - زيارة الإخوان: كما قال ﷺ : « إن رجلاً زار أخًا له في قرية ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخًا لى في هذه القرية ، قال : هل لك من نعمة تربها: قال : لا، غير أنى أحببته فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه »[2] .

١٦ - الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب : كما قال ﷺ : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » [3] .

١٧ - النوم على وضوء : قال رسول الله ﷺ : « من بات طاهرًا بات في شعاره «فراشه» ملك ، فلا يستيقظ إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرًا » [4].

(٩) ومن صفات الملائكة كذلك « حبهم لمن يحب ربهم ، ودعاؤهم للمؤمنين»

إن الملائكة تحب حبًا يليق بحالهم ، وحسب ذواتهم ، فقد دل الدليل الشرعى على أنهم يحبون ، ففى الحديث الصحيح « إن الله تعالى إذا أحب عبدًا ، نادى جبريل : إن الله يحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض» [5].

---

(١) رواه الترمذى بإسناد حسن
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة
(٣) أخرجه مسلم
(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه
(٥) رواه البخارى ومسلم

وإن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه للمؤمنين : كما قال الله تعالى عنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ⑦ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑧ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(1)

(١٠) ومن صفات الملائكة « أنهم يلعنون من لعنه الله تعالى »

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(2)

فمن هؤلاء الذين تلعنهم الملائكة بلعنة الله لهم ؟

أولاً : الكفرة : قال الله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ⑧⑥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ

(١) سورة غافر الآيات ٧ - ٩
(٢) سورة البقرة آية ١٦١

عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾(١)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٢)

ثانيًا : الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله ، كما قال ﷺ: « من قتل عمدًا فقود يديه ، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٣) . فالذى يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل القاتل عمدًا بالجاه أو المال . . فعليه هذه اللعنة فكيف بالذى يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟؟

ثالثًا :الذين يؤون محدثًا : من الذين تلعنهم الملائكة ، كما يلعنهم الله ، الذين يحدثون في دين الله بالخروج على أحكامه والاعتداء على تشريعه ، أو يؤون من يفعل ذلك ويحمونه كما في الحديث الصحيح : «من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »(٤) .

رابعًا : لعنهم الذى يسب أصحاب النبى ﷺ ، كما في الحديث « من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٥) .

خامسًا : لعن الملائكة المرأة التى لا تستجيب لزوجها ، قال ﷺ :« إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » وفى رواية أخرى « إذا دعا

(١) سورة آل عمران آية ٨٦ - ٨٨

(٢) سورة البقرة آية ١٦١ .

(٣) رواه النسائى وأبى داود وابن ماجه بإسناد صحيح .

(٤) رواه أبو داود والنسائى والحاكم .

(٥) معجم الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن ابن عباس .

الرجل امرأتـه إلى فراشه ، فـأبت أن تجيء لعنتهـا الملائكة حتى تصـبح » ، وفي رواية ثالثة «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت ، فبـات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح »[١] .

سادسًا : لعن الملائكة المرأة التى تخرج بدون إذن زوجهـا ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما : قال «رأيت امـرأة أتت إلى النبى ﷺ وقالت: يا رسول الله ، **ما حق الزوج على زوجته ؟** قال : حقه عليـها أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن فعلت لعنها الله وملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع »[٢].

سابعًا : لعنهم الذى يشير إلى أخيه بحديدة ، كما قال ﷺ: **« من أشار إلى أخيه بحديدة** ،فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه» [٣] .

***

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أبو داود والبزار .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة .

عصمة الملائكة

خلق الله عز وجل الملائكة ، وجبلهم على طاعته ، وعصمهم من معصيته ، فهم كما وصفهم الله تعالى :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

وكما قال :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ومع ذلك رأينا من يقول بعدم عصمة الملائكة لشبهات وقرت فى أذهانهم ، أخذوها من كتاب الله فكان ذلك هو الحق الذى أريد به باطل ، ومن ذلك فهمهم لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)

(١) سورة البقرة آية ٣٠

فزعموا أن ذلك من قبيل الاعـتراض على الله ، ونسوا أن الاعتراض على الله ليس مجرد معـصية فقط ، وإنما ذلك هو الكفر البواح الذى وقع فـيه إبليس عليه لعنة الله .

كما قالوا بعدم عصـمة الملائكة بزعم أن إبليس كان من الملائكة ، وأنه لم يمتثل للأمر الإلهى بل اعتـرض على حكم الله ،وقاس بعقله الفـاسد بينه وبين آدم وقال ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾(١)

كما استـدلوا - ثالثاً - على عدم عصمة الملائكـة ، بقصة « هاروت وماروت » كما ذكرت فى الإسرائيليـات ، وبعض الروايات ، والأكاذيب والخرافات ، مما لا يستـحق ذكره ، فهـذا كل ما فى جعبـتهم ، فنقول وبالله الـتوفيق : إن عصـمة الملائكة ثابتة بالقرآن والسنة وعليه إجماع الأمة ، وأن كل ما ذكرت من شبهات إنما هى من نسج الخيـال ،أو الجهل والخبـال ، فأما عـن قصة الملائكة مع آدم ، كـما حكته الآيات الكريمات

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)

فهل قولهم هذا فيه سب لآدم وذريته ، ومدح وتـزكية لنفوسهم واعتراض على حكم ربهم ؟؟ لا وألف لا .

ولعل الحكمـة من إخبـار الله عز وجل للمـلائكة عن هذا المخلوق وذريتـه ما سيكون بينه وبينهم من صلة ، فقد أمروا بعد خلقه بتكريمه وتعظيمه بالسجود له ،

---

(١) سورة ص آية ٧٦

امتحاناً لطاعتهم ، وقدر الله سبحانه أن يكون منهم الحفظة والكتبة وملائكة الوحى ، والمطر والنبات والعذاب والموت . . وكلها متعلقة بحياة البشر ومقاديرهم ومصائرهم .

ولم يكن جواب الملائكة على هذا الإخبار الإلهى بخلق آدم من قبيل الاعتراض مطلقاً ، وإنما كانت حكمة هذا الخلق الجديد خافية عليهم فأرادوا معرفتها ، لماذا يخلق الله خلقاً غيرهم ؟ وهل بدر منهم تقصير أو قصور فى مهمتهم ، لذلك أراد الله أن يخلق غيرهم ؟ فكان سؤالهم واستفسارهم . وكونهم وصفوا الإنسان بالفساد فى الأرض وسفك الدماء ، قبل أن يوجد ، لأن الله أعلمهم بذلك ولأنهم أدركوا أنه ما دام هذا المخلوق سيكون من طين ويعيش فى الأرض فلا بد أن تكون له طبيعة قابلة للخير والشر ، وحينئذ لابد أن يقع التنازع والصراع بين ذريته ، فيحصل الفساد وتسفك الدماء .

وحين أدرك الملائكة خصائص هذا المخلوق وعرفوا ما زوده الله به من الاستعداد للمعرفة والتزود من العلم سجدوا سجود تحية وتكريم امتثالاً لأمر الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]

ومن هنا ينتقل بنا الكلام إلى الشبهة الثانية القائلة بعدم عصمة الملائكة لأن إبليس – وهو من الملائكة – لم يمتثل لأمر الله واعترض على حكمه فاستحق بذلك الغواية والطرد من رحمة الله ومن جنته ، كما حكته الآيات فى غير موضع فى القرآن .

(١) سورة البقرة آية ٣٤

نقول : إن من زعم أن إبليس كان من الملائكة فقد أبعد النزع ، وأخطأ الفهم وضل الطريق وذلك لأن الله عز وجل فصل فى القضية بآية كريمة فى سورة الكهف فقال :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾(١)

فهل بعد هذا الحق الناصع ، والوضوح القاطع ، يقول أحد بأن إبليس من الملائكة ، أو يردد تلك الإسرائيليات بأن إبليس كان طاوس الملائكة ، وأعلم الملائكة ، وأعبد الملائكة ، ونحو ذلك ، كيف ؟ وقد اختلف عنهم خَلقًا وخُلقًا ، وبداية ونهاية وحياة ومصيراً !

أى وجه للشبه بين إبليس والملائكة ؟ وهم مخلوقون من نور، وقدخلق من نار وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو قد فسق عن أمر ربه ، واعترض على حكم خالقه ، وهم لا يتزوجون ولا يتناسلون ، وهو له أزواج وذرية على شاكلته أعداء لله رب العالمين ، وهم الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، وهو الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وهم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وهو الذى لا يفتر ولا يتوانى فى إضلال خلق الله بعد ما أقسم بعزة الله على إغواء الخلق أجمعين ، إلا من لا يستطيع الوصول إليه من المخلصين ، وهو الذى لا يدع وسيلة ولا باباً إلى إغوائهم إلا سلكه إليهم

---

(١) سورة الكهف آية ٥٠

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾(١)

فكل هذه فروق بين الملائكة وإبليس ، تحول دون أن يكون إبليس من الملائكة طرفة عين ، فضلاً عما حكم الله عز وجل به عليه من مصير

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٢)

لكن يبقى هنا استفسار : ما وجه الحكمة في استثناء إبليس من السجود مع أنه للملائكة ؟ نقول وبالله التوفيق : أولاً : هذا الاستثناء منقطع ، كما يقول أهل اللغة ، يقال : جاء القوم إلا حماراً ، وأكلت التفاح إلا برتقالة ، وهنا يقال : سجد الملائكة إلا إبليس .

كذلك يقال : صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وإبليس كان معهم - ولم يكن منهم ، كما علمت - فبحكم معيته للملائكة ، وهو فرد بين أمم الملائكة ، كان عليه أن يسجد ، ولكنه أبى ، لأنه خانه أصله الناري ، وطبعه الفاسد ، إذ قاس وقارن، فضل وهلك ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وأما عن آخر ما في جعبتهم من شبهات حول عدم عصمة الملائكة ، فهي قصة هاروت وماروت التي حكاها الله في سورة البقرة ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) سورة الأعراف آية ١٦ - ١٧
(٢) سورة الأعراف آية ١٨

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

فقد أورد كثير من المفسرين عند تفسير هذه الآية الكريمة روايات كثيرة ، وقصص عجيبة ، كلها من خرافات بنى إسرائيل ، وأكاذيبهم التى لا يشهد لها عقل ولا نقل ، ولا شرع، ولم يقف بعض رواة هذا القصص الخرافى الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين ولكنهم أوغلوا باب الإثم والتجنى الفاضح فألصقوا هذا الزور إلى النبى ﷺ ، ورفعوه إليه، سبحانك ربى هذا بهتان عظيم. وقد حكم بوضع هذه القصة علماء كثيرون منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزى ، وابن كثير، والقاضى عياض، وغيرهم . ونص الشهاب العراقى على أن من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما ، فهو كافر بالله العظيم .

(١) سورة البقرة آية ١٠١ - ١٠٢

وقال الإمام القاضى عياض فى « الشفا» : وما ذكر أهل الأخبار ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت، لم يرد فيه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو شيئا يؤخذ بالقياس (١) . وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير : المرفوع من هذه القصة موضوع ، وأما ما ليس مرفوعاً فمنشؤه روايات إسرائيلية ، أخذت عن كعب وغيره ، ألحقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام(٢) . وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا فى معرفة أصول الدين وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات كالإمام الرازى وأبى حيان وأبى السعود والألوسى وغيرهم .

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة ، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر التى لا تصدر من عربيد ، وقد أخبر الله عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . كما ورد فى بعض الروايات - التى ذكرها بعض المفسرين - رد لكلام الله، ففى رواية : أن الله قال لهما لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى ، فقالا :لو فعلت بنا يارب ما عصيناك ؟ ورد كلام الله كفر ، نتزه عنه من له علم بالله وصفاته ، فضلا عن الملائكة ، ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء وتصير كوكبًا مضيئًا ، وما النجم الذين يزعمون أنه « الزهرة » وزعموا أنه كان امرأة ، فمسخت إلا فى مكانه من يوم أن خلق الله السموات والأرض .

وهذه الخرافات التى لا يشهد بها نقل صحيح ولاعقل سليم هى كذلك مخالفة لما صار عند العلماء المحدثين أمراً يقينياً . ولست أدرى ما الداعى لكل هذه الأكاذيب ، والآية الكريمة نفت كل ما زعموه من أصله ،فى قوله تعالى

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾

و [ما] نافية وليست موصولة ، يعنى : لم ينزل الله علم السحر على

(١) عالم الملائكة ص ٣٠ بتصرف

(٢) ابن كثير ج ١ ص ١٤١

الملكين، قاله ابن كثير ورجحه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون قوله ببابل من المؤخر الذى معناه المقدم ، قال فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل وجه تقديمه أن يقال [واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنياً بالملكين : جبريل وميكائيل عليهما السلام ، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً ﷺ ، أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل وأن الذين ، يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم . هذا لفظه بحروفه [1] .

ونقول أيضًا : وحتى على اعتبار أن [ما] موصولة ، بمعنى [الذى] :

فيكون المراد بما أنزل هو : علم السحر الذى نزل ليعلماه الناس حتى يحذروا منه ، فالسبب فى نزولهما هو : تعليم الناس أبواباً من السحر ، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحراً ، وكانا في غاية الاحتياط، فما كانا يعلمان أحداً شيئا من السحر حتى يحذراه ، ويقولا له : إنما

(١) انظر ابن كثير ج ١ ص ١٣٧

نحن فتنة أى بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به ، وأما تعلمه للحذر منه، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة ، فهذا لا شيء فيه ، بل هو أمر مطلوب ، مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه ولكن النـاس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه وذلك بإذن الله ومشيئته . وقد دلت الآية : على أن تعلم السحـر لتحذير الناس من الوقوع فـيه والعمل به مبـاح ، ولا إثم فيه ، وأيضا تعلمـه لإزالة الإشتبـاه بينه وبين المعجزة والنبـوة مباح ولا إثم فـيه ، وإنما الحرام والإثم فى تعلمه أو تعليـمه للعمل به ، فهو مثل مـا قيل : عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ، ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .

والخلاصة : على القارىء أن يحذر من هذه الإسرائيليات ، سواء وجدها فى كتـاب تفسيـر أو تاريخ أو مواعظ أو أدب [1]، وأن يكون على يقين من عـصمـة الملائكة ، كعصـمة الأنبياء . كما يجب على المـؤمن أن يعلم أن الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذى يعبد الله ويتبع رضوانه لامناص له من أن يتولـى الملائكة بالحب والتوقيـر ، وأن يستحى منـهم ويكرمهم ويتجـنب كل ما من شأنـه أن يسىء إليهم ويؤذيهم ، وأعظم مـا تؤذى به الملائكة الذنوب والمعاصى والكفر والـشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للمـلائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن التى يعصى فيها الله تعالى ، أو التى يوجد فيها مـا يكرهه الله ويبغضه كالأنصاب والتمـاثيل والصور ، ولا تقرب من تلبس بمعصية كـالسكران . كما أن البيت الذى يتلى فيه القرآن يتـسع بأهله ويكثر خيره وتحضره الملائكة وتخرج منه الشياطين ، وإن البيت الذى لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل يضيق بأهله ويقـل خيره وتخرج منه الملائكـة وتحضره الشيـاطين . وكذلك

(١) عالم الملائكة ص ٣٢ - ٣٣

يؤذيهم -كما علمت- كل ما يتأذى منه بنو آدم من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ . وبالجملة ، فعلى المؤمن أن يكون تقياً نقياً ، أواهاً منيباً ، ذاكراً شاكراً ، حتى يفوز بصحبة الملائكة الأبرار [1].

(١) عالم الملائكة الأبرار للشيخ عمر سليمان الأشقر ، بتصرف

الباب الثاني

الإيمان بالكتب

* ما هى الكتب
* حقيقة الإيمان بالكتب
* كيف نؤمن بالكتب
* أدلة وجوب الإيمان بالكتب
* ما عرف من الكتب وما لم يعرف
* ما يجب إجمالاً وتفصيلاً
* ما هى منزلة القرآن الكريم بين الكتب
* كيف ننتفع بالقرآن
* هل القرآن مخلوق

الركن الثالث :

الإيمان بالكتب

من أركان الإيمان ومن عقيـدة المؤمن « الإيمان بالكتب » ، فما هى الكتب التى يؤمن بها ، مـا معناها وما هى ماهيـة الإيمان بها ، وما دليلها ، ومـا منزلة القرآن الكريم بينها ؟

فنقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : تعريف الكتب :

الكتب جمع كـتاب ، والكتاب : مصدر كـتب يكتب كَتْباً وكتابـاً وكتابة ، إذا جمع الحـروف ، وألف بينها ، فكانت كلمات ذات مـعان خاصـة ، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعانى جملاً مفيدة ، تسمى كلاماً .

فالكتاب إذًا هو ما حوى كلاماً مفـيداً ، ذا أغراض متعددة ، وكتب الله تعالى التى يجب الإيمان بها : هى الصـحف التى حوت كلام الله عـز وجل الذى أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتبًا ، أو بقيت صحفاً لم تجمع ، ولم يتكون منها كتاب خاص.

فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليـهماالسلام . والكتب كالتوراة والزبور والإنجيل . والقرآن العظيم .

حقيقة الإيمان بالكتب :

إن معنى الإيمان بالكتب الإلـهية الذى هو جزء من عـقيدة المؤمن ، التـصديق

الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام ، فجمع ودون فكان صحفاً مطهرة وكتباً قيمة . فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً ،وما لم يعرف آمن به إجمالاً .

على أى دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن فى حاجة إلى أدلة عقلية ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً ، لا تزعزعه أعاصير الشك ، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة ، ويتحاشى دوماً أن يؤمن إيمان التقليد والتبعية ، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة وأم البراهين ليقيم اعتقاده بالكتب عليهما ،كما أقام ويقيم كل معتقداته عليهما إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان والبرهانان اللذان لا يغلبان ، وهما دليلا الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب وآمن به كل عقلاء البشر .

فمن دليل الأثر :

نكتفى بأثر واحد وهو « القرآن الكريم » الكتاب الذى دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود مُنَزِّله ، وعلى علمه وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ، ودل على نبوة من أنزل عليه وعلى رسالته ، وعلمه وحكمته وفضله ، وشرفه ، وكماله ، كما دل بالتالى على ذات نفسه ، بأنه كتاب الله ، ووحيه ، وتنزيله ، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه ، حيث ذكر صحف إبراهيم ، وتوراة موسى وزابور داود ، وإنجيل عيسى عليهم السلام ، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام ، كما قرر أن لله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء .

وبعد : فأى أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى؟ إن من يصغى إلى صوت العقل ويستمع إلى شهادة الفطرة ويحكم شواهد الوجدان البشرى ، ويرضى بحكمها ، لا يسعه أبداً غير

الإيمان بالله رباً ، وبمحمد ﷺ رسـولاً وبالقرآن إماماً وحكماً ، وبالإسـلام شرعاً وديناً . كل ذلك لدلالة القـرآن العظيـمة التى لا أرى مـا هو أعظم منهـا فى باب الدلالات على اختـلافها وتنـوعها ، إذ القـرآن - وهو كتاب مـعجز - قـد حوى علوماً ومعارف لم يتأت للبشر أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً الإتيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثانى « الجن » والتحدى ما زال قائماً فى قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]

وإن دلالة القرآن على مـا ذكرنا دلالة عقلـية منطقيـة ، لا ترد بحال ، وبرهان عقلى لا يغلب بآخـر وأن كل من أراد أن ينفى عن القرآن دلالته العظيـمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط فى إثبات مستحيلات قـضت كل العقول باستحالة إثباتها وهى :

* وجـود كلام بدون مـتكلم - وجـود علم بدون عـالم - وجود رسـالة بدون رسول - وجـود نبوة بدون نبى ولا منبىء - وجـود دلالة بدون دليل - وجود أثر بدون مؤثر .

هذه ستـة مستـحيلات كلها يـقول بها من يركب رأسـه ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على مـا ذكرناه آنفـاً ، وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحـماقـات ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة ؟ اللهم لا .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٨

ودليل الخبر :

ما الذى نورده من الأخبار وهى متكاثرة متواترة ؟

إن العاقل الحيى من الناس ليخجل إذا أراد أن يدلل على وجود البدهيات العقلية ، والضرورات الكونية ، أرأيت لو قام أحد فى وسط جمع حاشد من الناس ، يدلل لهم فى حماس على وجود الشمس والقمر والأرض والسماء ، أو على حاجة العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، أو المريض إلى الدواء ، والخائف إلى الأمان ، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟!

إذاً فإن حال من نصّب نفسه للناس يدلل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتباً ، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب ، وعملوا بها ، وانتفعوا بهديها ، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشرى ومنذ آلاف السنين لأعجب من حال الأول ؟ والله المستعان .

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هى أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان : هى أخبار الله تعالى الخلاق العليم ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟

يقول تعالى فى تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾[1]

ويقول فى الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[2]

---

(١) سورة النساء آية ١٠٥ (٢) سورة النساء آية ١١٣

ويقول فى الإخبار عن توحيده فى ألوهيته ، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصدقاً لما بين يديه من الكتب التى سبقته وبإنزال التوارة والإنجيل والفرقان :

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾[1]

ويقول فى تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله ، وإتيانه داود زبوراً ، وتكليمه موسى تكليماً ، وفى بيان الحكمة من إرسال الرسل :

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[2]

ونكتفى بهذا القدر من إخبار الله تعـالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١ – ٤

(٢) سورة النساء الآيات ١٦٣ – ١٦٥

«القرآن الكريم » فإن فيه أخبار الله تعالى المصرحة بوحيه وكتبه وبأسماء كتبه وأسماء رسله الذين أوحى إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، الأمر الذى لايترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد فى نفس إنسان فى شأن الكتب الإلهية ، ووجوب الإيمان بها ، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام وشرائع وآداب [١] .

أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية ، وكونه ركن من أركان الإيمان :

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية واجب شرعى ، لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضى إلا طاعة الله تعالى فيه ، وتحريم معصيته ، إذ قال تعالى فى الأمر بالإيمان بكتبه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٢]

إن هذه الآية وحدها كافية فى الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة ، وبالقرآن الكريم - كتاب الإسلام والمسلمين خاصة - وفى تحريم التكذيب بها ، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها مما هو وحى الله ، وكلامه سبحانه وتعالى.

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب ،بل هو أحد أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها وإنه - الإيمان بالكتب - للركن الثالث من تلك الأركان ،التى هى بناء العقيدة الإسلامية ،كما جاء ذلك فى

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٣١ - ٢٣٥ بتصرف

(٢) سورة النساء آية ١٣٦

الكتاب والسنة ، ففى الكتاب يقول تعالى :

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾(١)

ويقول سبحانه :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ ﴾(٢)

ومن السنة ، حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذى جاء فيه سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإيمان ، وجواب الرسول ﷺ له بأنه : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . . »(٣) .

كما أن الإيمان بالكتب واجب عقلى فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها وإقامة الحجة عليهم بها ، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً فى إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التى أرسل إليها حتى يؤمنوا به ويصدقوه ، ويتبعوه ، ويعملوا بما جاءهم به ، والتشريع الإلهى نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ويتضمنه ، ويثبت فيه ، ليبقى بعد

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٣) رواه الستة

وفاة الرسول الذى جاء شرعاً محفوظاً ، تعمل به الأجيال إلى المدى الذى حدد له بنسخه برسالة أخرى ، أو ينسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل ، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوارة ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوارة كليهما .

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذى جاء به ، أو ضاع الكثير ، وحينئذ يقول الناس : بم نعبد الله ، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به ؟ وتكون لهم الحجة على الله تعالى ،وهذا ما لم يرده الله تعالى حيث صرح بنفسه فى قوله :

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١)

ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يعرف :

• إن المصدر الوحيد الذى يرجع إليه فى معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده ، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً لا يتطرق إليه معه الزيادة ، ولا النقص ، ولا التحريف ، ولا التغيير ، أو التبديل ، بحال من الأحوال ، لأنه من ساعة نزول الآيات الأولى منه ، أو السورة القصيرة أو الطويلة ، ورجال متوفرون لكتابته فى سطورهم ،وحفظه فى صدورهم ، فلم يتم نزوله فى خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء ، ثم لم يمض غير زمن قصير حتى أصبح حفاظ القرآن الكريم غيباً فى الصدور،عشرات الآلاف من الرجال الأفاضل، والنساء الفضليات واستمر محفوظاً فى الصدور ومدوناً فى السطور،ترعاه دول وأمم وشعوب وحكومات ، وتتوارث حفظه ، ورعايته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا ،

(١) سورة النساء آية ١٦٥

وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى إلى قرب نهاية هذه الحياة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2]

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة : صحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وثلاثة كتب هى : توراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، عليهم السلام ذكرها فى مواضع متفرقة منه : نذكر منها قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾[3]

والمراد من لفظ الكتاب فى هذه الآية « التوارة » وقوله تعالى فى الحديث عن اليهود :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾[4]

وقوله تعالى :

---

(١) سورة الحجر آية ٩
(٢) سورة فصلت الآيتان ٤١ - ٤٢
(٣) سورة الفرقان الآية ٣٥
(٤) سورة المائدة الآية ٤٣ - ٤٤

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٣] .

فقد جاء فى هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى كما جاء فى مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار ، نحو قوله تعالى عن التوراة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ .. ﴾[٤]

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص فى الأطراف . ونحو قوله تعالى عن التوراة والإنجيل :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ ﴾[٥]

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٥
(٢) سورة الحديد الآية ٢٧
(٣) سورة الأعلى الآية ١٨ - ١٩ .
(٤) سورة المائدة الآية ٤٥
(٥) سورة الفتح الآية ٢٩

فـقد نصت هذه الآية القـرآنيـة على أن وصف الرسول مـحمـد ﷺ ووصف أصحـابه فى كل من التوراة والإنجـيل بنفس المعنى الذى حوته هذه الآية القـرآنية الكريمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(١)

فقـد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن فى صـحف كل من إبراهيم وموسى : الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامـة لا يحمل عنها ذنبها غيرها ، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله ، وسعى فيه بنفسه ، كما أن الإنسان سوف يعرف به ، ويجزاه كاملاً غير منقوص . فهذه الكتب التى ذكرت فى القرآن الكريم بأسمائها ، وأسـماء أصحابها الذين نزلت عليهم يؤمن بهـا المؤمن تفصيلاً كـما ذكـرت مفـصلة ، ويؤمن بباقى كـتب الله تعـالى التى لم تذكر فى القـرآن مفصلة، على سبـيل الإجمال ، حيث لم يرد فى القرآن ذكر أسمـائها ولا أسماء من نزلت عليهم ، وإنما ذكرت مجملة كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(٢)

وكما فى قوله تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

---

(١) سورة النجم الآيات ٣٦ - ٤١

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾(١)

فقد جاء فى هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملاً فيؤمن بها المؤمن مجملة وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم »(٢) .

* وكذلك مما يجب الإيمان به ، الإيمان بكل ما جاء فى الكتب من الشرائع ، وأنه كان واجباً على الأمم الذين نزلت إليهم كما قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٢) عقيدة المؤمن ص ٢٢٥ - ٢٢٨ بتصرف

مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى
ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين
(٤٦) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٧) وأنزلنا إليك الكتاب
بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم
بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل
جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة
ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم
جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨) وأن احكم بينهم بما
أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما
أنزل الله إليك ﴾(١)

* وأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه ، كما قال الله تعالى فى الإنجيل :

﴿ مصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾(٢)

وقال فى القرآن :

﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾(٣)

* وأن كل من كذب بشىء منها أو أبى عن الانقياد لها مع تعلق خطابه به يكفر

---

(١) سورة المائدة الآيات ٤٤ - ٤٩
(٢) سورة المائدة آية ٤٦
(٣) سورة المائدة آية ٤٨

بذلك ،كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾(١)

* وأن نسخ الكتب الاولى بعضها ببعض حق ، كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل ، قال تعالى فى عيسى عليه السلام :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٢)

وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل بالقرآن ، كما قال تعالى فى وصف النبى محمد ﷺ :

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(٣)

(١) سورة الأعراف آية ٤٠.
(٢) سورة آل عمران آية ٤٨ - ٥٠
(٣) سورة الأعراف آية ١٥٧

وأن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق ، كما قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) الآيات

والناسخ والمنسوخ فى آيات مشهورات مذكورات فى موضعها من كتب التفسير وغيرها .

وإنه لا يأتى كتاب بعده ، ولا مغير ولا مبدل لشىء من شرائعه بعده ، وأنه ليس لأحد الخروج عن شىء من أحكامه ، وأن من كذب بشىء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه ، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به ، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل ، قال تعالى :

﴿ المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣)

والإيمان إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٦

(٢) سورة النحل آية ١٠١

(٣) سورة الأعراف آية ١ - ٣

(٤) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد للشيخ حافظ بن أحمد حكمى ج ٢ ص ٧٥ - ٧٧ بتصرف

نعم يجب الإيمان بجميع الكتب التى أنزلها الله عز وجل إجمالاً وتفصيلاً ، على نحو ما سبق .

*** ولكن كيف نؤمن بهذه الكتب ؟**

نحن أمرنا أن نؤمن بما أنزل كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[1]

ولم نؤمر أن نؤمن بما بقى مما حرف وبدل . «نؤمن بما أنزل لا بما حرف وبدل».

* فنحن مثلاً إذ نؤمن بالتوراة التى نزلت على موسى ، ونعلم أن ذلك من الإيمان ، وقد أخبر الله أن فيها هدى ونوراً وأثنى عليها فى كتابه الخاتم فقال

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2]

إلا أن هذه التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام غير موجودة بالمرة ، كما هو مسلم من الجميع . أما التوارة المتداولة الآن فقد قام بكتابتها أكثر من كاتب ، وفى أزمان مختلفة ، وقد دخلها التحريف .

يقول المرحوم الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى : «ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود »[3]. وقد أثبت القرآن هذا التحريف ، ونعى على اليهود التغيير والتبديل الذى أدخلوه على التوراة فقال :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا

(١) سورة البقرة آية ٤

(٢) سورة الأنبياء آية ٤٨

(٣) راجع بتوسع كتابنا "تعصب اليهود" .

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١)

فهم تجرأوا على كتاب الله ، فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق ، ونسوا قدراً مما ذكرهم الله به فى التوراة ، فالذى عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾(٢)

وأول دليل على صحة نقد القرآن للتوراة المتداولة ،أنها ليست كلها هى توراة موسى التى جعلها الله نوراً وهدى،ما جاء فى التوراة من وصف الله بما لايليق بجلاله وكماله ، ففى سفر التكوين [٣ : ٢٢] «وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا بالخير والشر » وفيه [٦:٦] « فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف فى قلبه » .

فهل يعقل أن هذا من كلام الله ، وهل يصح أن ينسب إليه الحزن والأسف على شيء عمله . وكذلك ما جاء فيها مما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع ما لهم من عصمة ومكانة رقيعة وخلق متين ، فقالوا عن نوح إنه سكر وتعرى ، وعن إبراهيم أنه كذاب ، وأن لوطاً زنا بابنتيه وأنجب منهما ، وأن داود قد خان قائده وزنا بزوجته ثم قتله ، وعن سليمان أنه عبد الأصنام إرضاء لزوجته ، وعن موسى أنه خان الرسالة ، وأن هارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل . . الخ . فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذا ، لقد اضطر النقاد من مصلحى اليهود أنفسهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة وأن التوراة قد حرفت ، وقد أورد مذهبهم «حاخام باريزا أجوليان ويل » فى كتاب اليهودية (٣).

(١) سورة البقرة آية ٧٥

(٢) سورة النساء آية ٤٦

(٣) راجع بتوسع كتاب "إظهار الحق"

* وكذلك نحن إذ نؤمن بالإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام وأنه هدى ونور ، إلا أن الإنجيل قد لحقه مالحق التوراة من التحريف ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ ﴾(١)

ويكفى لصحة التدليل على التحريف فى الأناجيل المتداولة بأيدى النصارى الآن، أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً أو أكثر ، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون وأسماؤهم مكتوبة عليها ، وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هى رأى بولس دون سائر الحواريين ودون أقرب الأقربين إلى عيسى .

وقد وجد فى مكتبة أمير من الأمراء فى « باريس » نسخة من إنجيل « برنابا» وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة ، فى أمور أساسية كقوله بالتوحيد ، ورسالة عيسى ، وعدم بنوته لله ، وإنكار صلبه ، والتصريح بالاسم الصريح فى البشارة بالنبى محمد ﷺ ، هذا والتناقض حتى بين الأناجيل المعترف بها واضح وضوح الشمس ، ليس فى السفر الواحد أو الإصحاح الواحد، بل وفى الصفحة الواحدة كذلك (٢) .

(١) سورة المائدة آية ١٤
(٢) راجع بتوسع كتابنا تعصب النصارى .

* وإذا كان الأمر كذلك فما معنى تصديق القرآن للكتب السابقة ؟

أعنى إذا كان التحريف فى التوراة والإنجيل ثابتاً ثبوتاً حقيقياً لا ريب فيه بنص القرآن من جهة ، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى ، فما معنى أن القرآن جاء مصدقاً لما تقدم من الكتب الإلهية ؟

معنى ذلك : أن القرآن جاء مؤيداً للحق الذى ورد فيها، كما سبقت الإشارة إليه ، من عبادة الله وحده والإيمان برسله ، والتصديق بالجزاء ، ورعاية الحق والعدل ، والتخلق بالأخلاق الصالحة .

وهو فى الوقت ذاته مهيمناً عليها ومبيناً ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط وتحريف وتصحيف ، وتغيير وتبديل .

وإذا انتفت هذه الأخطاء التى أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس بأسم الله ظهر الحق واستبان والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]

وإقامتها لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف[2] .

***

(١) سورة المائدة آية ٦٨

(٢) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٤٤ - ١٤٧ بتصرف

ما هى منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى ؟

إن مما لا شك فيه - لدى العقلاء والعلماء والفصحاء - أن للقرآن الكريم منزلة بين سائر الكتب الإلهية التى تقدمته فى النزول ، وقد تتجلى هذه المنزلة العالية للقرآن العظيم بإمعان النظر فى النقاط التالية :

أولاً : كون القرآن ناسخًا لها لفظاً وحكماً ، فلا تقرأ للتعبد ، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام ، وذلك لما داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان ، ولأنها كانت شرائع خاصة ببنى إسرائيل ، أو موقوتة بزمن معين ، فى الوقت الذى أنزل القرآن الكريم ليكون كتاباً للعالمين

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(١)

ثانياً : كونه مهيمناً عليها رقيباً شهيداً ، فما صححه منها وأقره فيها صح وقر، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً عليه ليس منها، بطل وانتفى كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٢) .

ثالثاً : لتعهد الله عز وجل بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، وليس ذلك لغير القرآن فقال تعالى :

---

(١) سورة الفرقان آية ١

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[(١)]

كما قال :

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[(٢)]

في حين أن الله عز وجل استحفظ الأمم السابقة على كتبها

﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾[(٣)]

ولكنهم لم يحافظوا عليها ولم يحفظوها ، بل ضيعوها وحرفوها كما سبق . أما القرآن فعلى مدى الزمان لم تستطع يد العدوان أن تحرف فيه شيئًا لابزيادة أو نقصان .

رابعًا : اشتماله على كل خير ، وإرشاده لكل كمال ، وهدايته إلى سعادة الدارين ، كما أن فيه الرحمة بأتم معانيها ، تلك التى تشمل الإنسان والجان والحيوان ، والكافر والمؤمن ، والحى والميت ،وفيه الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية والنفسية والقلبية ، فيه الشفاء من الكفر والشرك والقلق والاضطراب ، والحيرة والخوف والكبر والحسد والكسل والعجز والبخل والشح والظلم والخوف كما قال تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٤)]

خامسًا : فيه التبيان والبيان لكل شيء مما الإنسان فى حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى ،وكذا الهداية الكاملة والرحمة التامة والبشرى بخيرى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) سورة فصلت آية ٤١ - ٤٢

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) سورة الإسراء آية ٨٢

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١)

سادساً : فيه النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية والمبدد لسائر الجهالات النفسية ، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية ، كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾(٢)

وفيه الحق الإلهى الثابت فى نفسه ، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾(٣)

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾(٤)

أى متلبسًا به ، مشتملاً عليه ، مؤيدًا له ومقررًا .

سابعًا : فيه الذكر الإلهى الذى تحيا عليه القلوب وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتزكو بالعمل به النفوس

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(٥)

وكذا الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٦)

نعم للمؤمنين (٧)

---

(١) سورة النحل آية ٨٩
(٢) سورة النساء آية ١٧٤
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٥
(٤) سورة المائدة آية ٤٨
(٥) سورة الزخرف آية ٤٤
(٦) سورة يونس آية ٥٧
(٧) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ٢٤٠ - ٢٤٥ بتصرف

ثامنًا : شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها ، واحتواؤه على أعظم منهج ربانى يحقق السعادة فى الدنيا والآخرة : « فالإيمان به يقتضى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناء الليل والنهار ، والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والنصيحة له ظاهراً وباطناً بجميع معانيها »[1] .

ولم لا ؟ وإن من يبتغى الحق ويريد الوصول إلى التعاليم الإلهية الصحيحة لا يجد أمامه غير القرآن الكريم فهو الكتاب الذى حفظت أصوله وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن محمد ﷺ عن جبريل ، عن الله ، الأمر الذى لم يتوفر لكتاب مثله وأنه الجامع لأسمى المبادىء وأقوم المناهج ، وخير النظم ، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات ، والآداب والمعاملات ، والنظم وأنه الكفيل بخلق الفرد الكامل والأسرة الفاضلة والمجتمع الصالح ، والحكومة العادلة، والكيان القوى الذي يقيم الحق والعدل ويرفع الظلم ويدفع العدوان ، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة ووراثة الأرض[2] .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3]

(١) معارج القبول ج ٢ ص ٧٨ بتصرف
(٢) العقائد الإسلامية ص ١٤٧ - ١٤٨ بتصرف
(٣) سورة المائدة آية ١٤ - ١٥

تاسعًا : هذا القرآن هو الروح التى تتوقف عليه حياة الإنسان الفاضلة الكريمة، وأن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أموات حقًا لا ينتفعون بوجودهم ولا بحياتهم المادية ، قال تعالى فى هذا:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١)

ولكن من الذى ينتفع بالقرآن بما فيه من خير وهدى ونور وبيان ؟ إنهم من اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

١ - **الإسلام** : بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ووجهه ،طالباً رضاه ، منفذاً لأوامره ، متجنباً نواهيه وما يسخطه الله من اعتقاد وقول وعمل :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢)

٢ - **الإيمان :** بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول ﷺ ، ويؤمن إيماناً خاصاً بما فى القرآن من الهدى والخير ، يحمله على تعرفه عليه ومدارسته والعمل بما فيه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

(١) سورة الشورى آية ٥٢
(٢) سورة النحل آية ٨٩

وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)

٣ - **الإحسان** : بأن يحسن المرء فى إيمانه وإسلامه ، فيعيش يراقب الله تعالى فى كل ما يأتى ويذر ، وما يقدم وما يؤخر ، يراقبه فى طاعته كما يراقبه فى معصيته ويراقبه فى محابه فيأتيها ، ومساخطه فيجتنبها

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)

٤ - **التقوى** : بأن يتقى الله تعالى فى أن يشرك به أو أن يعصيه ،بترك ما أوجب عليه ، أو انتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)

* **وكلمة أخيرة** : إن من استكمل هذه الصفات ، وحققها فقد استوجب كل ما فى القرآن من خير وهدى ، وتحقق له ذلك كاملاً ، فحصل له الشفاء فى صدره وبدنه ، والرحمة فى قلبه ، والنور فى بصيرته ، والذكر والموعظة فى قلبه والبيان فى لسانه ، والحق فى حكمه ، والبشرى فى حياته وآخرته . وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم ينتفع بما فى القرآن من الهدى والخير ، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه ، وإن لذلك مثلاً نضربه : هو وجود مريض يوصف له دواء نافع ، ويقدم له ، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله فيبقى الدواء فى خزانته ، ويبقى هو يعانى من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفى

---

(١) سورة يونس آية ٥٧
(٢) سورة لقمان آية ٢ - ٣
(٣) سورة البقرة آية ٢

من مرضــه ، أو لا يكرهه أحد على شربه واسـتعمـاله فيـقى يعانى من أسقـامه وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت .

فهل الذنب ذنب الدواء ؟ والجواب : لا إن الذنـب ذنب المريض نفسه الذى لم يستعمل الدواء وهو بين يديه ، فكان حاله كحال من قال :

كالعيـس فى البيــداء يقتلها الظمـــأ

والمـــاء فـوق ظهـورها محمـــول

أ . هـ [١]

***

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ بتصرف .

مبحث : هل القرآن مخلوق ؟

قال صاحب العقيدة الطحاوية : « ولا نجادل فى القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فعلمه سيد المرسلين ، محمداً ﷺ ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شىء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين »

فقوله : ولا نجادل فى القرآن يحتمل أنَّه أراد : أنَّا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، بل نقول : إنَّه كلام رب العالمين . . إلخ كلامه ، يحتمل أنه أراد : أنَّا لا نجادل فى القراءة الثابتة ، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح وكل من المعنيين حق .

وقوله : ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله : ولا نخالف جماعة المسلمين ، مجرى على إطلاقه : أنا لا نخالف جماعة المسلمين فى جميع ما اتفقوا عليه ، فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة [1] .

وبالجملة ، فإن أهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون فى أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات ، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً ، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وأن نوع الكلام قديم [2] .

(١) العقيدة الطحاوية ص ٢٩٢ - ٢٩٤ بتصرف (٢) العقيدة الطحاوية ص ١٢٨

والذى تولى كبـر هذه الفتنة « أحـمد بن أبى دؤاد المعتـزلى » الذى كان وزيراً للمأمون ، فبدأ فى إشعال هذه الفتنة عام ٢١٨ هـ فكتب باسم المأمون إلى العلماء ليقـولوا بخلق القرآن تحت قـهر السلطان ، فـأبى « أحمد بن حنـبل » أن يخضع فحملوه مقيـدًا إلى المأمون ، ومعه « محمد بن نوح » على بعيـر ، فلما كان ببلاد الرحبـة جاءهما رجل من الأعراب فـقال لأحمـد : « يا هذا ، أنا وافد الناس ، فإياك أن تجـيبهم إلى ما يدعـونك إليه ، فتـحمل أوزارهم إلى يوم القيامـة» فلما اقترب من جيش الخليفة ، جاء خـادم وقال : يعز علي ياأبا عبد الله ، أن المأمون قد سل سيـفًا لم يسله من قبل ذلك، فجـثى أحمد على ركبتـيه ورمق بطرفه إلى السماء وقـال :« سيدى غر حلمك هذا الفـاجر حتى تجرأ على أوليـائك بالضرب والقتل » فجاءهم الصريخ بموت المأمون . . قال أحمد : ففرحنا

وولى الخـلافة المعـتصم ، فـردوهما إلى بغـداد ، ومات مـحمـد بن نوح فى الطريق، ودخل أحمد بن حنـبل السجن ببغداد ومكث به (٢٨) « ثمانيـة وعشرين شهراً » ثم خـرج إلى الضرب بين يدى المعتـصم ، وأصر أحمد أن كلام الـله غير مخلوق ، ومن قال القرآن محدث فهو كافر .

وأصيب أبو دؤاد بالفالج فى جلده وفرح الكثيـر من الناس لمرضه . واستمرت محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤ « أربع عشرة سنة » وقد ثبته الله تعالى . وقد قال هلال بن العـلاء: « لولا أن ثبت أحمـد فى الفتنة لكفـر الناس » وقيل أن سـبب الفـتنة النصارى الذين كـانوا فى حاشـية البـيت الأموى ، وعلى رأسـهم يوحنا الدمشقى الذى كان يبث بين المسلمين أن القرآن ذكـر أن عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم فتكون كلمته القديمة فيسألهم أكلمته قديمة أم لا ؟

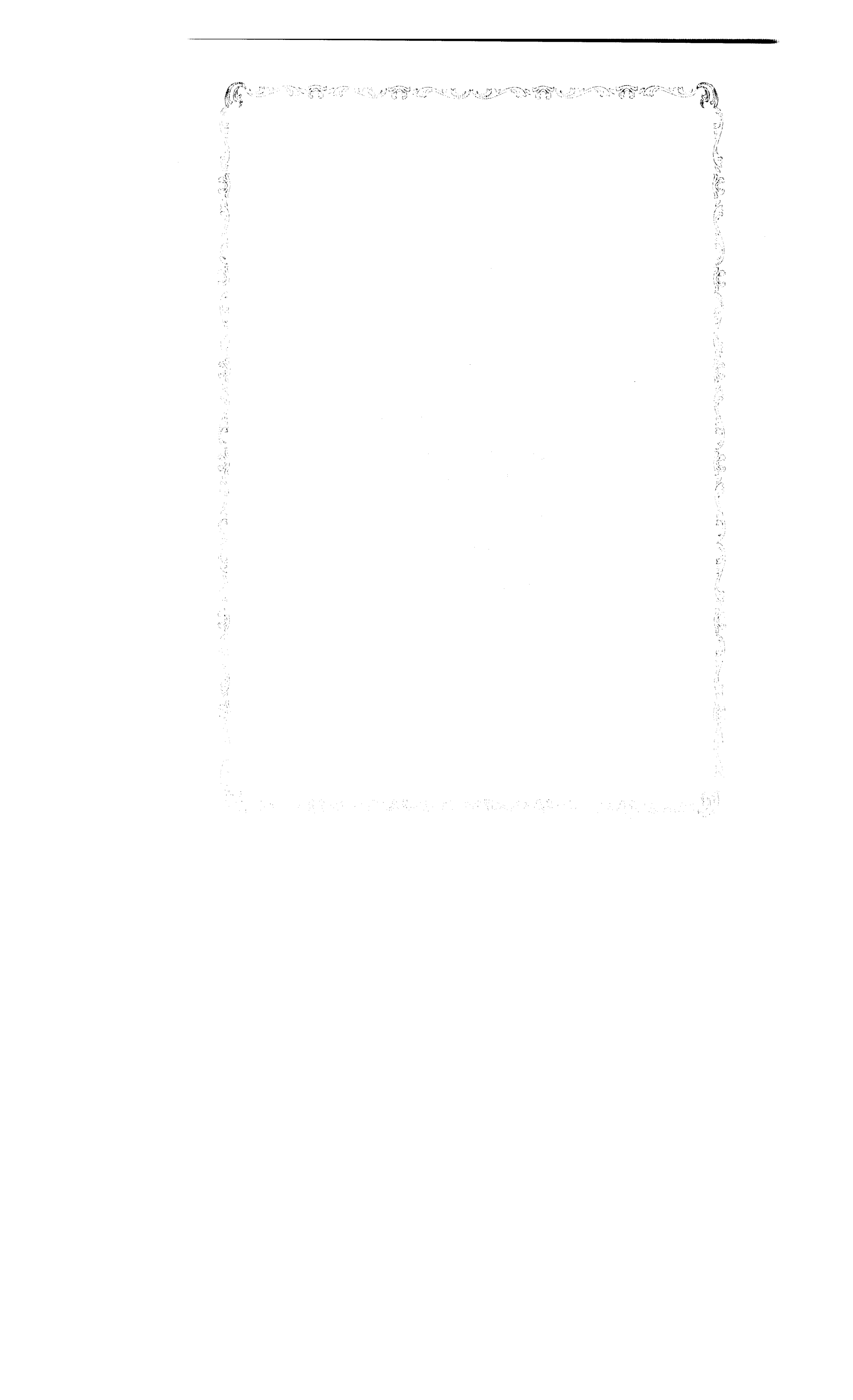
فإن قـالوا : لا فقد قـالوا : إن كلامه مـخلوق ، وإن قالوا قـديمة ،ادعوا أن عيسى قديم ، ولا شك أن ذلك تلبيس لأن معنى كلمة الله ، أن الله خلقه بكلمة منه كما نص على ذلك فى آيات أخرى لا أنه ذات الكلمة [١] .

(١) القنديل فى فقه الدليل لأبى المنذر عبدالحق بن عبداللطيف ج١ ص ٤٦ - ٤٧ بتصرف .

الباب الثالث

الإيمان بالأنبياء والرسل

* ما معنى النبوة
* من هم الرسل
* مؤهلات الأنبياء
* صفات المرسلين
* معنى الإيمان بالرسل
* عصمة الأنبياء
* خاتم الأنبياء محمد ﷺ
* من ثمرات الإيمان بالرسل



الركن الرابع الإيمان بالأنبياء والرسل

ما معنى النبوة لغة وشرعًا :

النبوة لغة : اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره ، ومنه قولهم :نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس، أو هي اسم مشتق من أنبأ فلان غيره ينبئه إنباء ، إذا أخبره بخبرذى شأن ، ولهذا يقال النبوءة بالهمزة بعد الواو ، وبها قرأ ورش عن نافع « آتيناهم الكتاب والحكم والنبوءة»[1] وقرأ حفص عن عاصم النبوّة بواو مشددة ، ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه ، وذلك بقلب الهمزة واوًا ، وإدغامها في الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة

والنبوة شرعًا : هى إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، والإعلاء من شأنه ، بإنبائه بالوحي الذى أراده له ، أو له ولغيره . (٢)

والنبى : ذكر من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بأمر ، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبى ورسول ،وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبى غير رسول ، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبى والرسول ، هو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه ، والنبى من أوحى إليه بشىء ولم يؤمر بإبلاغه ، لاختصاصه به دون غيره من الناس. وعليه ، فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً .

أو أن النبى من أمره الله أن يدعو إلى شريعة سابقة، دون أن ينزل عليه كتابًا أو يوحى إليه بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ، وأما الرسول فهو من بعثه الله إلى قوم وأنزل عليه كتابًا، أو لم ينزل عليه كتابًا، لكن أوحى إليه بحكم لم يكن فى شريعة من قبله، وعلى هذافكل رسول نبى، وليس العكس، وهذا هو الراجح .

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٩ .

(٢) حاشية مصطلح الدين على العقائد ص ٣٦

الرسل في التاريخ :

لم تخل أمة من الأمم ، ولا زمان من الأزمنة من دعوة نبي أو رسالة رسول ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(١)

وكذا قال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾(٢)

وكذلك : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾(٣)

ولذلك فإن الرسل كانوا عددًا كبيرًا وجمًا غفيرًا ، لا يعلم عددهم إلا الله ، غير أننا لا نستطيع أن نجزم بعدد معين ، لا نزيد عليه ، ولا ننقص منه ، وذلك لعدم ثبوته عن الوحي الإلهي ، والخبر النبوي الصحيح ، ومعرفة عددهم أمر لا ينبني عليه تكليف ، فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر .

ولكننا نوقن بأن الأنبياء والرسل بدءوا بآدم أبي البشر عليه السلام ، كما بدأ الرسل بنوح عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾(٤)

وكما جاء في حديث الشفاعة الصحيح « فيأتون نوحًا فيقولون يانوح أنت أول رسل الله . . »(٥) هذا وعامة من ذكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم فيما يعرف بالشرق الأوسط . منها بعثوا وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا ودفنوا .

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٤
(٢) سورة الرعد ، آية ٧
(٣) سورة النحل ، آية ٣٦
(٤) سورة النساء آية ١٦٣
(٥) رواه البخاري ومسلم بتمامه

فمثلاً : إبراهيم عليه السلام بُعث بالعراق ، وهاجر منها إلى أرض كنعان فتنقل بين الحجاز والشام ، وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة . وإسحاق كان بالشام وكذا يعقوب إلا أنه هاجر إلى مصر ، وكذا يوسف عليه السلام الذى عاش بمصر حتى مات بها ، وموسى وهارون عاشا بمصر ، وداود وسليمان فى أرض المقدس ، وعيسى ولد فى بيت لحم وعاش بأرض المقدس ، ثم بعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بمكة التى ولد بها وعاش فيها إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز إلى أن توفى بها ، وبها قبره الشريف ﷺ [(١)] .

مؤهلات النبوة :

الذى ينبغى أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتى عن طريق الكسب والاجتهاد أبدًا ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية ،وعن كل الرغبات والشهوات ، وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيًا أو رسولاً بحال من الأحوال .

إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبدًا من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسى ، والضلال العقلى، والفساد الخلقى، والانحراف الفطرى ، ويضفى عليه الكمالات النفسية والعقلية والخلقية ، ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف .

ومن المؤهلات للنبوة وتلقى الوحى الإلهى :

أولاً : المثالية :

ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس .

(١) انظر بتوسع : عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ - ٢٦٩

ثانياً : شرف النسب :

إن عامل الوراثة ينتقل - حسب سنة الله الإلهية - من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ،ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشراف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام : الترفع عن الدنايا الخلقية ، والتنزه عما يُخلُّ بالمروءات ،ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوك شائن منحرف ، تكرهه الطباع البشرية السليمة وتشمئز منه النفوس الكريمة .

ثالثاً : عامل الزمن :

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات فى الزمن المعين ، تحتم بعثة نبى، وإرسال رسول وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير، أو فساد عام فى الأرض تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية ، وقربها كلما عم الشر وعظم الفساد،شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء وتطلعه إليه [1] .

والناظر فى هذه المؤهلات يراها وضحت فى كل الأنبياء والرسل ، لكنها كانت أكثر وضوحا وأسطع ضياء فى النبى ﷺ ، إذ اكتملت فيه بما لم تكتمل فى نبى غيره أو رسول سواه صلوات ربى وسلامه عليه ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

صفات الأنبياء :

إن للمؤهلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد فى أحدهم أبداً ، إذ هى واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده .

---

(١) عقيدة المؤمن ص٢٥٩ - ٢٦١ بتصرف

ومن تلك الصفات :

أولاً الصدق :

صدق النية والإرادة ، صدق القول ، والعمل ، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق ، وهو الكذب والنفاق ، أو الإهمال واللامبالاة ، والمتتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها .

ثانياً : الأمانة :

الأمانة فى كل شيء ، فى القول والعمل ، فى الحكم والقضاء ، فى الحديث والنقل فى الرواية والتبليغ ، فى السر والعلن معًا ، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهى الخيانة بحال من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبدًا ، ولو فى أقل الأشياء وأتفهها ، ومتى وجد شيء من الخيانة، فلا نبوة ولا أهلية لها أبدًا .

ثالثاً : التبليغ :

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه ،فلا يخفى منه شيئًا ، ولا يكتمه بحال فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضًا مما أوحى إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ، والكتمان للوحى الإلهى يتعذر على المرسلين ، ويستحيل فى حقهم ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتفت الرسالة .

رابعاً : الفطنة :

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هى مع ذلك : رقة الشعور وصفاء الذهن، ورهافة الحس ، وصدقه وسرعة البداهة ، على حد قول حسان بن ثابت فى النبى ﷺ :

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرف

لو لم يكن فيــه آيات مبينة كــانت بديهته تأتيك بالخــبر

إن الفطنة من المؤهــلات لتلقى الوحى ، والأمــانة عليــه ، وكـذا التـبليغ به ، والصدق فيه، فالغبــاء ، وبلادة الحس ، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقى عن الله تعالى ، كما يستحيل فى حقهم الكذب والخيانة والكتمان(١).

هذا ، وإن هذه الصـفات التى توفرت فى الأنبـياء والمرسلين ، لهى قـد بلغت أوجها وكمالها فى النبى محمد ﷺ ، كما ستعلمه .

ما معنى الإيمان بالرسل ؟

ومـعنى الإيمان بالرسل هو التـصديق الجـازم بأن الله تعـالى بعث فى كل أمـة رسولاً ، يدعوهم إلى عبادة الله وحـده لاشريك له ، والكفر بما يعبد من دونه ، وأن جمـيعهم صـادقون مـصدقون ، بارون راشـدون كرام بررة أتقـياء أمناء هداة مهتدون ، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، فلم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه، فهـل على الرسل إلا البلاغ المبين، وأنهم كـلهم كانوا على الحق المبين ، والهـدى المستبين .

اتفـقوا جـميـعًا فى كلمة التـوحيـد وأصول الدين ، وأمـا فروع الشـرائع من الفرائض والحـلال والحرام فقد تخـتلف ، فيفرض على هؤلاء مـا لا يفرض على هؤلاء ، ويخـفف على هؤلاء مـا يشـدد على أولئك ويحـرم على أمـة مـا يحل للأخرى ، وبالعكس، لحكمة بالغة وغاية محمودة قضاها ربنا عز وجل ، لاختلاف العقول والأفكار ، وتنوع المدارك والأفهام، وتغاير الأزمنة والأمكنة ، قال تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

وما ذلك إلا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(١)

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٨ ، والأنعام ١٦٥

وكذا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(٢)

وكذا الإيمان بهم يقتضى الإيمان بكل نبى ورسول ، فالإيمان بجميعهم متلازم ، من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى ، وبجميع الرسل عليهم السلام .

ولذلك وجب الإيمان بالأنبياء والرسل على الإجمال والتفصيل .

(١) سورة الملك ، آية (٢)

الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً

أما إجمالاً : بأن يؤمن المرء بكل من نبأ الله من نبي ، وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالتهم وممن لم يعرف .

وذلك لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾(1)

وكذا قوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(2)

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(3)

---

(1) سورة النساء آية ١٣٦

(2) سورة البقرة ، آية ٢٨٥

(3) سورة النساء ، آية ١٥٢

فلهذه الآيات وغيرها يؤمن المؤمن برسل الله تعالى ، ولا يفرق فى الإيمان بهم، بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود والنصارى ، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل ، وكفروا بعيسى بن مريم ومحمد ﷺ . ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ ، وقد كفَّرَ الله تعالى وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1]

وأما تفصيلاً : بأن يؤمن المرء بكل نبى ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحى إيماناً تفصيليًا فمن عرفهم عن طريق الوحى الإلهى بأسمائهم آمن بهم واحدًا واحدًا على التفصيل .

فيجب الإيمان بخمسة وعشرين نبيًا ورسولاً ، قد ذكرهم الله تعالى فى كتابه الكريم وهم « آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، يوسف ، وشعيب ، وأيوب ، ويونس ، وموسى وهارون ، وإلياس واليسع ، وذو الكفل ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وقد ذكروا فى القرآن الكريم ، منهم ثمانية عشرة فى آية

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

(١) سورة النساء ، آية ١٥١

ءاتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴿٨٣﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴿٨٤﴾ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ﴿٨٥﴾ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾

من سورة الأنعام[1]

وذكر السبعة الباقون مفرقين فى عدة سور من القرآن الكريم وهم : آدم ، وإدريس ،وهود ،وصالح ،وشعيب ،وذو الكفل ،وخاتمهم محمد ﷺ .

ماهية الإيمان بالرسل

كما يجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتبشيرهم وإنذارهم ، تبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه ، وإنذارهم من غضب الله وعقابه وناره إن كفروا به وعصوا رسله قال تعالى :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن ءامن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٤٨﴾ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾[2]

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٣ - ٨٦

(٢) سورة الأنعام ، آية ٤٨ ، ٤٩

كمـا يجب علينا أن نؤمن بأن جميـع هؤلاءالرسل بعثهـم الله لتحقيـق غرض أساسي واحد هو عـبادةالله عز وجل وإقامـة دينه وتوحيده في ربوبيتـه وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فقد قال سبحانه

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)

وقال أيضا : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾(٣)

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله ادى أمانته وبلغ رسالته على الوجه الاكمل وبينها بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا .

ويجب علينا طاعتهم ، وعـدم مخالفتهم ، لأن ذلك من طاعة اللـه سبحانه ، قال تعالى :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾(٤)

وقال أيضا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٥)

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٥

(٢) سورة الشورى ، آية ١٣

(٣) سورة النحل ، آية ٤٠

(٤) سورة النساء ، آية ٨٠

(٥) سورة النساء ، آية ٦٤

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علمًا وعملاً ،وأصدقهم ، وأكملهم أخلاقًا ، وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير فى التبليغ ، وعن الكبائر كلها والصغائر، وقد تقع منهم زلات أو عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم عليه السلام فى أكله من الشجرة على وجه النسيان ، ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها .(١)

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعًا كانوا رجالاً من البشر ، فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى ، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾(٢)

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية ، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون ويشربون ، ويمشون فى الأسواق وينامون ، ويجلسون ، ويضحكون ، ولهم أزواج وذرية ، ويتعرضون للأذى ، وتمتد إليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد ، وأنهم يموتون ، وقد يقتلون بغير حق، وأنهم يتألمون ، ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية بين الخلق ، وقد دل على ذلك كثير من النصوص ، منها قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

(١) انظر مبحث «عصمة الأنبياء»

(٢) سورة الأنبياء آية ٧ (٣) سورة آل عمران ، آية ١٤٤

مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[١]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[٣]

وقد قال رسول الله ﷺ : « ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء»[٤] .

وكان ﷺ « يمرض ويتألم ، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش ، والغضب والضجر والتعب ، ونحوذلك مما لا نقص عليه فيه »[٥] .

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية ، فلا يتصرفون فى الكون، ولا يملكون النفع أو الضرر، ولا يؤثرون فى إرادة الله تعالى، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه . قال تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٦]

وقال أيضا ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[٧]

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٢٠

(٢) سورة الرعد ، آية ٢٨

(٣) سورة المائدة ، آية ٧٥

(٤) أخرجه البخارى فى أول كتاب النكاح

(٥) راجع سيرة النبى ﷺ ، و«الشمائل النبوية» للترمذى ، و«الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزى ، وغيرها.

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٨٨

(٧) سورة الجن ، الآية ٢٦ ، ٢٧

وإنما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق تؤهلهم لتلقى الوحى والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوه ، يقتدى بهم فى أمور الدين والدنيا ، فيجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية نقيصة تقدح فى دينهم وطاعتهم لله جل وعلا ، أو فى مقدرتهم على تبليغ الرسالة التى حملوها ، فقد قال سبحانه فى حقهم :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾(١)

فهم قد كملهم الله سبحانه فى الأمانة والصدق والفطانة والتبليغ وغيرها من الأخلاق التى لابد منها للقيام بالحمل الذى حملهم الله إياه، وبالمسئولية التى أناطها بهم، وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق ، فقال عز شأنه عن إسماعيل عليه السلام :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾(٢)

وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾(٣)

إلى غير ذلك من الآيات الربانية التى شهدت لهم بالصدق والهدى .

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى ،

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٩ ، ٩٠ (٢) سورة مريم ، آية ٥٤

(٣) سورة مريم ، آية ٤١

والمعجزات هى مـا يجريه الله على أيدى رسله وأنبيائـه من خوارق العادات التى يتحدون بهـا العباد ، فنؤمن بكل ما ذكر فى القرآن الكريم منـها، وبما وردت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ وهذا القـدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل ، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضل بعـضهم على بعض ، لقوله عز من قائل : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ ﴾(١)

وينبغى أن نعتقد أن أفضل الرسل هم أولو العزم منهم ، وهم « نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، كما ذكرهم الله عز وجل فى آيتين : فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾(٢)

وأيضا : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾(٣)

ونؤمن أن أفضلهم وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا مـحمد بن عبد الله ﷺ ، وقد فسر بعض السلف قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ ﴾(٤)

بأنه سيـدنا محـمد ﷺ وفى ذلك أحاديـث صحيـحة منهـا: ما صح عن أبى هريرة رضى الله تعـالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قـال : « أنا سيـد ولد آدم يوم

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٣
(٢) سورة الأحزاب ، آية ٧
(٣) سورة الشورى ، آية ١٣
(٤) أنظر تفسير الطبرى جـ٥ ص٣٧٨

القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع»[١] وغيره من الأحاديث التى تدل بوضوح على أن محمدًا بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم ، فهو عبده المصطفى ونبيه المجتبى ، ورسوله المرتضى ، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء ، وسيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى وضلال مبين » [٢]

وسنفصل القول عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى[٣] ، أ.هـ[٤] .

***

(١) أخرجه مسلم وغيره

(٢) العقيدة الطحاوية

(٣) مبحث النبي محمد ﷺ

(٤) واجع بتوسع : معارج القبول ج٢ ص٧٨ - ٨٢ ، والإيمان أركانه حقيقته ، د. محمد نعيم ياسين ص٣٨ - ٤٤ ، والثمرات الزكية فى العقائد السلفية ص١٨١ - ١٩١ .

مبحث فى « عصمة الأنبياء »

الرسل اصطفاهم الله واختارهم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(١)

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصى ، صغيرها وكبيرها

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾(٢)

وحلاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة ، والتفانى فى الحق ، وأداء الواجب فمنهم الصديق :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٣)

ومنهم من اصطنعه الله لنفسه

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾(٤)

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾(٥)

ومنهم من هو بعين الله ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٦)

ومنهم من اجتباه الله وعلمه

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٣
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦١
(٣) سورة مريم ، آية ٤١
(٤) سورة طه ، آية ٣٩
(٥) سورة طه ، آية ٤١
(٦) سورة الطور ، آية ٤٨

تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١)

وبعد أن ذكرالله جملة من الأنبياء فى سورة مريم قال :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾(٢)

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا الغاية من السمو الروحي والصلة بالله

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾(٣)

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الواردة فى القرآن بشأن الأنبياء والرسل تضفي عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحى والصورة المثلى للكمال الإنسانى .

ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط فى الإثم ومنزهين عن

(١) سورة يوسف ، آية ٦

(٢) سورة مريم ، آية ٥٨

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥٣

الوقوع في المعاصي فلا يتركون واجبًا ،ولا يفعلون محرمًا ،ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي تجعل منهم القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى الذي يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقرر لهم ،والله سبحانه وتعالى هو الذي تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم ،حتى كانوا قممًا شامخة وأهلاً للاصطفاء والاجتباء

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾(١)

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾(٢)

وكذلك : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(٣)

فهذه الآيات أدلة بينة على مدى الكمال الإنساني الذى أفاضه الله على أنبيائه ورسله ،ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم في القلوب ، ولصغر شأنهم في أعين الناس ، وبذلك تضيع الثقة فيهم ، فلا ينقاد لهم أحد . وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق ، بل لو فعلوا شيئًا مما يتنافى مع الكمال الإنساني بأن يتركوا واجبًا ، أو يفعلوا محرمًا ، أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوة سيئة ولم يكونوا مثلاً عليا ومنارات هدى »(٤).

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٩ ، ٩٠ (٢) سورة الأنبياء ، آية ٧٣
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٩٠
(٤) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص١٥٧ – ١٥٩

شبهات اثيرت حول عصمة الأنبياء

حاول بعض المغرضين الذين أرادوا تشويه صورة أفضل المخلوقات وهم الأنبياء والرسل - أن يستغلوا بعض آيات القرآن الكريم التى يوهم ظاهرها أن الأنبياء ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم ويشوه صورتهم ، مما يتيح للغير أن يفعل هذه الأشياء بحجة أن الأنبياء قد فعلوها، وليس الامر كذلك . إذ ليست هذه الآيات على ظاهرها ، أو كما يتبادر إلى الذهن ، ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبى فيما يلى.

(١) آدم عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾(١)

فظاهر هذه الآية أن آدم عصى ربه وغوى بمخالفة أمر الله واستجابته لدعوة الشيطان ،وأن ذلك كان زلة وقع فيها.

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾(٢)

ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسيانًا منه لعهد الله ولم يصدر عنه هذا الفعل عن إرادة وقصد ، والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان، لأن ذلك تكليف بما لا يطاق ، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، والأصل فى هذه القاعدة قول الله سبحانه :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾(٣)

---

(١) سورة طه ، آية ١٢١ (٢) سورة البقرة ، آية ٣٦
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[1]

والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسيانًا وعن غير عمد ، قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[2]

أى أن آدم نسى عهد الله الذى وصاه به حين ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة ، ولم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه ، حيث لم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه ، وحيث لم يوجد العزم على المعصية ، فلا توجد المؤاخذة .

وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عصياناً نظرًا لمقام آدم الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته ، وعلمه الأسماء كلها ، والذى شأنه هكذا يجب أن يكون يقظًا كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه ، فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . هذا فضلاً عن أنها كانت صغيرة وقعت منه قبل أن يجتبيه الله للنبوة .

(٢) نوح عليه السلام :

أما نوح عليه السلام فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا فى الطوفان ، مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله . فقال:

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨١ (٢) سورة طه ، آية ١١٥

تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١)

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله ، وابنه من أهله ، فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحى أقوى من صلة الدم ، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم ،فقال له معلمًا إياه : « إنه ليس من أهلك » معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح ، وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة نسبية وبذلك ينتفي نسبه من أبيه ، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة .

وكان على نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للبشر الذى بذل حياته لله ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو إلى الله ويجاهد فى سبيله ، كان عليه أن يفطن لهذا المعنى وأن يدركه، فلما لم يتنبه إليه ، وغلبت عليه عاطفة الأبوة ، اعتبر ذلك نقصًا بالنسبة لمقامه الرفيع ومنزلته الكبرى التى حباه الله بها.. ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التى لم يقصد إليها ، ولم يكن له علم بها فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

ا . هـ (٢)

(٣) إبراهيم عليه السلام :

إذ جاء فى دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾(٣)

(١) سورة هود ، آية ٤٥ - ٤٧
(٢) العقائد الاسلامية ص١٦٠ - ١٦٢ بتصرف
(٣) سورة الشعراء ، آية ٨٢

ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة، والذى نعلمه أن الله قد اتخذه خليلاً وأضفى عليه من صفات الكمال ما هو خليق به ، كما قال :

﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١)

كذلك قال عنه :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢)

وطلبه من الله أن يغفر له خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن، وإنما هى ما يستشعره فى نفسه من قصور فى تفانيه فى الله ، وأداء رسالته ، نظراً لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة .(٣)

وأما ما ورد بشأن كذبات إبراهيم عليه السلام فى قوله :

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾(٤)

وكذلك ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾(٥)

وفى قوله عن زوجه « سارة» قولى أنك أختى .

كما جاء فى حديث البخارى عن أبى هريرة قال : « لم يكذب إبراهيم إلا

(١) سورة البقرة ، آية ١٣٠

(٢) سورة النحل ، آية ١٢٠ - ١٢٢

(٣) العقائد الإسلامية سيد سابق ص (١٦٢ ، ١٦٣) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية ٦٣

(٥) سورة الصافات ، آية ٨٨، ٨٩

ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله ":

قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾

وقال : بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال: من هذه ؟ قال أختى ، فأتى سارة، فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك وإنَّ هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبيني . . الحديث»(١)

ورواه الإمام أحمد ـ مختصرًا ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : « إنى سقيم» وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لسارة : «إنها أختى»(٢)

والحق أن هذا ليس من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله - حاشا وكلا ، ولما - وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزًا ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى ديني ، كما جاء فى الحديث « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » وكما جاء فى الحديث أيضا « كلمات إبراهيم عليه السلام الثلاث التى قال، ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله تعالى . .الحديث » (٣) أى دافع بها عن دين الله، فقول إبراهيم عليه السلام « بل فعله كبيرهم هذا » إنما عرض لهم فى القول حتى يقول « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات فيقيم عليهم الحجة :

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ

(١) رواه البخارى بتمامه ، ومسلم ، وأصحاب السنن
(٢) رواه الإمام أحمد وهو على شرط الصحيح
(٣) رواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(١)

إن إبراهيم عليه السلام لما سأله قومه « أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم» شعر بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه وليصل إلى الحقيقة التى أراد أن يقروا بها فبأسلوب حكيم يجيبهم على سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم، وأن الشاهد على فعله هو بقية الأصنام وتابع قوله « فاسألوهم إن كانوا ينطقون» فقد غضب الصنم الكبير من أن تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة ، وهو أكبر منها فكسرها .

وبلا وعى ولا تفكير ينزلق القوم فى هذا المنزلق الذى دفعهم إليه إبراهيم فيقول بعضهم لبعض أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق ،وأنتم الظالمون باتهام إبراهيم ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك فإذا بهم يطرقون برؤوسهم من الخجل ثم يعودون إلى مجادلة إبراهيم قائلين : إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق فكيف تطلب منا أن نسألها ؟ حينئذ برزت حجة إبراهيم مدوية مجلجلة تقرع آذانهم وتفحم ألسنتهم بهذا الجواب البليغ:

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢)

هذا والكذب هو الإخبار عن شىء على غير ما هو عليه فى الواقع مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع قاصداً بذلك خديعة السامع . ولم يكن كلام إبراهيم بهذا المعنى ، بل فيه من التهكم والسخرية ما فيه .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٦٤ - ٦٧

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٦٦ - ٦٧

كذلك وقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾

عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

وقد يكون على الحقيقة أى أنا سقيم من عبادتكم غير الله ، أو أنه كان به سقم خفيف أو أنه كان سقيم الباطن والضمير ، قلق الخاطر لأفعالهم .

وأما قوله : هى أختى عن زوجه ، فهى أخته فى دين الله . وقد قال لها « إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك » يعني زوجين مؤمنين غيرى وغيرك، وقد أفصحت بعض الروايات بذلك « فقولى إنك أختى فإنك أختى في دين الله ، وقد تكون أخته حقيقة قبل أن يحرم الزواج بالأخوات ، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة .

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب . [1] .

وزعم قوم أن إبراهيم عليه السلام شك فى أن الله قادرعلى أن يحيى الموتى ، كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير صـ ١٣٠ ـ ١٣٤ ، ومع الأنبياء في القرآن الكريم عفيفي عبد الفتاح طبارة صـ ١١٢ - ١١٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠

وليس الأمر كما زعموا وحاشا لخليل الرحمن أن يقع فى الشك .

وإنما كان إبراهيم عليه السلام محبًا للاستطلاع ، شغوفًا بأن يرى الشىء الذى يقع عنده موقع الغرابة ، وقد علم أن الله سيحيى الموتى ويبعثهم ليوم لا ريب فيه، ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فأحب أن يرى ميتًا عاد حيًا ، ليترقى بذلك من علم اليقين إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال « رب أرنى كيف تحيى الموتى » إنه يسأل عن الكيفية ولم يقل : رب هل أنت تحيى الموتى؟![1]

والحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

فليس المراد هاهنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف . ذلك أنه لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ما سألا .

وليس فى قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم ، لكن فيه نفى الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس .

وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالايفيده الاستدلال [2].

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار صـ ١٢٨ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣١٥ بتصرف

وزعم قوم كذلك بأن إبراهيم عليه السلام تظاهر بالشرك مع عبدة الكواكب فى قوله عنها « هذا ربى » فى الآيات الكريمة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(١)

ونسارع فنقول: حاشا لنبى أن يشك فضلاً عن أن يشرك أو يتظاهر بالشرك

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢)

والأمر باختصار : إن إبراهيم عليه السلام اتجه إلى طريقة أخرى من طرق الدعوة فى محاجة قومه وتزييف دينهم ، فأتى بها على سبيل التدرج فى الإلزام، أو المحاورة والمداراة حتى يثبت لهم عدم صلاحية آلهتهم التي يعبدونها ، ثم يصل بهم إلى الحق والحقيقة .

لقد استطاع عليه السلام أن يبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب التي تطلع وتأفل ، وتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شىء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقى بلا زوال . لا إله إلا هو ولا رب سواه(٣) وكيف يكون هذا من فعل إبراهيم، وربنا عز وجل يقول فى أول الأمر

(١) سورة الأنعام آية (٧٥ ـ ٨٣) .
(٢) سورة آل عمران آية ٦٧ .
(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ج ١ صـ ١٢١ بتصرف .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾

وفى نهاية الأمر : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾

وليست حجة إبراهيم وهو الذي قال الله عنه :

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾(١)

كذلك قال

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(٢)

وقال : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(٣)

(٤) يوسف عليه السلام :

فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾

إذ شرَّقَ فيها الناس وغرَّبوا ، وقالوا فيها بالإسرائليات ، والكذب والبهتان . حتى زعموا أن يوسف الصديق عليه السلام جلس منها كما يجلس الرجل من

(١) سورة الأنبياء آية (٥١) .
(٢) سورة النحل آية (١٢٠-١٢٢) .
(٣) سورة الأنعام آية (١٦١) .

أهله بعد أن حل إزاره وأراد أن يواقعهـا لوما أدركه برهان ربه!! أقول : وليس فى الآية مـا يدل أدنى دلالة على أن يوسف عليـه السـلام هم بالفـاحشـة وذلك من وجوه:

١ - أن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى ، وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها ،فاستعصم وأبى ، وقال :

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١)

وإزاء هذا الاستعصـام والتأبى والترفع عن التسفل ، همت امـرأة العزيز بضربه وإلحاق الأذى به ، بعد أن عـجزت عن إغرائه بكل وسيلة ، فهـم هو بأن يعاملها بالمثل دفـاعًا عن نفسه لـولا أن رأى أن ذلك لايليق بأمثـاله من أصحاب الـنفوس الكبيرة ، ولا سيما أن هذا البيت آواه وأكرمه ، فضلاً عن أنها سيدته التى تبنته ، وأنها زوجة رجل عظيم فى أمة عظيمة.

فلولا أن رأى ذلك كله ، وهو صاحب شعـور نبيل وعاطفة جياشـة ، لقابلها بالمثل ، ولآذاها بالضرب المبـرح ،ولكنه كذلك لا يرضى بالاسـتكانة ويقف ذليلاً يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشـهوة الحيوانية - وهو من هو - فآثر أن يفر منها تفاديًا من الحرج الذى تعرض له ، ولكنها أبت إلا أن تتـابعه لتثأر لنفسـها منه

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾(٢)

فكان فى ذلك خلاصه . . فهذا معنى .

٢ - وقيل المراد بهم بها خطرات حديث النفس الذى تركه لله فانقلب فى حقه حسنة ، كـما في الحديـث يقول الله تعالى « إذا هم عـبدى بحسـنة فاكتـبوها له

(١) سورة يوسف ، آية (٢٣)

(٢) سورة يوسف ، آية (٢٥)

حسنة، فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من أجلى ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها »(١) وليس الهم كالعزم وليس العزم كالفعل .

٣ - أن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا : أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، كقولك : قد كنت هلكت لولا أن تداركته . وقوله تعالى :

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾(٢)

وقد اختلف النحويون في تقديم الجواب ، ورأينا أنه إذا دار الأمر بين أن يكون جوابًا محذوفًا وبين أن يكون متقدماً عليها ، فلا شك أن التقديم أولى من الحذف.

فَهَمَّه عليه السلام امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وأخلاقهم الزكية الطاهرة وأن قوله (وهم بها) لا يصلح جوابًا لأن (لولا) لها الصدارة ، ولأن (لولا) حرف امتناع لوجود ، امتنع الهم لوجود البرهان ، كما امتنع إبداء أم موسى ما فى نفسها على ابنها لوجود «ربطنا على قلبها ». والجواب محذوف تقدم دليله على لولا .

٤ - وكيف يقع الهم من يوسف عليه السلام وهو النبى المعصوم ، فيجب أن ننظر عمن نتكلم . وكيفَ يقال: هَمَّ يوسف عليه السلام وقد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٣)

وشهد الشيطان ببراءته بقوله

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٤)

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) سورة القصص ، آية (١٠)
(٣) سورة يوسف آية (٢٤) .
(٤) سورة ص آية (٨٢ ، ٨٣) .

وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز إذ قال :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾(١)

وشهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن بقولهن :

﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾(٢)

وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٣)

وشهد لنفسه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٤)

وقال ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾(٥)

وشهد له الملك بعد معرفة الحقيقة فقال

﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾(٦)

---

(١) سورة يوسف آية (٢٦ ـ ٢٩) .
(٢) سورة يوسف آية (٥١) .
(٣) سورة يوسف آية (٥١) .
(٤) سورة يوسف آية (٢٣) .
(٥) سورة يوسف آية (٢٦) .
(٦) سورة يوسف آية (٥٤) .

فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان وكلاهما شهد ببراءة يوسف ، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أى حال وهو براءة يوسف عليه السلام [١] .

(٥) موسى عليه السلام :

إذ قال الله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢]

والشبهة تمثلت فى أن موسى عليه السلام قتل نفساً بغير حق .

والجواب على ذلك :

١ - أن موسى لم يقتل ، وإنما أراد أن يفض النزاع ، فوكز المعتدى وكزة كانت القاضية عليه، فندم على فعلته وعدها من عمل الشيطان واستغفر ربه عما ارتكب وتضرع إليه أن يتوب عليه وألا يجعله مساعداً للمجرمين ، فغفر له وتاب عليه .

* والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف ، فقد وكزه موسى ولم يرد قتله، هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبيًا ولا رسولاً حين وكز خصمه . فهو من جنس القتل الخطأ .

---

(١) انظر :مع الأنبياء في القرآن الكريم صـ (١٦١، ١٦٢) ،التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د . أحمد السيد الكومي ، محمد أحمد القاسم صـ ١٣٨ - ١٤٠ ، قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار صـ ١٥٨ - ١٦١ ، العقائد الإسلامية صـ ١٦٣- ١٦٤ .

(٢) سورة القصص آية (١٥ ، ١٦) .

٢ - أن الذى قتله موسى لم يكن مؤمنًا بل كان كافرًا مشركًا بالله العظيم ولكفره كان مستحقًا للقتل .

(٦) داود عليه السلام :

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا
الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي
الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ
رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَآبٍ ﴾[١]

وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب ما ينافى العصمة وكل ما يمكن أن يقال فى هذا : إنه قضى بين الخصمين بعد أن سمع من أحدهما وقبل أن يسمع من الآخر، والتعجيل بالحكم قبل الاستماع إلى الطرفين يعتبر فى نظر القضاء مخالفة ،ولا سيما إذا كان القاضى نبيًا كداود عليه

---

(١) سورة ص آية (٢١ ـ ٢٥) .

السلام ، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب .

ويمكن أن يقال أيضًا إنه خاف من تسور الخصمين المحراب ودخولهما عليه بغتة وهو بين يدى الله ، خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بنى اسرائيل من قتلهم الأنبياء ، فكان هذا الخوف وهو فى المحراب ومائل بين يدى الله ، مما لا يليق بمكانته وعظيم قدرته وحسن صلته بالله ، مالك ناصية كل شىء .

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة فى الحكم أو من الخوف من القتل ، فقد ظن أنه مختبر بما وقع له ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً منيبًا إلى الله راجعًا إليه .

ولا يمكن أن تتضمن القصة التى ذكرت فى القرآن معنى آخر وراء ذلك مما ينتقص من قدر نبي عظيم .

وما ذكر من أن المقصود بالنعجة هى المرأة، وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه ، فهو من الإسرائيليات المكذوبة ، ومن الدخيل الذى يتنافى مع عظمة الرسالة ، وكمال النبوة وشرف الدعوة التى انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عباده [1].

(٧) سليمان عليه السلام :

يقول الله سبحانه وتعالى عن سليمان عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[2]

(١) العقائد الإسلامية صـ (١٦٥، ١٦٦) ، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم صـ (١٤١، ١٤٣، ١٤٦) .
(٢) سورة ص آية (٣٤، ٣٥) .

والشبهة مأخوذة من الإسرائيليات التى تزعم أن سليمان عليه السلام نزع خاتمه الذى أخذه الشيطان وتمثل به وأخذ يحكم الناس على أنه سليمان ، حتى مكنه الله عز وجل منه ، فتاب وأناب .

والحق يقال : إن هـذا كله أكاذيب وتلفيـقات وإسـرائيليات ، إذ كـيف يجوز للشيطان أن يتـمثل برسول الله «سليمـان عليه السلام» ، فأى ثقة بالـشرائع تبقى بعد هذا ، وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبـيه سليمان، وهو أكرم على الله من ذلك ؟

وأى ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم يدومان بدوامه ، ويزولان بزواله ؟

وما عهدنا فى التاريخ البشرى شيئًا من ذلك .

وإذا كان خـاتم سليمان علـيه السلام بهـذه المثابة ، فكيف يغفـل الله شأنه فى كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة ؟ وهل غَيَّرَ الله سبحانه خلقة سليمان فى لحظة حتى أنكرته أعرف الناس به وهي زوجته ؟

الحق أن نسج القصـة مهلهل لا يصمـد أمام النقد وأن آثار الكذب والاخـتلاق بادية عليـها. وأما التفسـير الصحـيح لمعنى الفتنة فى الآية الكريمة ، كمـا جاء في الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبـى ﷺ : قال :«قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سـبعين امرأة ، تحمل كل امـرأة فارسًا يجاهد فى سـبيل الله فقال له صاحبه - يعني قرينه من الملائكة - قل : إن شاء الله ، فلم يقل ولم تحمل واحدة منهن شيئًا ، إلا واحدة جاءت بولد سـاقط إحدى شقيه ، فقال النبى ﷺ : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله أجمعين».

فهذا هو المتعين فى تفسـير الآية ، وخير ما يفسـر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات : أن الترك كان نسـيانًا ،والمراد بصاحبه :

الملك كما جاء في بعضها [١].

(٨) محمد ﷺ :

وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[٢]

وكذلك : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[٣]

وظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ﷺ ذنباً ، وأن عليه أن يستغفر الله .

وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر .

والمعروف من سيرة رسول الله ﷺ أنه معصوم قبل البعثة وبعدها ، فقد عصمه الله من عبث الطفولة ولهو الشباب ، فلم يله كما كان يلهو غيره ، لأنه أعد لحمل رسالة الهدى والنور ، وقد أشار إلى هذا فيما حدث به عن نفسه ، فقال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معي بأعلى مكة ، لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ، سمعت عزفًا ، فقلت :ما هذا ؟ فقالوا عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي ، فسألني

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د . محمد أبو شهبة (صـ ٣٧٧ـ ٣٨٥) بتصرف .

(٢) سورة محمد آية (١٩) .

(٣) سورة الفتح آية (١ ـ ٣) .

فأخبرته ،ثم قلتُ له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بسوء » (١) .

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه ، مدة حياته لا يخطر السوء على قلبه، وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذى أمر أن يستغفر منه ، والذى قد غفر له ما تقدم منه وما تأخر ؟ مما لا جدال فيه أن الرسول ﷺ كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يوح إليه شىء بخصوصها ، بل كان أمرها متروكًا إلى اجتهاده الخاص ،فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن متجاوزًا ما هو أحسن منه ، فاعتبر وقوفه عند الرأى الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبًا بالنسبة إليه وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه .

وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك :

(أ) فمنها اجتهاده فى أسرى بدر ، وقبوله الفداء ، وقد عتب الله عليه عتبًا أبكاه :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢)

أى لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذة المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء وعدم الإثخان فى الأرض .

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ﷺ وبكى معه أبو بكر بكاءً شديدًا ،

---

(١) رواه الطبراني ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة .

(٢) سورة الأنفال آية (٦٧، ٦٨) .

وقال: « لو نزل عـذاب من السماء ما نجا غـير عمر » فـفى هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجـتهاد فى قـضية لم يوح إليـه فيها بشىء ولـم يخطىء فى حكمه فيـها، لأن الرسـول ﷺ لايقر على خطـأ وإنما عدل عمـا هو أحسن إلـى ما هو حسن. (١) .

(ب) ومنها : أنه قبل أعذار المتـخلفين عن الغزو دون تمحيص هذه الأعذار ، ليتبين له من هو صادق ممن هو كاذب

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾(٢)

فهذه ليست ذنبًا فى ذاتها ، ولكنه اجتهاد من النبى ﷺ ولا تعدو إلا تكون من باب خلاف الأولى فى أمر لا نص فيه ، وقد كان من باب التدبير فى الحرب .

وأما قوله : « عفـا الله عنك » فليس عن ذنب صدر منه، وإنما هو التلطف من الله فى الخطاب مع حبـيبه ﷺ وهذا كما لو قلت : أنت يرحـمك الله ، واسمع كلامى غفر الله لك ، وإن لم يكن هناك ذنب البتة . (٣) .

(حـ) ومن ذلك : عتاب الله له فى إخفائـه أمر زواجه بزينب بنت جحش بعد طلاق « متبناه » زيد بن حارثه لها - وكـان الله قد أمره بذلك - ليبطل تقليدًا من تقاليد الجـاهلية ، إذ كانت هذه التقـاليد تقضى بتحـريم زواج زوجة الابن المتبنى مثل تحـريم الزواج بزوجة الابن من النسب ، فكان الرسول ﷺ يجد حـرجًا مثل أى إنسان عندما يتحرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات .

---

(١) العقائد الإسلامية صـ (١٦٧ ـ ١٦٩) .
(٢) سورة التوبة آية (٤٣) .
(٣) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم صـ (١٦٠-١٦١) .

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[1]

وقد نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب ـ عمة رسول الله ﷺ ـ وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها «زيد بن حارثة» مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه ، ثم أعلم الله ـ عز وجل ـ نبيه بعد ، أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس ، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقي الله ، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيداً ، وهذا هو السبب الصحيح .[2]

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق ، كما زعمته الإسرائيليات بأن النبي ﷺ رأى زينب وهي نائمة ، شبه عارية ، فوقع حبها في قلبه ،وتمناها ، ولكنه أخفى

---

(١) سورة الأحزاب آية (٣٧ ، ٣٨) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين وكذا ابن حجر في فتح الباري .

ذلك عَن الناس ، ويأتيه زيد ، يشكو أمر زوجته ، فيقول له : أمسك عليك زوجك واتق الله ،في الوقت الذى كان يخفى حبها ، مع أن الله سيظهره ، وأن لو فارقها زيد تزوجها .

فكل هذا من الكذب الصراح والباطل الواضح ، إذ كيف يليق هذا بنبى ؟ وهو الذي كان يرى «زينب» وهي شابة ، وربيت على عينيه ، وهو الذي زوجها لمولاه «زيد» وكرر الطلب حتى استجيب له ، فكيف يقال : فلما شاهدها وقع حبها في قلبه ؟!! ولو كان ﷺ صاحب رغبة لأشبعها في ميعة الصبا ، وشرخ الشباب أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له ..[1]

(د) ومما يدخل فى هذا النطاق : قول الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[2]

فهذا عتبٌ من الله لرسوله حين طمع فى إسلام بعض صناديد قريش ، فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله ، وهم ينصتون له ، ويقبلون عليه .

وفى هذه الأثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم ، وأخذ يقاطع الرسول ﷺ، ويقول له : علمنى مما علمك الله ، ويكرر ذلك ،فكان الرسول ﷺ يضيق بهذه

(١) انظر بتوسع الإسرائيليات في التفسير صـ (٤٥٥ ـ ٤٦٣) .
(٢) سورة عبس الآيات (١ ـ ١٠) .

المقاطعة، ويعبس من الضيق مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس ، ومع ذلك عاتبه الله فيه ، فكان كلما لقيه بعد يقول له : أهلاً بمن عاتبني فيه ربي [١].

(هـ) ومن هذا ما روى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قرأ قول الله سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[٢]

تلك الغرانيق [٣] العلا وإن شفاعتهن لترتجى .

فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش ، وليس فيه صلة بين هذه الأكذوبة وبين قول الله سبحانه

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٤]

فإن الآية تقرر أنه ما من نبي ولا رسول تمنى هداية قومه ، واستجابتهم لدعوته إلا جاء الشيطان واضعًا أمامه العقبات وميئسًا له من الوصول إلى الهدف الذى يستهدفه إلا أن الله سبحانه يعجل بإزالة ما يلقى الشيطان من وسوسة تيئسه ويحيى فى نفسه الأمل والرجاء .

وفي ذلك تمحيص لأهل الحق ، وفتنة لضعاف الإيمان ، فالذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

---

(١) العقائد الإسلامية (١٦٩-١٧٠) بتصرف .

(٢) سورة النجم آية (١٩ - ٢٠) .

(٣) الغرانيق : جمع غرنوق: وهو اسم لطائر مائي أسود أو أبيض ، ومن معانيه : الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على غير ذلك . « راجع قاموس معجم ياقوت » .

(٤) سورة الحج آية (٥٢ - ٥٤) .

كما يقال : كيف يجوز أن يلقى الشيطان هذه الكلمات التى فيها مدح للأوثان، وقد جاءت السورة بذمها وأنكرت على عابديها ، وجعلتها أسماء لامسمى لها، وما التمسك بها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بين ماقبلها وما بعدها ولكان النظم مفككًا ، والكلام متخاذلاً ، وكيف يقع مدح بين ذمين؟ بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول؟ ، وكيف يكون للشيطان على الرسول سبيل أو سلطان ؟ وهو مخالف لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[1]

وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء ، وقال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2]

فكيف بالنبي ﷺ ؟ فأي بشر أصدق إيمانًا وأقوى توكلاً من رسول الله؟! وقد صدق الشيطان ذلك كما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3]

بفتح اللام وكسرها ، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء أو من أشد إخلاصًا منهم؟ وكيف ، وقد كان للرسول ﷺ شيطان فأسلم ، فصار لا يأمره إلا بخير؟!! [4] وكيف يصح أن يزيد الرسول ﷺ فى القرآن عمدًا ما ليس منه ، وكذا سهوًا إن كان مغايرًا ؟ وكيف يتفق هذا مع التوحيد الذى جاء به ؟ ومع العصمة التي عصمه الله بها ؟ . وهل امتدح رسول الله ﷺ الأصنام في الجاهلية حتى يمتدحها في الإسلام ؟ أو ذكرها بخير أبدًا ؟ وكيف وهو الكفر البواح ؟!!

---

(١) سورة الإسراء ، آية (٦٥) .
(٢) سورة النحل ، آية (٩٩) .
(٢) سورة ص ، آية (٨٢،٨٣) .
(٣) رواه مسلم .

ولو صح ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الدين!! وكيف يستدل بأحاديث لم يصل واحد منها إلى درجة الصحة في مثل هذا الأمر الذى هو جد خطير ؟ وكيف لا ،ولم يتفق حديث مع الآخر فى عرض القصة ، وقد جاءت مهلهلة متداعية ، لا يثبت منها شيء أمام البحث والتحقيق هذا ولم يثبت عن العرب أنهم وصفوا آلهتهم بالغرانيق لا فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : أن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم . بل وما ذكر في اللغة من معانيها « الغرانيق » لا يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق العربي يأبى ذلك .

فالقصة لم تصح عقلاً ولا نقلاً ، ولا من وجه من الوجوه [1] .

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه ، وهو لم يخرج عن كونه هنات هينات، لا تصل لدرجة المعصية ولا تتنافى مع العصمة ولا تنقص من أقدارهم السامية ،أو تنال من مكانتهم العالية ومنزلتهم الرفيعة .

ولذلك وجب الإيمان بعصمة الأنبياء والرسل ، مخالفين بذلك اليهود والنصارى الذين أبوا إلا أن يجرحوا كثيرًا من الأنبياء والرسل، وينسبوا إليهم ما نزههم الله عنه وصانهم منه ، كما ورد فى كتبهم المحرفة ، وهى تنسب الشرك والكبائر لهؤلاء الأنبياء والرسل ،فاعجب !!

والخلاصة :وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام .

فالإيمان بالرسل ضرورى لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى، لأن الله تعالى هو الذى نبأهم وأرسلهم وأخبر عنهم وأمر بالإيمان بهم وتصديقهم ،والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به ، من

(١) راجع بتوسع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (صـ ٤٤٢ ـ ٤٥٤) .

الملائكة والكتب والرسل والبعث والجزاء ،والقضاء والقدر ، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به ، فيكفى المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله ، وأمره بالإيمان بالرسل، كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[1]

ومن ثم فنحن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل إجمالاً وتفصيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[2]

فوجب الإيمان بجميعهم تفصيلاً فيما فصل ، وإجمالاً فيما أجمل[3] كما وجب الإيمان بأفضليتهم على سائر الخلق والاعتقاد بعصمتهم ، على نحو ما ذكر.

هذا ونظرًا لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل سوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم وكمالهم ووجوب تعظيمهم واحترامهم .

ولهذا نكتفى بما سبق من البحث فى اعتقاد المؤمن بالرسل عليهم السلام لنخص بالبحث « النبى الخاتم » صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع ، والعامة لكل الناس ، والذى يجب محبته على سائر الخلق، واتباعه دون سائر الأنبياء، واتباع شريعته دون سائر الشرائع ، مع الإيمان به ، ونصرته ونصرة شريعته ، كما أخذ الله العهد والميثاق على الأنبياء والرسل بذلك

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4]

ذلكم هو النبى الأمي، محمد رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة النساء آية (١٣٦) .
(٢) سورة النساء آية (١٦٤) .
(٣) عقيدة المؤمن (ص ٢٧٠ _ ٢٧٢) بتصرف .
(٤) سورة آل عمران آية (٨١) .

النبي محمد ﷺ

ويجب علينا أن نؤمن بأن محمدًا بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسوله ، وعبده وصفيه ، اصطفاه الله تعالى من خير القبائل وأفضل البيوت ، وجعله أعظم ولد آدم وسيد الخلق أجمعين .

كما قال ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بني هاشم » (١) .

كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » (٢) وكذلك قال : « أنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر » (٣) .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل بوضوح على أن محمدًا بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم ، وأنه ﷺ نشأ نشأة الطهر والعفاف ، ولم يشرك بالله طرفة عين قط ، ولم يعبد صنمًا مع أنه نشأ في بيئة كلها تعبد الأصنام ، ولم يشرب خمرًا كما كانوا يشربون ، ولم يلعب ميسرًا كما كانوا يلعبون، ولم يئد بنتًا كم كانوا يئدون . ولم يأكل حرامًا كما كانوا يأكلون ، بل لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط ، فصلوات ربى وسلامه عليه .

فكانت دنياه كلها معبدًا يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده ، ونعلم أنه جد في الحياة راعي غنم ،ثم تاجرًا ، فكان في حياته المثل الأعلى في الجد القوي الصالح ، والأمانة التي تعتصم بالتقوى ، والحكمة الحكيمة في كل ما يصرف به شئون دنياه ، والرعاية التي تقدس الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة ، وأنه كان في أطوار حياته الكامل في الأدب والخلق ،وحكمة العقل ،

(١) رواه مسلم والترمذي
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه البخارى ومسلم

وسمو العاطفة ، ونباغة الفكر وقوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، وجلال الشرف ، وعزة الكرامة ، ونبل المروءة ، وكرم الإيثار والنجدة ، وسماحة النفس . .

ثم اصطفاه ربه خاتمًا للنبيين ، فجاهد في الله حق جهاده ،وبلغ ما أنزل إليه من ربه وشهد الله له بذلك فوجب أن نؤمن بأنه خاتم الأنبياء ، لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ .

فأما القرآن ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١)

وأما السنة فقد قال ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (٢) .

وقال أيضًا : « أنا محمد ،وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذي يمحى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » (٣)

ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا نبوة بعده ﷺ وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لانبي بعدي » (٤) كما نعتقد أنه ﷺ قد اكتملت فيه صفات الأنبياء واتضحت فيه مؤهلات النبوة ، فضلاً عن ذكره في الكتب السابقة، وشهادات كثير من علماء اليهود والنصارى بنبوته » (٥)

كذلك يجب أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين : الذي يقتدى به

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٠
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) أخرجه مسلم
(٥) راجع بتوسع « فصل « وأشهد أن محمدًا رسول الله » جـ١ من حقيقة الإيمان .

في الخير كله ، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١)

كما قال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٢)

كما نؤمن أنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن ، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل وهي الخلة فقد قال رسول الله ﷺ « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنه أخي وصاحبي ، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً»(٣)

كما يجب أن نعتقد أنه مبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى ، فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٤)

كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٥)

كما قال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٦)

وقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٧)

(١) سورة آل عمران : آية ٣١
(٢) سورة النساء : آية ٦٥
(٣) رواه مسلم
(٤) سورة الأحقاف : آية ٣١
(٥) سورة سبأ : آية ٢٨
(٦) سورة الأعراف : آية ١٥٧
(٧) سورة الفرقان : آية ١

وقال ﷺ : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » [1] ويجب علينا أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » [2]

وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي ، فقال النبي ﷺ : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : لأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي ، فقال النبي ﷺ: الآن ياعمر » [3] كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله عز وجل قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ في كل ما جاء به ، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة ، تحدى به العالمين ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بمثل بعض منه، ولو بسورة واحدة ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [4]

ونؤمن بأن الله عز وجل أيده بالمعجزات الحسية ، المذكورة في الأحاديث الصحيحة ، مثل : انشقاق القمر وتسليم الحجر عليه ، وحنين الجذع إليه ،

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه البخارى
(٤) سورة البقرة : آية ٢٣ ، ٢٤

وتسبيح الطعام بين يديه ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وشهادة الشاة المشوية أمامه ، وإظلال السحاب له قبل مبعثه ، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه ، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها ، ورميه التراب في وجوه المشركين يوم بدر ، وإصابتهم به ، وإخباره بالمغيبات التى وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، واستجابة الله سبحانه لدعائه ، وعصمته من القتل ، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب، وصنفت فيه المصنفات الواسعة [١]

وقد ورد في معجزاته الحسية أخبار كثيرة ، بعضها متواتر ، وكثير منها مشهور وهى في مجموعها تفيد العلم اليقيني بوقوع تلك المعجزات أولاً ، وصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

كما نؤمن أن الله سبحانه قد أيده بالحجج البالغة ، والأدلة الظاهرة ، الماثلة في ذاته وصفاته وأخلاقه ، فنؤمن أن الله عز وجل حباه خلقة وصورة ، يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته ، وصدقه عليه الصلاة والسلام ، وما أحسن قول « حسان بن ثابت » رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى حباه أخلاق القرآن كلها ، مما يدل على صدقه وتأييد الله له ، فما سمع أحد منه كذبًا لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا ، لا قبل البعثة ولابعدها ، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره واظهاره ، وما فعل فعلاً قبيحًا أو منفراً ، لا قبل النبوة ولا بعدها ، وما فر عن أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب

(١)راجع بتوسع : كتب السيرة والحديث ، وباب علامات النبوة بالبخارى وباب معجزات الرسول ﷺ وكتاب « دلائل النبوة » للإمام أبي نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء ، وكتاب أعلام النبوة: لأبى الحسن الماوردى ، وكتاب « دلائل النبوة » للبيهقي ، وكتاب « الوفا بأحوال المصطفى » لابن الجوزي .

وكان عظيم الرحمة والشفقة بأمته حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[1]

وقال أيضًا :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]

وكان في أعظم درجات الكرم والسخاء ، وكان زاهدًا في الدنيا ، قانعًا باليسير منها ، لا يدخر شيئًا ، وكان في غاية الفصاحة ، وأعطى جوامع الكلم ، وكان حليمًا صفوحًا ، لايغضب إلا لله تعالى ،متواضعًا للمؤمنين، عابدًا لله ، مجاهدًا في سبيله متوكلاً عليه ، وقد ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره إلى آخره ، ما غيّر ولا بدل وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[3]

والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طوال عمره .

وقد كان في هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة ، في كل واحدة منها في الغاية القصوى من الكمال ، ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق ، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى ، فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته .

ولهذا فإنا نجد كثيرًا من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام ، لما يعرفونه من أخلاقه ، وصدقه ، وسيرته العطرة ، فهذه خديجة رضي الله عنها ،

(١) سورة فاطر : الآية ٨
(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٨
(٣) سورة ص : الآية ٨٦

لما كانت تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الأمين ، فعندما أخبرها بما لقيه من الوحي، وقال لها : « إني قد خشيت على نفسي » قالت : « كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق »[١] وكذلك هرقل ملك الروم ، فإن النبي ﷺ، لما كتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلب من كان في بلاده من العرب، وكان أبو سفيان في طائفة من قريش في تجارة إلى بلاد الشام ، فاستدعاهم هرقل إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ودعا بترجمانه ، وشرع يسألهم عن أحوال النبى ﷺ ، فيصل بعدما سمع منهم إلى نتيجة قاطعة وهى : أن ما سمع من أحوال محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به ، وأنه نبى مرسل[٢]

ومن المفيد في هذا المقام أن نثبت هذا الحوار الذي دار بين هرقل ، وأبي سفيان، كما نقله البخارى في صحيحه ، لما فيه من العظة والعبرة ، والحجج البالغة والبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة على صدق النبي محمد ﷺ وأخلاقه العظيمة ، ومعجزاته الباهرة ، فعن عبد الله بن عباس أخبر أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام ، في المدة - يعني صلح الحديبية - التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ،فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه ،

فقال : أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسبًا .

فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال

---

(١) رواه البخارى

(٢) الإيمان : أركانه حقيقته ، د/ محمد نعيم ياسين ص ٤٤ - ٥١ بتصرف

لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه - فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبًا لكذبت عنه - ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا

فقال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال أبو سفيان : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة .

قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئًا ، واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يتأسى بقول من قبله ، وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا : قلت : لو كان من آبائه ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا،وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ،ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه » (١)

ومع ماورد في فضل النبي ﷺ ، وعلو درجته ، وعظيم منزلته على كل البشر بل وهداة البشر وهم الأنبياء، وكذا سائر المخلوقات ، فإنه مع ذلك كله هو عبد من عباد الله ، و بشر من خلق الله ، ليس إلهًا ولا ابن إله، ولا شريكًا مع الله

(١) صحيح البخاري .

«كما زعمت النصارى في نبيهم»

ولم يتخل عن بشريته وعبوديته لله عز وجل ، لأن ذلك هو الشرف ذاته ، والفضل نفسه ، ولأن نفي البشرية عن النبي ﷺ - ولو بزعم النورانية - ضلال مبين ، وبعد عن الدين ، ونورانيته المعنوية لا تنكر ، فهو السراج المنير ﷺ ، ولكن لا يجوز الغلو في مدحه ﷺ وهو القائل : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » [١]

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله وحديث الرسول ﷺ لتؤمن بأن محمدًا ﷺ لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده ، والعبودية الكاملة لله عز وجل وأنه كان بشرًا يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[٢] ا.هـ

ومن ثمرات الإيمان بالرسل (صلى الله عليهم وسلم أجمعين) :

أولاً : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ويبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك .

ثانياً : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .

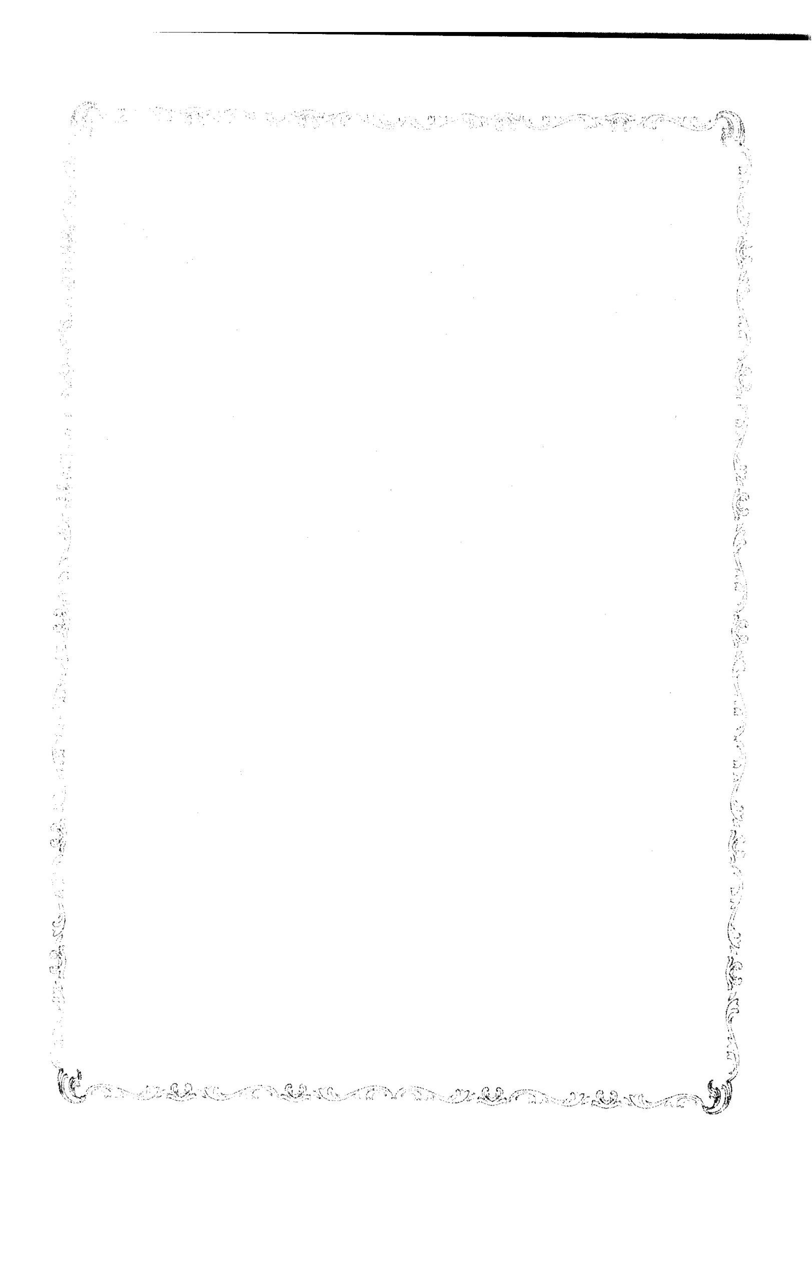
ثالثاً : محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالى ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده [١]

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) سورة الإسراء : آية ٩٣

(٣) الثمرات الزكية في العقائد السلفية (صـ ١٩١) ، ورسائل في العقيدة لابن عثيمين (صـ ٢٧) .



الباب الرابع

الإيمان باليوم الآخر

* معنى الإيمان باليوم الآخر
* أسماء اليوم الآخر
* الأدلة على البعث بعد الموت
* الحكمة من اليوم الآخر
* علامات الساعة « الصغرى والكبرى »
* زلزلة الساعة
* يوم البعث
* الوقوف على أرض المحشر
* العرض على الله
* حساب الخلائق
* أخذ الصحف – ميزان الأعمال – المرور على الصراط
* نهاية المطاف المستقر الأخير
* نعيم أهل الجنة – عذاب أهل النار

الركن الخامس

" الإيمان باليوم الآخر "

* تعريف : ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد باليوم الآخر أمران :

الأول : فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها

والثانى : إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها .

فدل لفظ « اليوم الآخر» على آخر يوم من أيام هذه الحياة ، أو على اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثانى له فيها البتة .

والإيمان باليوم الآخر مقتضٍ للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وعلامات ، وما يتم فيه من أهوال ، مع اختلاف الأحوال، لأهل الجنة وأهل النار ، كما هو مقتضٍ كذلك لتصديق الله تعالى فى أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجرى فيها من أمور عظام كبعث الخلائق ، وحشرهم ، وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا .

* أسماء اليوم الآخر فى القرآن الكريم :

١ - « اليوم الآخر » : وإن كان أشهر الأسماء لهذا اليوم المقابل للدنيا ،

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾[1]

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

فإن له أسماء أخرى كثيرة كلها ذكرت فى القرآن الكريم ، ومنها :

٢ - الآخـــرة : وهى مرادفة لليوم الآخر ، كما أنها مقابلة للدار الدنيا ،

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(١)

٣ - يـوم القيامـة : لأنه اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(٢)

٤ - يـوم الديـن : لأنه اليوم الذى يدان فيه الناس ، أى يحاسبون

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾(٣)

٥ - يـوم البعـث : إذ يبعث الناس من قبورهم ، ويخرجون من الأجداث سراعًا :

﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾(٤)

كما قال سبحانه أيضًا

﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٥)

٦ - يـوم الحشر : إذ يحشر الناس جميعاً ولا يتخلف منهم أحد .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾(٦)

وكذلك ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾(٧)

---

(١) سورة البقرة ، آية ٤
(٢) سورة القيامة ، آية ١
(٣) سورة الانفطار ، آية ١٧
(٤) سورة التغابن ، آية ٧
(٥) سورة الروم ، آية ٥٦
(٦) سورة فصلت ، آية ١٩
(٧) سورة ق ، آية ٤٤

٧ - يــوم النشــــور : إذ هناك ينشركل شيء، وتبلى السرائر ،

﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾(١)

٨ - يــوم الجــمع : لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون فى صعيد واحد

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾(٢)

٩ - يــوم التغــابن : لأن أهل الجنة يغـبنون أهـل النار ، ولا غبن أعظم من دخول النار ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾(٣)

١٠ - اليوم المشــهود : أى العظيم الذى تحـضره الملائكة ، ويجـتمع فـيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾(٤)

١١ - اليـوم العظـيم : لأنه عظيم الأهوال ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارًا حامية

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٥)

١٢ - اليــوم المعلــوم : الموقوت بوقت محدد عند الله ، هو سبحانه يعلمه، ولا يعلمه غيره ، ولا يتقدم ولا يتأخر ،

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾(٦)

(١) سورة الملك ، آية ١٥
(٢) سورة التغابن ، آية ٩
(٣)سورة التغابن ، آية ٩
(٤) سورة هود ، آية ١٠٣
(٥) سورة المطففين ، آية ٤ - ٦
(٦) سورة الواقعة ، آية ٤٩ ، ٥٠

١٣ - اليوم الحق : أي الكائن لا محالة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾(١)

وكل شيء فيه حق ، وبالحق

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ﴾(٢)

١٤ - يوم الواقعة : لتحقق هذا اليوم ووجوده ، لا يصرفه صارف، ولا يدفعه دافع :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾(٣)

١٥ - يوم الحاقة : لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾(٤)

١٦ - يوم القارعة : لأنها تقرع آذان الناس قرعاً شديداً

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾(٥)

١٧ - يوم الطامة : لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، فهي داهية كما قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾(٦)

وهي طامة كبرى كما أخبر

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾(٧)

١٨ - يوم الصاخة : لأنها تصخ أسماع الناس ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها

---

(١) سورة النبأ ، آية ٣٩

(٢) سورة غافر ، آية ٢٠

(٣) سورة الواقعة آية ١ - ٣

(٤) سورة الحاقة : آية ١ - ٣

(٥) سورة القارعة ، آية ١ - ٣

(٦) سورة القمر آية ٤٦

(٧) سورة النازعات ، آية ٣٤

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾(١)

١٩ - يــوم الغاشيــة : لأنها تغشى الناس وتعمهم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾(٢)

٢٠ - يــوم الزلزلــة : أى تحركت من أسفلها ، ورجت رجا شديداً

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾(٣)

٢١ - يــوم الفصل : الذي يفصل الله عز وجل فيه بين الخلائق بالحق

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٤)

٢٢ - يوم الحساب : الذى يحاسب الناس فيه على أعمالهم

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾(٥)

٢٣ - يــوم الجــزاء : الذى يجازى الناس فيه على أعـمالهم ، إن خيراً أو شراً ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٦)

---

(١) سورة عبس ، آية ٣٣
(٢) سورة الغاشية ، آية ١
(٣) سورة الزلزلة آية ١ - ٣
(٤) سورة المرسلات ، آية ١٢ - ١٥
(٥) سورة غافر ، آية ٢٧
(٦) سورة آل عمران ، آية ١٨٥

فيجزى المحسن على إحسانه والمسئ على إساءته

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1]

٢٤ - **يـوم الحسـرة** : أى على الكافرين من أهل الجحيم ، ومن فرط فى طاعة رب العالمين

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[2]

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[3]

٢٥ - **يـوم المغفـرة** : أى للمؤمنين من أهل النعـيم ، ومن عمل للقاء رب العالمين :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4]

٢٦ - **يـوم الـخروج** : أى خروج الناس من قبورهم

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾[5]

٢٧ - **يـوم العرض** : إذ يعرض جميع الناس على الله العزيز الغفور ،

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[6]

---

(١) سورة غافر آية ١٧
(٢) سورة مريم ، آية ٣٩
(٣) سورة الزمر ، آية ٥٦
(٤) سورة الزمر ، آية ٥٣
(٥) سورة ق ، آية ٤٢
(٦) سورة الحاقة ، آية ١٨

٢٨ - يــوم الآزفة : أى التى اقتربت ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ (١)

وكذلك ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾(٢)

٢٩ - يــوم التنــاد : إذا ينادى الناس بعضهم على بعض

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾(٣)

٣٠ - يــوم التــلاق : أى يلتـقى فيه جـميع الناس من لـدن آدم إلى آخر ولده ، كمـا يلتقون بالخـالق جل وعلا ، ويلقى كل إنسان فيه ما عمل ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾(٤)

٣١ - يــوم الســاعة : أى الساعـة التى يعلمها الله ، ولا علم لأحـد بها ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾(٥)

٣٢ - يــوم المعــاد : أى الموعد الذى حدده الله ، فلا يخلفه

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾(٦)

---

(١) سورة غافر آية ١٨
(٢) سورة النجم ، آية ٥٧
(٣) سورة غافر ، آية ٣٢
(٤) سورة غافر ، آية ١٥
(٥) سورة الأحزاب ، آية ٦٣
(٦) سورة آل عمران ، آية ٩

٣٣ - يــوم العــدل : الذى لا ظلم فيـه لأحـد ، ويرجع الحق فيـه لكل مظلوم ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾(١)

٣٤ - يــوم الرحمة : الذى ادخـر الله عز وجـل له من رحمتـه تسعـة وتسعين جزءًا

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٢)

٣٥ - يــوم العذاب : الذى أعد الله فـيه من العذاب للـكافرين والظالمين والمجرمين مالا يعلمـه أحد سواه

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾(٣)

٣٦ - يوم الشفــاعة : إذ الله يملكها وحده

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾(٤)

ثم يأذن الله عز وجل بالشفاعة للشفعاء

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾(٥)

٣٧ - يــوم الوعــيد : كما أنه يوم يتحقق فيـه وعد الله للمؤمنين ، يتحقق وعيده على الكافرين

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾(٦)

٣٨ - يــوم الفــرار : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(٧)

(١) سورة غافر ، آية ١٧ .
(٢) سورة الحجر ، آية ٤٩ .
(٣) سورة الحجر ، آية ٥٠ .
(٤) سورة الزمر ، آية ٤٤ .
(٥) سورة البقرة ، آية ٢٥٥.
(٦) سورة ق ، آية ٢٠ .
(٧) سورة عبس ، آية ٣٤ - ٣٧ .

٣٩- **وهو أمـــر اللـه** : أى الحق الواقع لا محــالة

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(١)

٤٠ - **وهو دار القرار** : أى المستقـر الأخير ، والقرار فيـه إما جنة وإما نار

﴿ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾(٢)

٤١ - **يـوم الفتح** :

﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾(٣)

٤٢ - **يـوم الخـلود** :

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(٤)

---

(١) سورة النحل ، آية ١

(٢) سورة غافر ، آية ٣٩

(٣) سورة السجدة ، آية ٢٩

(٤) سورة ق ، آية ٣٤ ، ٣٥

إمكان الفناء : هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزليًا أبدًا ، وما لم يكن أزليًا فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التى لا تنفك عنه بحال، وطروء الفناء على الحادثات مشاهد فى هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل.

إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معًا حدوث العالم ، إن التغير الجارى والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة - وهى نظرية علمية فى غاية الصحة - قد أثبتت حدوث العالم ، وبالتالى قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضًا ، إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيمياوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائيًا ، وبهذا بطلت أزلية العالم أي قدمه اللاابتدائى ، إذ لو كان أزليًا لفقد طاقته منذ زمان بعيد ، وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضًا إمكان فنائه اللازم له ، والذي هو فى طريقه إليه ، لأن عملية إنتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ، ولابد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام ، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

ودليل آخر : أن العالم كل له أجزاء ، ونحن نشاهد الفناء يجرى فى أجزائه باستمرار، فالإنسان كالحيوان كالنبات كلها تفنى أمامنا ، وتحت سمعنا وبصرنا، و نفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع ، وهى قطعًا أجزاء من هذا العالم ، كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدنًا وقرىً كبيرةً ، ويغير معالم

الأرض فى كثير من البلاد فى العالم ، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء فى أجزائه أمكن فناءه كله .

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع ، وهو مرتقب جداً ، وننتظر أنباءه، وهو اليوم الذي لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة ، وذلك لخراب العالم وفنائه .

إمكان المعاد : هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكنًا وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبدًا ، وكل مالا يوجب تصور وقوعه تناقضًا عقليًا فهو من قبيل الجائز الإمكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضًا عقليًا ؟ وإذا كان الجواب : لا ، أبدًا . فالمعاد إذًا - وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى - ممكن وجائز .

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضًا عقليًا لتصور وقوع الشيء موجودًا وغير موجود . والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضًا عقليا كتصور وجود مصنوع بدون صانع، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علته ، فهو أى المعاد إذًا ممكن جائز، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى ، إمكان البعث وجواز وقوعه وإليك الدليل .

لقد استدل القرآن الكريم على إمكانية البعث بعدة طرق ، ومن عدة جهات ، منها : أن هذا البعث وقع فى الدنيا حقيقة ، وهذا يشبه وقوعه فى الآخرة ، كما أقام الأدلة على إمكان البعث ووقوعه مما يوجب إثباته مع وجوب الإيمان به ،

وكذا بالرد على منكرى البعث وتفنيد شبههم الباطلة .

وإليك تفصيل هذه الجهات :

أولاً : وقوع بعث فى الدنيا من بعد موت ، وإحياء من بعد إماتة ، وقد تكرر ذلك فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع :

١- الموضع الأول : فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]

٢ - الموضع الثاني : فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2]

٣- الموضع الثالث : فى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة ، آية ٥٥ ، ٥٦

(٢) سورة البقرة ، آية ٧٢ ، ٧٣

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٤٣

٤ – **الموضع الرابع : فى قوله تعالى :**

﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾(١)

٥ – **الموضع الخامس : فى قوله تعالى :**

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾(٢)

٦ – **الموضع السادس : فى قوله تعالى : على لسان عيسى عليه السلام**

﴿ وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ﴾(٣)

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٩

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٠

(٣) سورة آل عمران ، آية ٤٩

وكذا فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾(١)

٧ – الموضع السابع : فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾(٢)

إلى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾(٣)

اختصرت هذه المواضع فى القرآن ، ولك أن تراجع تفسير الآيات فى مواضعها فى كتب التفسير .

---

(١) سورة المائدة ، آية ١١٠

(٢) سورة الكهف آية ٩ – ١٢

(٣) سورة الكهف ،آية ٢١

ثانياً : أدلة القرآن الكريم على إمكانية البعث ووقوعه بالعقل مع النقل ، وذلك فى المواضع الآتية :

١ - **قياس الإعادة على البدء** : فالذى خلق أول مرة قادر على أن يعيد خلقه أيضاً مرة أخرى ، بل الإعادة أهون عليه من الخلق الأول .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾(١)

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾(٢)

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾(٣)

ولكن الإعادة أهون من البداية هذا فى حق الخلق ، أما فى حق الخالق جل وعلا فكل شيء أمامه هين ، لأن أمره بين الكاف والنون

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٤)

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٥)

كما قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٦)

---

(١) سورة ق ، آية ١٥
(٢) سورة الأعراف ، آية ٢٩
(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٤
(٤) سورة النحل ، آية ٤٠
(٥) سورة الروم ، آية ٢٧
(٦) سورة يس ، آية ٧٨ ، ٧٩

وهذا قياس جلى واضح ، لا يحتاج إلى دليل يثبته ، فهناك خلق قد أنشىء من تراب لا حياة فيه ، فالذى يوجد الحياة من تراب وجدت فيه الحياة من قبل ، ليس بأعجب من الإيجاد من تراب - بادىء ذى بدء - لا عهد له بالحياة .

كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[1]

٢ - قياس الإعادة على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، فإن إيجاد النار في الشجر الأخضر الذى يقطر ماء ، يناسب الحياة التى تجرى في الانسان والحرارة التى تسرى في دمه وروحه ، والقادر على هذا هو

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة الحج ، آية ٥ - ٧

(٢) سورة يس ، آية ٨٠

٣ - قياس قدرته على الإعادة ، على قدرته على خلق السموات والأرض بطريق الأولى ، فإن خلق الانسان بالنسبة لخلق السموات والأرض يسير في قدرة الله تعالى ، وذلك من أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على خلق الإنسان مرة أخرى وإعادته إلى حياة أتم وأكمل . إن خلقه بالنسبة لخلقهم يسير فلم تستبعدون القدرة على الإعادة ؟ قال تعالى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

كما قال :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2]

٤ - قياس الإعادة بعد الموت باليقظة بعد النوم ، فالبعث ما هو إلا حياة جاءت عقب موت جاء بعد الحياة الدنيا : وكذلك الإنسان ينام ثم يستيقظ بعد النوم ، فالحياة شبيهة باليقظة . والموت شبيه بالنوم ، والعكس صحيح ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة غافر ، آية ٥٧
(٢) سورة يس ، آية ٨١
(٣) سورة الأنعام ، آية ٦٠

كما قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]

ومعناه : أن الله تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم ، إلا أنه يمسك الأنفس التى قضى عليها الموت ويرسل النائمة إلى وقت ضربه لموتها ، فالأنفس التى يتوفاها هى التى نامت ، وما ماتت عند منامها ، وأما التى قضى عليها الموت فيمسكها ولا يردها إلى البدن ، والأنفس التى يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن حين اليقظة ، وتبقى إلى أجل مسمى وهو وقت الموت .

إن النفس فى وقت الموت ينقطع تعلقها عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما فى وقت النوم فإنه ينقطع تعلقها به فى ظاهره من بعض الوجوه ، ولا تنقطع عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد ، إلا أن النوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وهما يشتركان فى كون كل منهما توفيًا للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة ، فى صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٤٢

٥ - قياس قدرته على الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها : انظر إلى الأرض الميتة عندما ترمى فيها البذر ، ثم ينزل عليها الغيث ، أو تسقى بالماء تراها قد اهتزت وأخذت زخرفها وازينت وأخرجت الزرع البهيج والفواكه اللذيذة وأنواع الرياحين والزهور الجميلة ، مع النخل الباسقات ، وحب الحصيد كذلك ، فمن جعل فيها مادة الحياة بعد الممات ، قادر على أن يخلق من تراب الأرض بشرًا سويًا حيًا ، وإن اختلفت الحياة وصورتها فى كلا الجانبين ، فقد قاس سبحانه خلق الإنسان وإعادته مرة أخرى ، على خلق النبات وإحيائه من الموات، وفى ذلك عبرة لمن أراد أن يتعظ أو يتدبر ، قال تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾(١)

كما قال سبحانه :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾(٢)

(١) سورة الحج ، آية ٥ - ٧

(٢) سورة ق ، الآية : ٧ - ١١

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١)

أى من الدلائل على تفرد الله بالعبادة وتوحده فى صفاته العليا ، حال الأرض حين خلوها عن المطر والنبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وانتفخت ثم ظهر منها النبات أول ظهوره ، ثم تصدعت عنه ، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، والله على كل شىء قدير .

٦ - قياس الإعادة على الخلاف القائم فى البعث بطريق قياس الخلف : وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾(٢)

إن هذا الاختلاف القائم بين الخلائق ، مع اختلاف الطرق الموصلة إليه ، لابد فيه من الوصول إلى الحقيقة ، ومعرفة الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، وذلك أمر لابد منه فى حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، فهناك يرتفع الخلاف، ويستبين الحق ، وندرك جيداً أن أهل الإيمان والتوحيد هم على الحق

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٩

(٢) سورة النحل الآية ٣٨ ، ٣٩

وقد كانوا صادقين ، وأن أهل الكفر والشرك كانوا على باطل ،

و ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ الله أكبر .

٧ - الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر، والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ، لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة ، قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(١)

كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾(٢)

وهذه التكاليف الشرعية التى أمر الله عز وجل بها فمن الناس من قام بها خير قيام ، ومن الناس من لم يبال بها أو يعطيها شيئا من الاهتمام ، وهذا وذاك لا يستويان فى الجزاء أمام الملك العلام كما قال رب الأنام :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾(٣)

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥
(٢) سورة يونس ، الآية ٤
(٣) سورة الملك ، الآية ١ ، ٢

كما قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[١]

وكذلك قال : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾[٢]

كما اختلف الناس كذلك فيما بينهم ، وتفاوتوا تفاوتًا كبيرًا فى أرزاقهم ، وآجالهم ، وأعمالهم ، وفى سعادتهم وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغني الثري ، ومنهم الفقير الشقي ، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ومنهم المسيء ، إلى غير ذلك ، فليس من الحكمة ولا من العدل أو الرحمة أن يسوى بين هؤلاء أجمعين ، ومن ثم اقتضت حكمته سبحانه أن يكون البعث لتلقى الجزاء والأجور

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٣]

ثالثًا : تفنيد القرآن الكريم لمنكرى البعث والرد عليهم : إذ أنكر الكفار - أو كثير منهم - البعث ، وقالوا : إن الجسم مركب من مواد مجتمعة ، فإذا تفرقت تحلل الجسم ولا يمكن إعادته مرة أخرى ، وكيف يعيد الله هذه الأجزاء بعدما تفتت وصارت ترابًا وعظامًا نخرة ؟، وكيف يجعلها خلقًا آخر ؟

وهم قد قاسوا الغائب على الشاهد ، وظنوا أنه إذا لم يكن فى إمكانهم هم إعادة الحياة للميت ، فليس فى مقدور الله تعالى أن يعيده مرة أخرى كذلك .

وكذبوا ، فقد ذكر القرآن هذه الشبهة ورد عليها بالأدلة القاطعة لينتفع بها من

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) سورة القيامة ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٣١

شاء الله له النفع والنجاة ، قال سبحانه :

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾(١)

ثم يقول : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢)

كما قال سبحانه :

﴿ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾(٣)

إلى أن يقول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٤)

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت بالدليل القاطع أن الإنسان له حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، ينشأ الإنسان فيها خلقًا جديدًا ، وأن قدرة الله سبحانه وتعالى أوسع بكثير مما قالوه ، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، بل إن عقولهم نفسها مخلوقة على نمط واحد بديع ، حيث كانت فيها قوة الفكر والتدبر ، فهي تدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى .

وفي تفسير سورة يس عند قوله تعالى :

(١) سورة الواقعة ، آية ٤٧ - ٥٠

(٢) سورة الواقعة ، آية ٦٢

(٣) سورة ق آية ٢ ، ٣

(٤) سورة ق ، آية ١٥

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾[1]

قال الفخر الرازى : بدأ أولاً بإبطال استبعاد المنكرين للحشر بقوله ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ «ونسى خلقه» من أنَّا خلقناه من تراب ، ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم الأعضاء المختلفة الصور والقوام ، وأودعناهم النطق والعقل اللذين بهما استحقوا الإكرام ، فلمَ يستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، مع خلق الناطق العاقل من نطفة لم تكن محل حياة أصلاً ؟

ثم استبعادهم المعاد للتفرق والتفتت ، دفع سبحانه هذا الاستبعاد من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم ، فقال ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾

أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب ، وبدأه الغريب ، وأما من استبعد الإعادة لأنه بعد العدم لم يبق الانسان شيئا ، فقد رد عليهم بقوله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ ﴾

فكما خلقه ولم يكن شيئا مذكورا ، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئا مذكوراً .

* وأما من تفرقت أجزاؤه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصار بعضه فى بطون السباع وبعضه فى بطون السمك ، أو أن إنسانًا أكل آخر وصارت أجزاء

---

(١) سورة يس ، آية ٧٨ - ٨١

المأكول فى أجزاء الآكل ، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكـول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعـاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء ، فقد رد سبحانه على هذه الشبهة بقوله :

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

ذلك لأن فى الآكل أجزاء أصلية ، وأجزاء فضلية ، وفى المأكول كذلك ، فإذا أكل إنســان إنســانًا صار الأصـلى من أجزاء المأكـول فـضليًا من أجـزاء الآكل ، والأجـزاء الأصليـة للآكل هي مـا كـان له قـبل الأكل ،والله يـعلم الأصلى من الفضلى، فـيجمع الأجـزاء الأصلية للآكل وينفخ فـيه روحه ، ويجـمع الأجزاء الأصلية للمأكول ، وينفخ فيه روحه ، وكذلك الجميع يجمع أجزاءهم المتفرقة فى البقاع المتعددة ، بحكمته الشاملة ، وقدرته الكاملة .

* كذلك الإنسان يموت فتأكله الأرض ، وتـختلط ذرات جسده بذرات التراب بعد أن صار الجسد ترابًا كذلك ، وآخـر يموت فيحرق ثم يذرى في الماء أو الهواء فكيف يعرف ، وكيف يجمع ؟

يجيب الله عز وجل على هذه الشبهة فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾[1]

وفي السنة المطهـرة ، «حكى النبى ﷺ حال رجـل مات فـأمر أولاده بحـرقه وتذريته فى الـبر والبحـر ، ظنًا منه أن الله لا يقدر على جـمعه ، فـفعلوا كـما أوصى، ولكن الله أمـر البر أن يجمع مـا فيـه ، والبحر أن يجـمع ما فـيه ، ثم أوقـفه الله بين يديه ، وسـأله – وهو أعلم – أى عـبدى : مـا حملك على مـا صنعت ؟ فقال : خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له»[1] .

(١) سورة ق ، اية ٤

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، بنصه .

* ثم عاد سبحانه وتعالى إلى تقرير دفع استبعادهم وإبطال شبههم فقال :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾

فإن الإنسان له جسم يحس به، وروح تسرى فيه ، وهى كحرارة تجرى فيه ، فإن استبعدتم وجود ذلك فيه فلا تستبعدوه، فإن النار فى الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، فالله قادر على بعثكم بعد الموت ، وان استبعدتم خلق جسم . فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه ، فإن الله خلق السموات والأرض، ثم أشار إلى القدرة الكاملة والعلم الشامل المحيط بكل شيء ، بقوله ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

وأكد بيانه بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

حيث قالوا : لا يقدر أحد على مثل هذا ، قياسًا للغائب على الشاهد ، فأظهر فساد تمثيلهم وتشبيههم ، فقال : فى الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ، ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة ، والله سبحانه يخلق بكلمة « كن » فيكون فكيف تضربون له المثل بالادنى ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض »[1] أ . هـ .

والخلاصة : أن البعث حقيقة يجب التسليم بها ، كما يجب الإيمان بها إيمانًا حقًا ، لا ريب فيه ، كما قال تعالى :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[2]

وكذلك قال عز وجل :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[3]

---

(١) تفسير الفخر الرازى «بتصرف» . (٢) سورة طه ، آية ٥٥

(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٥ .

فذلك من المسلمات التى يوقن بها المسلم ، والتى يشعر بها كل أفراد البشر فى جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون أو المتبدون ، فهو شعور الجميع، المفطور فى الإنسان ، وهو كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذى دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

وكذلك ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح ، ومخاطبتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجسمانية .

* وأيضًا : رؤى الناس المتعددة التى واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان ، هذه الرؤى لأموات الناس فى المنام ، والحديث معهم ، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وإخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية ، وتلك أدلة عقلية أخرى من بعد الأدلة الشرعية التى ذكرناها .

وآخر الأدلة وأعظمها على البعث والجزاء ، والحياة الآخرة : أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ ، إن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا يجد داعيًا للشك ، ولا مثارًا للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر ، كما أخبر رسوله ﷺ بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذًا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية ، وعن كل ما يجرى فيها من بعث ، وحساب ، وجزاء ، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل ، إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيمًا للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيمًا للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات ،مما أخبر الله تعالى به وقرره فى كل كتبه ، وعلى ألسنة

جميع رسله ، فالشك فيه ضرب من المرض العقلى ، والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

وبعد : فإن هذه الجولة السريعة فى آيات البعث فى القرآن الكريم ، قد أكدت أن الحياة الآخرة ما هى إلا من هذا النوع من الحياة ، وأن البعث إنما هو بالروح والجسد جميعًا ، وفى ذلك أبلغ رد على من ينكره ، ويلقى الشبه الواهية أمام تلك الحقائق الإلهية .

واقرأ معى قول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وبجانب هذا ، فإن الأعضاء سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة ، حيث ينطقها الله بقدرته القادرة ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[2]

(١) سورة الجاثية ، آية ٢٤ - ٢٦ (٢) سورة النور ، آية ٢٤ ، ٢٥ .

وقال سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]

ثم كيف يصح فى العقل ألا يعاقب جسد فى النار قاسمك لذائذ الحياة ؟

وكيف لا يثاب جسد في الجنة شاركك البعد عن الشهوات المحرمة ؟

ومن لطائف هذا البحث ، أن بعض الفلاسفة المنكرين للبعث ، جاء لواحد من العلماء وسأله : إنك تؤمن بالبعث بعد الموت ، وتقول : إن الجسد يعاد مرة أخرى بعد أن يبلى ، فما هو الذى يترتب على هذه العقيدة ؟ إنى أرى أن البعث أو عدمه لا يترتب عليه فائدة ، فقال له العالم : إن كان هناك بعث فقد نجوت أنا، وهلكت أنت ، وإن لم يكن هناك بعث فقد نجونا جميعاً .

وأنشد آخر :

قال المنجم والطبيب كلاهما	لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر	أو صح قولى فالخسار عليكما

أ . هـ[2]

---

(١) سورة فصلت ، آية ١٩ - ٢١

(٢) أنظر بتوسع : التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ص١٠٤ - ١٢١ ، وعقيدة المؤمن ص٣١١ - ٣١٩ والنهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٢٥٦ - ٢٦٤

الحكمة فى المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخروى الذي هو بعث الخلائق بعد موتهم وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم ، بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، كما قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(١)

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتًا كبيرًا فى أرزاقهم ، وآجالهم ، وأعمالهم ، وفى سعادتهم ، وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى . ومنهم العزيز ،ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف ،فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا يبعثون ،لكان ذلك منافيًا للحكمة ، مجانبًا للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما فهما كائنان لا محالة ، فقد أمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقسم عليهما ، فى قوله سبحانه

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٢) :

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٨٥

(٢) سورة التغابن ، آية ٧

وكذلك الناس يختلفون في هذه الحياة الدنيا ما بين مؤمن وكافر ، ومسلم ومشرك ، ومن يعبد الله ، ومن يعبد غيره ، ومن يتبع الرسول ﷺ ، ومن يكفر به ، ومن يعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله ، ومن يزعم أنه إله أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة ، وغير ذلك ، والكل يزعم أنه على حق وعلى صواب ، فمتى يستبين له الحق ؟ إنه يوم القيامة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١)

* وجوب الإيمان باليوم الآخر :

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلائق وحشرهم ، وحسابهم ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجبًا فحسب ، بل هو أحد أركان ستة ، عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذًا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾(٢)

(١) سورة النحل ، آية ٣٨ - ٤٠

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٧

ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره فى عشرات السور منه ، وفى مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه ، ومرة بتقريره ، وتأكيد مجيئه ، ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾(١)

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به .

﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير هو ذكره مقرونًا بالإيمان بالله تعالى ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣)

وكقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾(٤)

فى عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما مدار استقامة المرء فى هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئًا ، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير ، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية .

(١) سورة الطلاق ، الآية ٢ (٢) سورة البقرة ، الآية ٤ ، ٥
(٣) سورة البقرة ، الآية ٦٢. (٣) سورة النساء ، الآية ٥٩ ، والنور ٢

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه ، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ، ولا لغيره ، وهو شر كله ، لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال البشرى [1].

***

(١) عقيدة المؤمن ص ٣٢٠ - ٣٢٢ بتصرف

اشراط الساعة « علاماتها »

إن لكل كائن حى كالإنسان والحيوان ، أو نامٍ كـالأشجار والنباتات ، علامات تظهر له دنو أجله وقرب ساعة هلاكه .

فالإنســان يشيب ويهرم ، ويمرض ويضعف ، ويكون ذلك عـلامة دنو أجله ، وقرب ساعة مـوته ، والحيوان فى غالب أحواله كالإنسان يعـتريه الهرم والضعف وينتابه المرض فتـخور قواه ، وتنحل بنيتـه ويهلك . والنبات كالزرع مثـلا يصفر وييبس ، ثم يذوى ويسـقط ويبيد . هذه أجـزاء من الكون يسبق هلاكـها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك ، والكون وهو كل ،له (حتمًا) علامات تدل على قرب فنائه ، ووقت دماره وخرابه . وقد جاء الوحى الإلهي يذكر تلك العلامات وبيانها ونبهت الرسل عليها . ولفتت النظر إليها تحذيرًا وتعليمًا .

ففى القرآن الكريم يقول تعالى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾(١)

فما هى اشراطها ؟ اوعلاماتها ؟

للساعـة علامـات جاءت مع قرب نـهاية الزمان ، وابتـدأت منذ حين ، وهذه تعرف بالعلامات الصـغرى ، وعلامات أخرى تأتى على مقـربة من الساعة ، لها خطورتها وعظمها مع تواليها غالبًا ، وهذه تعرف بالعلامات الكبرى .

---

(١) سورة محمد ، آية ١٨

أولاً : العلامات الصغرى :

(أ) ما ظهر منها :

١ - **بعثة النبى محمد ﷺ** ،التى ختم اله تعالى بها سائر النبوات ، فلا نبى بعده ، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ، ولذا قال رسول الله ﷺ فى الصحيحين : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى أصبعيه السبابة والوسطى ، وقرن بينهما »[١] .

٢ - **انشقاق القمر** ، آية له عليه الصلاة والسلام ، وقد كان شرطًا من أشراط الساعة ، لأن الله تعالى ذكره مقرونًا بالإخبار باقتراب الساعة ، فقال تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[٢]

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبى ﷺ ، حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله فانشق القمر فلقتين على جبل أبى قبيس ، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه »[٣] .

٣ - **موت النبى ﷺ** ، وقد عدها من علامات الساعة .

٤ - **تحديد الرسول مدة الخلافة** من بعده بثلاثين سنة، ثم تحولها إلى مُلْك عضوض قال ﷺ :« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكًا»[٤] وقد كان

---

(١) حديث متفق عليه

(٢) سورة القمر ، آية ١ - ٣

(٣) حديث صحيح

(٤) رواه أحمد في مسنده .

ذلك على يد أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلىّ بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وتمامها وختامها بستة أشهر وليها الحسن بن على بعد أبيه، وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وقد قال ﷺ -والحسن ابن عليّ إلى جانبه على المنبر - : « ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وهكذا وقع سواء.(١)

وقد قال ﷺ : « إنه ستكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ما شاء الله ان تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا عضوضًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا جبريًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ، ثم سكت ﷺ »(٢) وقد كان من ذلك ما شاء الله ولم تبق إلا الخلافة .

٥ - قوله ﷺ فى الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعواهما واحدة » (٣) والمراد بالفئتين : على ومن معه،ومعاوية ومن معه رضى الله عنهم أجمعين ، والمقتلة العظيمة كانت بصفين .

٦ - قوله ﷺ فى رواية مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا: وما الهرج يارسول الله ؟قال: القتل القتل »(٤) وهذه قتلى الحروب لا يعدون بالعشرات ولا بالمئات ، بل بالألوف وعشرات الألوف ومئاتها ، والملايين أيضًا ، فى حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التى كانت على عهد رسول الله ﷺ والتى دامت زهاء عشر سنوات ، لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب

(١) رواه البخارى
(٢) رواه أحمد ، والحافظ العراقى وقال هذا حديث صحيح
(٣) البخارى ومسلم
(٤) رواه مسلم

إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد.

٧ - قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى» [١] وقد ظهرت النار في المدينة واستمرت شهراً ، عام أربع وخمسين وستمائة من الهجرة ، في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة . كما وصفها ﷺ ، فقد شاهد الناس على ضوئها أعناق الإبل بالبصرة وهم في أرض الحجاز .[٢]

٨ - ذكر إخباره ﷺ بالغيوب المستقبلة حتى قيام الساعة ، متمثلة في فرقة تقع ومعاصي ترتكب ، وبلاء يحل ، وجهل يظهر، وأمور تحدث ، وموازين تقلب ومعايير تعكس . . إلخ ومنه قوله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ، قيل : ومن الغرباء ، قال : النزائع من القبائل»[٣]

وقوله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ،كلها في النار إلا واحدة ، قيل من هي يارسول الله ؟ قال :ما عليه أنا وأصحابي » [٤] .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يارسول الله : «إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال :نعم وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ فقال : قوم يهدون بغير هديي يُعرَف منهم ويُنكَر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يارسول الله . صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ،

---

(١) رواه مسلم

(٢) النهاية في الفتن والملاحم جـ١ ص٢٦

(٣) رواه مسلم وغيره

(٤) رواه أبو داود وغيره .

قلت : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت: فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ، قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» [١] .

وقوله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » [٢] .

وقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمرالله وهم كذلك » أو « وهم على ذلك »[٣].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إنه إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » [٤] .

وقوله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، وتشرب الخمر ، ويذهب الرجال وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد » [٥] .

وقوله ﷺ : « يامعشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهن -وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوابالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) رواه السخاوى في المقاصد الحسنة وأبو داود فى الملاحم والطبرانى فى الأوسط ، وسنده صحيح
(٣) رواه البخارى (٤) رواه البخارى
(٥) رواه البخارى ومسلم

أيديهم ، ومـا لم تحكم أئمـتهم بكتـاب الله وسخـروا بما أنزل الله إلا جـعل الله بأسهم بينهم» (١).

وقال ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهـما بعد ، قوم معهم سـياط كأذناب البقـر يضربون بها الناس ، ونسـاء كاسيـات عاريات مائلات مميـلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » (٢) .

وقوله ﷺ : « إذا اتخذ الفيء دولاً ، والأمانة مـغنمًا ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم العلم لغيـر الدين ، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه ، وأدنى صديقـه وأقصى أباه ، وظهرت الأصـوات في المساجـد ، وساد القـبيلة فـاسقـهم ، وكان زعيـم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمـة أولها ، فليرتقـبوا عند ذلك ريحًا حمـراء وزلزلة وخسفًا ومـسخًا وقذفًا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » (٣).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلمـا صلى صلاته ناداه رجل : متى السـاعة ؟ فزجـره رسول الله ﷺ وانتهره ، وقـال : اسكت حتى إذا أسفر رفـع طرفه إلى السماء ، فـقال : تبارك رافعها ومدبرها ، ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال : تبارك داحيها وخالقها ثم قال أين السـائل عن الساعـة ، فجثـا الرجل على ركـبتيـه ، فقـال أنا بأبي أنت وأمي سألتك ، فقال : « ذلك عند حيف الأئمة ، وتصديق بالنجوم وتكذيب بالقدر ، وحتى تتخـذ الأمانة مـغنمًا ، والصدقـة مغـرمًا ، والفاحـشة زيادة ، فـعند ذلك هلك قومك» (٤)

(١) رواه ابن ماجة بسند صحيح (٢) رواه مسلم
(٣) رواه الترمذي ، وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه
(٤) رواه البزار وقال لا نعرفه إلا من هذا الوجه

وقوله ﷺ : « فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، فقال رجل من المسلمين : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور»[١].

وقوله ﷺ :« بادروا بالموت ، إمرة السفهاء ، وكثرة الشرط ، وبيع الحكم ، واستخفاف الذمم ، وقطيعة الرحم ، ووجود فئة يتخذون القرآن مزامير يقدمونه للناس يلهونهم به وإن كانوا أقل منهم فقهاً » [٢].

وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد»[٣].

وعن أسامة بن زيد قال : أشرف النبى ﷺ على أطم من أطام المدينة ، فقال : « هل ترون ما أرى ؟ قالوا: لا ،قال :فإنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر » [٤]

كما قال ﷺ :«يتقارب الزمان ، وينقص العلم،ويبقى الشح ، وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قالوا : يارسول الله إيما هو ؟ قال : القتل القتل » [٥]

وقوله ﷺ :« لا يأتي على الناس زمان إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[٦] .

وقوله ﷺ : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعى،من يشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به » [٧]

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث غريب
(٢) رواه الامام أحمد وتفرد به
(٣) رواه ابو داود والنسائى وابن ماجه
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد
(٦) رواه البخارى وكذلك الترمذى
(٧) رواه البخارى ، كتاب الفتن

وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانه»[١] .

وقوله ﷺ : « منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم » شهد ذلك لحم أبى هريرة ودمه »[٢] .

وقوله ﷺ : لثوبان : « كيف أنت - ياثوبان - إذا تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ؟ فقال: بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أمن قلة بنا؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن ، قال: وما الوهن يارسول الله ؟ قال : « حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال » [٣] .

ومن علامات الساعة أيضًا : «حين لا يأمن الرجل جليسه» [٤] وكذلك : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان »[٥]

وأيضًا : « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم ، فقد تودع منهم»[٦]

وكذلك :« حين يفيض المال فيكم حتى إن الرجل ليعطى عشرة آلاف ، يظل يسخطها»[٧]

وقوله ﷺ : « إن بين يدى الساعة كذابين ، منهم صاحب اليمامة ، وصاحب

---

(١) رواه البخارى
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الامام احمد
(٤) رواه أبو داود
(٥) جزء من حديث فى الصحيحين
(٦) رواه أحمد
(٧) رواه أحمد ومسلم بنحوه

صنعاء العبسي ، ومنهم صاحب حمير ، ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة »[١].

وكذلك قال :« لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كل يزعم أنه رسول الله »[٢] وفى رواية :« وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم الأنبياء لانبى بعدى »[٣] .

وقوله ﷺ :« إن فى أمتى لنيفًا وسبعين داعيًا كلهم داع إلى النار لو أشاء لأنبأتكم بأسمائهم وقبائلهم »[٤] .

وقال ﷺ :« إن أمام الدجال سنين خَدَّاعة ، يُكَذَّبُ فيها الصادق ، ويُصَدَّقُ فيها الكاذب فَيُخَوَّنُ فيها الأمين وَيُؤْتَمَنُ فيها الخائن ، ويتكلم فيها الرويبضة ، قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفويسق يتكلم فى أمر العامة »[٥] .

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أحظى الناس بالدنيا لكع بن لكع»[٦]. اللكع «اللئيم» و«أن تفقد الأمانة، حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أمينًا» البخارى.

وقوله ﷺ لمن سأله عن الساعة ، فقال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها؟ قال ﷺ :« إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٧]

وأيضاً : « لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة أراذلها »[٨]

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان (تنزع بركته)، فتكون السنة كالشهر

---

(١) تفرد به أحمد

(٢) رواه الإمام البخاري

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه أحمد والطبرانى ، بإسناد لا بأس به

(٥) رواه الامام أحمد باسناد جيد

(٦) رواه الامام أحمد بسند جيد قوى ، وكذا الترمذى بسند حسن

(٧) رواه البخارى

(٨) رواه الإمام أحمد ، وقال سهيل أن هذا الإسناد على شرط مسلم

والجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السعفة »(١) والسعفة: الخوصة أو الجريدة من النخل.

وقال ﷺ :« إن من علامات الساعة أن تعزب « تغيب » العقول وتنقص الأحلام»(٢)

وقوله ﷺ :« إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق ، وظهور الجهل » (٣) .

وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريعته من أهل الارض فيبقى فيها عجاجة « رعاع » لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً » (٤).

وقال رسول الله ﷺ :« أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل »(٥) .

وقال ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر ، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف ، وكأن وجوههم المجان المطرقة وتجدون خير الناس أشدهم كراهة لهذا الأمر حتى يدخل فيه ، والناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، وليأتين على أحدكم زمان لأن يرانى أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله »(٦) .

---

(١) رواه أحمد ، على شرط مسلم

(٢) رواه الطبرانى

(٣) رواه أحمد

(٤) رواه أحمد

(٥) رواه أبو داود

(٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى

ذلف الأنوف: قصرها وصغرها. المجان :جمع مجن وهو الترس والمطرقة : من طرق .

هذا والترك قد قاتلهم الصحابة فهزمـوهم وغنموهم وسبوا نساءهم وأبناءهم ، ويحتمل وقوع ذلك مرة ثانية بين يدى الساعة .

وقوله ﷺ : «من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد للإمامة فلا يجدوا إمامًا يصلى بهم »(١).

وقال ﷺ : «كيف بكم وزمان أوشك أن يأتى يغربل الناس فيه غربلة ، والناس قد مرجت عهودهم واختلفوا فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه . قالوا : كيف بنا يارسول الله ؟ قال : تأخذون بما تعرفون ، وتدعون ما تنكرون ، تقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم » (٢) .

ويقول ﷺ : « سـيكون فى آخر أمـتى رجال يركـبون على السـروج كأشـباه الرحـال ، ينزلون بها على أبواب المسـاجد ،نسـاؤهم كاسـيات عـاريات ، على رؤوسهن البخت العجاف . العنوهن فإنهن ملعونات » (٣) .

ويقول ﷺ : «ليكونن قوم من أمتى يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»(٤).

ويقول ﷺ : « إن رجـالاً يتخوضـون فى مال الله بغيـر حق ، فليس لهم عند الله إلا النار »(٥).

ويقول ﷺ : «يأتى زمان على الناس لا يبالى المرء فيه ماذا دخل جوفه» (٦) .

يقول ﷺ : «يأتى زمان على الناس من لم يأكل الربا أصيب بشرره أو دخانه»(٧)

وقال ﷺ : « سيـأتي على الناس زمان لا يبالى المرء فيـه أمن حلٍ أخذ المال أم من حرام » (٨) .

---

(١) رواه أبو داود (٢) رواه أبو داود

(٣)رواه أحمد والطبرانى فى الثلاثة ، ورجال أحمد رجال الصحيح

(٤) رواه البخارى (٥) رواه البخارى

(٦) رواه الطبرانى (٧) رواه الطبرانى

(٨) رواه البخارى

(ب) علامات صغرى ، لم تظهر بعد ومنها ما قد ظهر أيضًا:

* قـوله ﷺ :« بادروا بالأعـمال فـتنًا كـقطع الليل المظلم ، يصـبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

وقد أخذت هذه العلامة فى الظهور ، ووقع لعـدد كثير من الناس ماحمله هذا الخبر النبوى الصادق .

* وقوله ﷺ :« ستـفتحون من بعـدى رومية والقسطنطينيـة ، فسئل ﷺ :أى المدينتين تفتح أولاً : فقال ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعنى القسطنطينية (٢)

هذا وقد فتحت القسطنطـينية على يد « محمد الفاتح » سنة ١٤٥٣ م،وقد بقي فتح رومية التى هى روما الفاتيكان ، وقد ذكر أن « القسطنطينية » ستفتح مرة ثانية

* وقـوله ﷺ :« ست من أشراط السـاعـة : موتي ، وفـتح بيت المقـدس ، وموت يأخذ فى الناس كقعاص الغنم وفتنة يدخل حريمها بيت كل مسلم ، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها وأن يغدر الروم فيسيرون بثمانين بندًا ، تحت كل بند « لواء » اثنا عشر ألفًا »(٣) .

وقد تحقق منه قوله ﷺ: موتى، كمـا تحقق فتح بيت المقدس، لأول مرة على يد «عمر بن الخطاب» وبقى أن يفتح مرة ثانية، كما تحقق الموت بالطاعون، والفتنة فى كل بيت عن طريق الاعـلام كذلك أن يعـطى الرجل ألف دينار فيـسخطهـا، وبقى غـدر الروم مع العرب، وقد أخـذت طريقهـا فى الظهور، بظهـور بوادرها ومقدماتها.

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه الإمام احمد والدارمى والحاكم ، وهو حسن الإسناد ، وصححه الحاكم

(٣) رواه الإمام أحمد

* وقوله ﷺ: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وقع اللسان فيهـا أشد من وقع السيف»[1] وهى حروب يكون للاعلام فيهـا دور كبير، وقد ظهر ذلك فى حرب الخليج وغيرها وقد كان منها ما شاء الله، وبقى فيها ما هو أشد.

وفى رواية قال ﷺ: «إنه ستكون فتنة وستصيب العرب، قتلاها فى النار، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف»[2] بدت واضحة فى حرب الخليج والله أعلم.

* وقوله ﷺ :« لن تقوم الساعة حتى تصير أرض الحجاز مروجًا وأنهارًا»[3]

وقد تحقق منه الجزء الأول ، فأرض الحجاز الآن - وقد كانت واديا غير ذى زرع- صارت بها مروج ، أى مراعي وزروع وثمار وبقيت جزئية « الأنهار» التى تجرى فيها لم تتحقق بعد، وهى فى طريقها ، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ .

* وقوله ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم : لعلي أكون أنا الذى أنجو »[4] . وهذه لم تظهر بعد .

* وقوله ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان ، يسوق الناس بعصاه»[5] .

وهذه العلامة لم تظهر بعد أيضًا.

* وقوله ﷺ : «إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجًا،وسيخرجون منه أفواجًا»[6]

وهو وإن كان على ظاهره لم يتحقق بعد ،لكن من ينظر إلى حال الكثير من

(١) رواه أبو داود
(٢) رواه أبو داود وأحمد
(٣) رواه مسلم وأحمد والحاكم
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه البخارى ومسلم
(٦) رواه أحمد

المسلمين وقد ارتكبوا الشرك ، ووقعوا فى الكفر ، وفعلوا كل خصال النفاق ومظاهر الردة ، يرى أنه قد تحقق ، ولكن ربما هناك ما هو أشد من ذلك ، فيما يجد من الزمان أو بصورة مباشرة .

كقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دَوْس حول ذى الخلصة »[1]

وذو الخلصة : صنم كانت تعبده دوس فى الجاهلية بتبالة .

وهذه العلامة يرى بعض العلماء أنها قد ظهرت فى أرض الجزيرة العربية ، قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ عبدت الأشجار والأحجار وانتشر ذلك فى شتى بلاد العالم الإسلامى فذبحت الذبائح ، وأوقدت الشموع ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور ، بصورة عجيبة وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما يمكن أن تكون هذه العلامة لم تتحقق بحرفيتها بعد وإن ذلك سيكون .

كما قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلغ مازوى منها ، وإنى أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض « الذهب والفضة» وإنى سألت ربى أن لا يهلكوا بسَنَة بعامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم « كناية عن الإذلال والمهانة » وإن ربى عز وجل قال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : من بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً ، وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ، وإذا وضع فى أمتى السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ،ولا تقوم الساعة حتى تلحق

(١) رواه البخارى ومسلم

قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان ، وأنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كل يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله عز وجل»[١] .

* وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: « كنا قعودًا عند رسول الله ﷺ فذكر الفتن فأكثر من ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس [٢] ، فقال قائل : يارسول الله وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هى حَرَبٌ وهَرَبٌ [٣]، ثم فتنة السراء[٤] دخلها [٥] أو دخنها من تحت قدمى رجل من أهل بيتى يزعم أنه منى ، وليس منى إنما أوليائى المتقون ، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ،ثم فتنة الدهيماء [٦] ، لا تدع أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته حتى إذا قيل انقضت عادت يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا حتى يصير الناس إلى فسطاطين [٧] فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده » [٨] .

* وقال ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت »[٩] .

* وقوله « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ، ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلعاً أفيدعاً يضرب عليها بمساحيه ومعوله » [١٠]

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد

(٢) الحلس :الذى يلى ظهر البعير تحت القتب ، ملازمة

(٣) بالفتح ، أى سلب المال والأهل

(٤) السراء : النعمة التى تسر الناس من وفرة المال والعافية

(٥) الدخل : الغش والعيب والفساد

(٦) تصغير دهماء ، وهى الداهية .

(٧) الفسطاط : الجماعة من الناس

(٨) رواه أبو داود

(٩) رواه البخارى

(١٠) رواه أحمد بإسناد جيد قوى

ولكن هذه العلامة لا تكون إلا فى نهاية الزمان ، بعد أن يحج عيسى عليه السلام بيت الله الحرام.

* وقوله ﷺ : « لن تقوم الساعة حتى يخرج الرجل من عند أهله فيخبره شراك نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده »[١] .

* وقوله ﷺ : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول : من صعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان »[٢] .

* وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرًا ، لا تكن فيه بيوت المدر ، ولا تكن منه بيوت الشعر »[٣] ولعل هذه العلامة بعد هلاك يأجوج ومأجوج، كما ذكر فى الحديث عنهم .

* وقال ﷺ : « لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالى يقال له جهجاه »[٤]

* وقوله ﷺ : « ليبلغن هذا الأمر « أى الإسلام » ما بلغ الليل والنهار ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزًا يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل الله به الكفر وأهله »[٥].

* وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيختبىء اليهود خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر فيقول :يامسلم ، ياعبد الله ، تعال ورائى يهودى فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه من غرس اليهود »[٦] .

---

(١) رواه الإمام أحمد
(٢) رواه أحمد فى مسنده
(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح
(٤) رواه مسلم وأحمد
(٥) رواه أحمد والطبرانى والحاكم ، والحديث حسن صحيح على شرط مسلم
(٦) رواه مسلم وأحمد

ولعل هذه العلامة تتأخر بعض الشيء ، حتى يخرج آخر اليهود مع الدجال ، فتكون تلك العلامة وبها تكون نهاية اليهود فى الأرض .

* وقوله ﷺ : « تصالحون الروم صلحًا آمنًا ، وتقهرون أنتم وهم عدوًا من ورائهم ، فتسلمون وتغنمون ، ثم تنزلون بمرج ذى تلول فيقوم الرجل من الروم فيرفع الصليب ، ويقول الأغلب الصليب ، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله ، فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم فيجمعون لكم فيأتونكم فى ثمانين غاية ، مع كل غاية عشرة آلاف»[1] .

وفى رواية البخارى : « فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، كل غاية اثنا عشر ألفًا »

* وفى الحديث أيضًا : « هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل فنادى عبدالله ابن مسعود قائلاً : جاءت الساعة وكان عبد الله متكئًا فجلس ، فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة ، قال:ثم قال بيده هكذا - أى أشار بها لى - ونحاها نحو الشام ، وقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام ، قلت : « الروم تعنى ؟ قال: نعم ويكون عند ذاكم القتال ردة شديدة قال : فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ،وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون ثم يبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد « نهض وتصدى» إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتتلون مقتلة إما قال : لا ندرى مثلها، وإما قال : لا يرى مثلها ، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى

(١) رواه ابو داود وابن ماجة ، وبنحوه فى البخارى

يخر ميتًا ، فيعاد بنو الأرب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد فبأي غنيمة يفرح ، أو أي ميراث يقاسم . قال : فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك قال فجاءهم الصريخ «المستنجد المستصرخ » أن الدجال قد خلفهم فى ذراريهم فيرفضون ما فى أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ :« إنى لأعلم أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ »[1] .

***

(١) رواه الإمام أحمد ، وتفرد بإخراجه مسلم .

فصل

ومن العلامات التى لم تظهر بعد «ظهور المهدي»

من هو المهدى ؟

هو أحد الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، يكون فى آخر الزمان ، وآخر الأئمة الاثنى عشر ، وليس هو بالمنتظر الذى تزعم الروافض وترتجى ظهوره من سرداب فى سامرا ، فإن ذاك ما لا حقيقه له ولا عين ولا أثر ، وليس هو الذى تزعمه الشيعة ، وليس بالذى يزعم لنفسه أنه المهدى[1].

والمهدى : اسمه «محمد بن عبد الله» من ولد فاطمة ، من آل البيت ، يحكم الناس سنين عددًا يملأ الأرض عدلاً وقسطًا ، وفى عهده يكثر الخير ويفيض المال .

هذا وأحاديث المهدى - التى أمكن الوقوف عليها -خمسون حديثًا ،فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر أو غير المنجبر . وهي بكثرتها تفيد التواتر المعنوى ، وحديثنا هنا عن المهدى ينحصر فى الصحيح [2] .

ومن ذلك :

* قوله ﷺ :« المهدى منى ، أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جورًا وظلمًا ،يملك سبع سنين »[3].

* وقال ﷺ :«يخرج فى آخر أمتي المهدى ،يسقيه الله الغيث ، وتخرج

(١) نهاية الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٤٩ بتصرف

(٢) المهدى المنتظر لأبي الفضيل عبدالله بن محمد بن الصديق الغمارى ص٥ بتصرف

(٣) أخرجه أبو داود والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه

الأرض نباتهـا ، ويعطى المال صحـاحًا ، وتكثر الماشـية ، وتعظم الأمـة ، يعيش سبعًا أو ثمانيًا يعنى حججًا » (١) .

* وقال ﷺ : « لا تقـوم الساعة حتى يملـك رجل من أهل بيتى ، أقنى ، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت قبله ظلمًا ، يملك سبع سنين »(٢) .

* وقال ﷺ : « يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده »(٣) .

* وقال : « يخرج رجل من أمتى يـقول بسنتى ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخـرج الأرض بركتها وتملأ الأرض منه قسطًا وعدلاً ، كـما ملئت جورًا وظلمًا ، يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل بيت المقدس »(٤) .

* وقـال صلوات الله وسـلامه عليـه : « لو لم يبق من الـدنيا إلا يوم – قـال زائدة– لطول الله ذلك اليوم حـتى يبعث فيـه رجل منى أو من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيـه اسم أبى – زاد فى حديث فطر – يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا »(٥).

وفى رواية « لا تذهب أو لا تنقـضي الدنيـا حتى يملك العـرب رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى » (٦) .

وفى رواية « يخـرج رجل من أهل بيتى يـواطىء اسمـه اسمى وخُلقـه خُلقى فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجوراً » (٧).

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، وأقره الحافظ الذهبى فى التلخيص

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ، عن أبى سعيد الخدرى

(٣) رواه مسلم فى صحيحه

(٤) أخرجه الطبرانى فى المعجم والأوسط ، ورجاله ثقات

(٥) رواه أبو داود وخرجه أحمد والترمذى وقال : حديث حسن صحيح

(٦) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٧) رواه ابن حبان

* وقال ﷺ : « المهدى من عترتى ، من ولد فاطمة [١] وفى رواية «المهدى من ولد فاطمة » [٢] .

* وعن أم سلمة قالت : سمعت النبى ﷺ : « يذكر المهدى فقال: نعم ، هوحق ، وهو من بنى فاطمة » [٣] .

* قال ﷺ : « يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة ، فيخرجونه وهو كاره ، فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه بين الركن والمقام ، ثم ينشأ رجل من قريش ، أخواله كلب ، فيبعث إليهم بعثًا فيظهرون عليهم ، وذلك بعث كلب ، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب ، فيقسم المال ، ويعمل فى الناس بسنة نبيهم ﷺ ، ويلقى الإسلام بجرانه إلى الأرض ، فيلبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون» [٤] .

* وقال ﷺ : « يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثوًا ، لا يعده عدًا، قال ـ يعنى جابر بن عبد الله ـ قلت لأبى نضرة وأبى العلاء : أترايان أنه « عمر بن عبد العزيز » ؟ فقالا : لا » [٥]

وفى رواية « يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده » [٦] .

* وقال ﷺ : « ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدى : تعال صل بنا ،

---

(١) أخرجه أبو داود
(٢) أخرجه ابن ماجة
(٣) أخرجه الحاكم وسكت عليه ، والذهبى ، وإسناده صحيح
(٤) رواه أبو داود ورجاله رجال الصحيحين ، وابن حبان فى صحيحه بإسناد صحيح ، والطبرانى بنحوه ورجاله رجال الصحيح
(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله
(٦) أخرجه مسلم أيضًا ، والبزار بإسناد صحيح

فيقول : ألا وأن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله لهذه الأمة» (١)وفى رواية «لا تزال طائفة من أمتى تقاتل على الحق ، حتى ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس ، ينزل على المهدى ، فيقال :تقدم يانبى الله فصل بنا ، فيقول : هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض » (٢) .

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت : عبث رسول الله ﷺ فى منامه ،فقلنا: يارسول الله صنعت فى منامك شيئًا لم تكن تفعله ،فقال :« العجب أن أناسًا من أمتى يؤمون البيت لرجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يارسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم ، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى ، يبعثهم الله على نياتهم »(٣) .

* وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « أبشركم بالمهدى يبعث على اختلاف من الناس وزلازل ، فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً ، كما ملئت جورًا وظلماً ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المال صحاحًا ، قال له رجل :ما صحاحاً ؟ قال: بالسوية بين الناس ويملأ الله قلوب أمة محمد ﷺ غناءاً، ويسعهم عدله حتى يأمر مناديًا فينادى فيقول : من له فى مال حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجل واحد ،فيقول : أنا فيقول :ائت السدان ، يعنى الخازن، فقل له : إن المهدى يأمرك أن تعطينى مالاً فيقول له :احث حتى إذا جعله فى حجره وانتزره ، ندم ، فيقول : كنت أجشع أمة محمد ﷺ أو عجز عنى ما وسعهم قال : فيرده ، فلا يقبل منه، فيقال له : إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه ، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير فى العيش بعده ، أو

(١) أخرجه أبو نعيم فى أخبار المهدى وغيره
(٢) أخرجه أبو عمرو الدانى في سننه .
(٣) رواه البخارى ومسلم - واللفظ له ، وخرج أبو يعلى نحوه بإسناد صحيح .

قال : ثم لا خير في الحياة بعده» (١) .

* وقال على بن أبى طالب - وقد نظر إلى ابنه الحسن ، فقال : « إن ابنى هذا سيد ، كما سماه رسول الله ﷺ وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ﷺ يشبهه فى الخُلُق ولا يشبهه فى الخَلْق ، يملأ الأرض عدلاً»(٢).

* وعن عبد الله قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ اغرورقت عيناه وتغير لونه ، قال : فقلت ما نزال نرى فى وجهك شيئاً نكرهه ، فقال : «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتى سيلقون بعدى بلاءً وتشريدًا وتطريدًا ، حتى يأتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخبز فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتى فيملأها قسطًا كما ملئت جورًا ، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوًا على الثلج »(٣).

* كما قال ﷺ : « يقتل عند كنزكم ثلاثة ، كلهم ابن خليفة لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم، ثم ذكر شيئا لا أحفظه ، قال : فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوًا على الثلج فإنه خليفة الله المهدى»(٤).

* وعن أبى سعيد ، قال رجل : والله ما يأتي علينا أمير إلا وهو شر من الماضى ، قال أبو سعيد ، فقلت : لولا شيء سمعته من رسول الله ﷺ لقلت مثل ما يقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أمرائكم أميرًا يحثو المال

---

(١) اخرجه أحمد بأسانيد صحيحة ، وأبو يعلى بإسناد صحيح ايضًا ، كما قاله الحافظ الهيثمى ، وأبو نعيم فى الأربعين التى جمعها فى المهدى .

(٢) رواه أبو داود الذى أفرد كتابا فى سننه عن المهدى ، وإسناده صحيح

(٣) رواه ابن ماجة

(٤) رواه ابن ماجة ، وهذا إسناد قوى صحيح ، والكنز هو كنز الكعبة

حثوًا ولا يعـده ، يأتيه الرجل فيسأله فـيقول خذ ، فـيـبسط ثوبه ، فيحثـو فيه ، وبسط رسول الله ﷺ ملحفة غليظة كانت عليه يحكى صنع الرجل ثم جمع عليه أكتافها، قال:فيأخذه ثم ينطلق » (١).

* هذا وقد أخـرج نعيم بن حـماد في كتـاب الفتن بإسناد صحـيح على شرط مسـلم،عن على رضي الله عنه . قـال : الفتن أربع فتنه السـراء وفتنه الضـراء ، وفتنة كـذا وذكر معـدن الذهب ، ثم يخرج رجل من عتـرة النبى ﷺ يصلح الله على يديه أمرهم» .

* وذكر أيضًا فى أخـبار المهـدى قوله : المهدى مـولده بالمدينة ، من أهل بيت النبى ﷺ ، واسمه اسم النبـى ﷺ ومهاجره بيت المقدس ، كث اللحـية ،أكحل العينين ، براق الثنايا ، في وجهه خال ، فى كتفه علامة النبى ، يخرج براية النبى ﷺ من مرط مـعلمة سوداء مـربعة لم تنشر منذ توفى رسـول الله ﷺ ولا تنشر حـتى يخـرج المهـدى ، يمده الله بثـلاثة الآف من الملائكة، يضـربون وجـوه من خالفهم وأدبارهم، يبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

وفى زمانه يحج الناس ويقفون بعرفات ، وهم على غير إمام ، فبينما هم نزول بمنى ، إذ أخـذهم كالكَلَب « داء للكلب مـعروف» فـثارت القبـائل بعضـهـم إلى بعض، فاقتتلوا حتى تسيل العقبة دمًا فـيفزعون إلى خيرهم فيأتونه ، وهو ملصق وجهه إلى الكعبة يبكى ،كأنى أنظر إلى دموعه ، فيقولون : هلم إلينا فلنبايعك ، فيقول: ويحكم كم من عـهد نقضتموه ، وكم من دم سفكتمـوه ، فيبايع كرهًا ، فإن أدركتمـوه فبايعوه ، فإنه المهدى فى الأرض والمهـدى فى السماء وهوالذى يؤم عيسى ابن مريم عليه السلام .

يبايعه أول ما يبايعـه سبعة من علماء الأمة من أفق شتى ، اجتـمعوا على غير

(١) تفرد به أحمد من هذا الوجه .

ميعاد لمبايعة المهدى فيبايعونه وهو كاره لذلك ، يفر منهم أكثر من مرة حتى يقولون له : إثمنا عليك ودماؤنا فى عنقك إن لم تمد يدك نبايعك ، فيجلس بين الركن والمقام ، فيمد يده فيبايع له ، فيلقى الله محبته فى صدور الناس، فيصير مع قوم أُسُدٌ بالنهار ، ورهبان بالليل .

ثم تخرج رايات سود لبنى العباس ، ثم تخرج من خراسان أخرى سود ، قلانسهم سود وثيابهم بيض على مقدمتهم رجل يقال له شعيب بن صالح من تميم،يهزمون أصحاب السفيانى حتى ينزل بيت المقدس يوطىء للمهدى سلطانه ويمد إليه ثلاثمائة من الشام ، يكون بين خروجه وبين أن يسلم الأمر للمهدى اثنان وسبعون شهراً [1].

وهناك آثار عن الصحابة والتابعين وأتباعهم ، رأينا أن نتركها استغناء عنها بما ذكرنا.

***

(١) أخرجه نعيم بن حماد فى كتاب الفتن ، بتصرف ، ولعل هذا مأخوذ من مجموع أحاديث عن المهدى ، ولا أستطيع الجزم بصحة كل ما قاله .

فموجز علامات الساعة الصغرى هي :

(أ) ما ظهـــر منها :

١ - بعثة النبي ﷺ .
٢ - انشقاق القمر .
٣ - موت النبي ﷺ .
٤ - الخلافة ثلاثون عامًا.
٥ - اقتتال فئتين من الصحابة .
٦ - كثرة القتل .
٧ - افتتاح المسجد الأقصى .
٨ - خروج نار من أرض الحجاز .
٩ - غربة الإسلام .
١٠ - فرقة الأمة .
١١ - البعد عن الهدى .
١٢ - الدعوة إلى الضلال .
١٣ - ترك الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر .
١٤ - جـعل المعـروف منكرًا ، والمنكر معروفًا .
١٥ - تجـديد أمـر الدين على رأس كل مائة سنة .
١٦ - ظهور طائفة بالحق إلى يوم الدين
١٧ - رفع العلم ، أو ندرته .
١٨ - ظهور الجهل وفشوه .
١٩ - فشو الزنا وكثرته .
٢٠ - شرب الخمر بغير اسمه .
٢١ - كثرة النساء على الرجال .
٢٢ - قوامة النساء على الرجال .
٢٣ - كثرة الطاعون والأمراض .
٢٤ - انتشار المجاعة وشدة المؤونة .
٢٥ - جور السلطان .
٢٦ -قيادة السفيه ، وزعامة الأراذل .
٢٧ - تولى الرويبـــضـــة الفــاسق أمــر الناس.
٢٨ - تعذيب أهل الإيمان بالسياط .
٢٩ - خروج النساء كاسيات عاريات .
٣٠ - منع زكاة الأموال .
٣١ - نقص المكيال والميزان .
٣٢ - نقض عهد الله وعهد رسوله .
٣٣ - تسلط العدو على المسلمين .
٣٤- شدة البأس بين المسلمين .
٣٥ - احتلال العدو لأرضنا .
٣٦ - انتهاك الكفار لعرضنا .

٣٧ -أخذ اليهود لبعض ما في أيدينا .
٣٨ - سلب بعض مقدساتنا .
٣٩ - إذا اتخذ الفيء « الخير » دولاً .
٤٠ - اتخاذ الأمانة مغنما .
٤١ - وجعل الزكاة مغرما ودينا ثقيلا .
٤٢ - تعلم العلم لغير الدين .
٤٣ - طاعة الرجل لامرأته مع عقوق أمه
٤٤ - قرب الصديق مع البعد عن الأب
٤٥ - كثرة الأصوات في المساجد وارتفاعها .
٤٦ - إكرام الرجل مخافة شره .
٤٧ - كثرة المغنيات والراقصات .
٤٨ - انتشار الغناء والمعازف .
٤٩ - سب السلف الصالح
٥٠ - ظهور الريح الحمراء .
٥١ - كثرة الزلازل .
٥٢ - كثرة الخسف والمسخ والقذف .
٥٣ - التصديق بالنجوم .
٥٤ - التكذيب بالقدر .
٥٥ - كثرة الشُرَط .
٥٦ - بيع الحكم .
٥٧ - استخفاف الذمم .
٥٨ - قطيعة الرحم .
٥٩ - اتخاذ القرآن مزامير للتلهي والتطريب .
٦٠ - كثرة القراء وقلة الفقهاء .
٦١ - زخرفة المساجد والتباهي بها .
٦٢ - تزيين المحاريب وزخرفتها .
٦٣ - تزيين المصاحف وكثرتها .
٦٤ - كثرةالفتن كوقع المطر .
٦٥ - تقارب الزمان ومحو بركته .
٦٦ - كثرة الشح والبخل .
٦٧ - انتشار الشر وزيادته عما كان قبله
٦٨ - أن يحسد الحي الميت لكثرة الفتن
٦٩ - فتح العراق ، ومجيء خير منها ثم تمنعه .
٧٠ - فتح الشام ومجيء خير منها ثم تمنعه .
٧١ - فتح مصر ومجيء خير منها للحجاز ثم تمنعه .
٧٢ - تداعي الأمم على المسلمين .
٧٣ - كثرة المسلمين مع الوهن والضعف .
٧٤ - انتشار حب الدنيا وخوف الموت.
٧٥ - كراهية القتال ، وترك الجهاد .
٧٦ - لا يأمن الرجل جليسه .

٧٧ – انقلاب الأمور وانعكاس المعايير.

٧٨ – أن تلد الأمة ربتها .

٧٩ – تطاول الحفاة العراة فى البنيان .

٨٠ – كثرة المال حتى يسخط الرجل العشرة الآف .

٨١ – وجود من يدعى النبوة حتى الثلاثين .

٨٢ – وجود دعاة إلى النار .

٨٣ – تكذيب الصادق وتصديق الكاذب.

٨٤ – خيانة الأمين وائتمان الخائن .

٨٥ – سادة الدنيا هم اللئام واللكع .

٨٦ – إذا وسد الأمر إلى غير أهله .

٨٧ – غياب العقول ونقص الأحلام .

٨٨ – تسليم الخاصة .

٨٩ – فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها .

٩٠ – كثرة شهادة الزور .

٩١ – كتمان شهادة الحق .

٩٢ – رفع الشريعة من أهل الأرض .

٩٣ – كثرة الرعاع الذين يتبعون كل ناعق .

٩٤ – قتال الترك .

٩٥ – لا يوجد من يتقدم للإمامة من الجمع الكثير .

٩٦ – إذا ضاعت الأمانة .

٩٧ – إذا مرجت العهود ، وخلفت الوعود .

٩٨ – فتح القسطنطينية .

٩٩ – انتشار الزراعة فى أرض الحجاز.

١٠٠ – بيع الدين بعرض من الدنيا .

١٠١ – اختلاط الحرام بالحلال .

١٠٢ – من لم يصب بنار الربا أصيب بدخانه وشرره .

١٠٣ – استحلال الزنا والغنا والخنا .

١٠٤ – استحلال الذهب والحرير للرجال .

١٠٥ – فصل الدين عن الدولة .

١٠٦ – ظهور السيارات والقطارات والطائرات .

١٠٧ – وجود أشباه الرجال .

١٠٨ – أكل أموال الناس بالباطل .

١٠٩ – عودة الحياة لبدأيتها .

١١٠ – الحروب بالسيوف والخيول ، كما فى الأحاديث .

١١١ – استيلاء الحرام على أموال الخلق

١١٢ - إماتة الصلاة .

١١٣ - طلب الدنيا بعمل الآخرة .

١١٤ - ذهاب الخشوع .

ما لم يظهر منها بعد :

١ - فتح رومية « روما » .

٢ - غدر الروم وقتالهم تحت ثمانين راية فى كل راية اثنا عشر ألفًا .

٣ - فتح بيت المقدس ، مرة ثانية .

٤ - فتح القسطنطينية مرة ثانية .

٥ - فتنة تدخل كل بيت .

٦ - فتنة تصيب العرب ، قتلاها فى النار .

٧ - وجود أنهار فى أرض الحجاز .

٨ - انحسار الفرات عن جبل من ذهب وتكون عنده مقتلة عظيمة .

٩ - خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه .

١٠ - تخريب الكعبة على يد ذى السويقتين .

١١ - خروج الناس من الدين أفواجًا .

١٢ - عودة مظاهر الوثنية فى هذه الأمة

١٣ - ثم انتشار الاسلام وبلوغه كل الأرض .

١٤ - كثرة الحروب بين يدى الساعة .

١٥ - فتنة الأحلاس بالحرب والهرب .

١٦ - فتنة السراء بالنعمة ووفرة المال .

١٧ - فتنة الدهيماء التى تعم .

١٨ - كثرة الصواعق عند اقتراب الساعة .

١٩ - مقاتلة اليهود حتى ينطق الشجر والحجر.

٢٠ - عدم حج بيت الله الحرام .

٢١ - كثرة القذف بالحجارة .

٢٢ - وجود المسخ فى الناس قردة وخنازير .

٢٣ - ظهور المهدى .

ثانيًا : علامات الساعة الكبرى

وهى العلامات التى تسبق زلزلة الساعة ،ويعجب لها الناس ،كما تتوالى فى أغلبها وأهمها:

١ - خروج المسيح الدجال

٢ - نزول عيسى بن مريم

٣ - خروج يأجوج ومأجوج

٤ - نزول دخان من السماء

٥ - طلوع الشمس من مغربها

٦ -خروج الدابة على الناس ضحى

٧ - محو القرآن من الصدور والسطور

٨ - مجىء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين

٩ ، ١١،١٠ - ثلاثة خسوف عظيمة ،بالمشرق والمغرب ،وجزيرة العرب .

١٢- خروج نار من أرض المشرق تسوق الناس إلى أرض المحشر

وقد ورد جل هذه العلامات فى حديث واحد للنبى ﷺ . عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال :« لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات :طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسفًا بالمغرب وخسفًا بالمشرق وخسفًا بجزيرة العرب ، ونارا تخرج من قعر عدن تسوق النـاس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » [1] .

---

(١) رواه الإمام مسلم والترمذى واحمد

وأما علامة محو القرآن ، فقد وردت فى قوله ﷺ : « ويسرى النسيان على الكتاب فى ليلة ، فلا يبقى فى الأرض منه آية . . ثم يعود القرآن من حيث جاء، وله دوى عند العرش»[١] .

أما علامة الريح الطيبة ، فقد قال ﷺ فى الحديث : «.... ثم تأتى ريح طيبة من تحت آباط المؤمنين فيموتون كنفس واحدة »[٢] .

وقال أيضًا : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس »[٣] وكذلك : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض لا إله إلا الله »[٤] و فى رواية « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » [٥]

وأما تفصيل القول فى هذه العلامات ،فهو على النحو التالى : نقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : خروج المسيح الدجال

(أ) أمور تسبق الدجال :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق [٦] فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون ، والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا ، فيفتحون قسطنطينية ، فبينما يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون

(١) رواه ابن ماجة بسند صحيح
(٢) رواه الامام مسلم
(٣) رواه مسلم وأحمد
(٤) رواه مسلم وأحمد
(٥) رواه مسلم والترمذى وأحمد
(٦) الاعماق ودابق موضعان فى بلاد سوريا قرب حلب .

وذاك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج فبينما يعدون للقتال ويسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى ابن مريم فأمهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته»(١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: سمعتم بمدينة جانب منها فى البر وجانب منها فى البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بنى إسحاق فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم وإنما قالوا « لا إله إلا الله والله أكبر » فيسقط أحد جانبيها -قال ثور : ولا أعلمه إلا قال الذى فى البحر - ثم يقولوا الثانية « لا إله إلا الله والله أكبر » فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولوا الثالثة « لا إله إلا الله ، والله أكبر» فيفرج لهم فيدخلون فيغنمون فبينما هم يقسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج فيتركون كل شىء ويرجعون » (٢) .

وقال ﷺ :« تغزون جزيرة البحر فيفتحها الله ، ثم فارس فيفتحها الله ،ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »(٣) .

وقال ﷺ :« عمران بيت المقدس خراب يثرب ،وخروج الملحمة فتح القسطنطينية،وفتح القسطنطينية خروج الدجال،قال ثم ضرب بيده على فخذ الذى حدثه أو منكبه ثم قال :« إن هذا الحق مثل ما إنك هاهنا ، أو كما أنك قاعد »(٤).

وقام ﷺ خطيبًا فتكلم عن مسيلمة ، قال : أما بعد ، ففى بيان هذا الرجل الذي قد أكثرتم فيه ، أنه كذاب من ثلاثين كذابًا يخرجون بين يدى الساعة ، وأنه ليس بلد إلا يبلغها رعب المسيح » (٥)

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه ابو داود
(٥) رواه أحمد

وقوله ﷺ كما سبق : « إن أمام الدجال سنين خداعة يُكذَّب فيها الصادق ويُصدَّق فيها الكاذب فَيُخَوَّن فيها الأمين ويؤتمن الخائن ويتكلم فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة »[1] .

(ب) من هو المسيح الدجال ؟

هو رجل من بني آدم ، خلقه الله تعالى ليكون محنة للناس في آخر الزمان ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2]

حتى حذر منه « نوح » عليه السلام ثم يؤذن له في الخروج بين يدي الساعة في آخر الزمان بعد فتح المسلمين مدينة الروم المسماة بقسطنطينية ، فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة منها يقال لها اليهودية وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي عليهم الأسلحة والتيجان ، وكذلك ينصره سبعون ألفًا من التتار ، وخلق من أهل خراسان ، فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ، ثم يدعي النبوة ثم يدعي الربوبية فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم والطغام من الرعاع والعوام ، ويخالفه ويرد عليه من هدى الله من عباده الصالحين وحزب الله المتقين .

يأخذ البلاد بلدًا بلدًا وحصنًا حصنًا وإقليمًا إقليمًا ، ولا يبقى بلد من البلاد إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة ،ومدة مقامه في الأرض أربعون يومًا ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيام الناس هذه ، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف شهر، هذا وصفته أنه رجل عظيم الخلقة ، قبيح المنظر أعور العين، مكتوب على جبينه « كافر » .

وقد خلق الله تعالى على يديه خوارق كثيرة ، يضل بها من يشاء من خلقه ويثبت معها المؤمنون ، فيزدادون بها إيمانًا مع إيمانهم ، وهدى إلى هداهم .

(١) رواه أحمد بإسناد جيد .

ويكون نزول « عيسى ابن مريم » مسيح الهدى - فى أيام المسيح الدجّال - مسيح الضلالة - على المنارة الشرقية بدمشق ، فيجتمع عليه المؤمنون ، ويلتف به عباد الله المتقون ، فيسير بهم المسيح عيسى ابن مريم ، قاصدًا نحو الدجال ، وقد توجه نحو بيت المقدس فيدركهم عند عقبة « أفيق » فينهزم منه الدجال ، فيلحقه عند مدينة باب لد ، فيقتله بحربته ، وهو داخل إليها ويقول إن لى فيك ضربة لن تفوتنى ، وإذا واجه الدجال ينماع « يذوب » كما يذوب الملح فى الماء فيتداركه ، فيقتله بالحربة بباب لد فتكون وفاته هناك ، لعنه الله [1] كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه ، كما سنذكره إن شاء الله .

(جـ) أول أمر الدجال :

وخرج الإمام مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت :« . . سمعت المنادى - منادى رسول الله ﷺ - ينادى الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصلّيت مع رسول الله ﷺ فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : ليلزم كل إنسان مصلاه ، ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن لأن تميمًا الداوى كان رجلاً نصرانيًا فجاء فبايع وأسلم وحدثنى حديثًا وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال .حدثنى أنه ركب البحر فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهرًا فى البحر ، ثم أرسوا إلى جزيرة فى البحر حيث تغرب الشمس فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيهم شىء أهلب ، كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا : ويلك ما أنت ؟ قالت: أنا الجساسة ، قالوا: وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل بالدير فإنّه إلى خبركم

(١) نهاية الفتن والملاحم لابن كثير حـ١ ص١٧٢ - ١٧٤ بتصرف

بالأشـواق ، قال : فلمـا سمت لنا رجـلاً فرقنا منهـا أن تكون شيطانـة ، قال : فانطلـقنا سراعًا حتى دخلـنا الدير فإذا فيـه أعظم إنسان رأيناه قـط خلقًا ، وأشده وثاقًا ، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد قلنا ويلك ما أنت؟ قال : قـد قدرتم على خبـرى فأخبـرونى ما أنتم ؟ قالـوا :نحن أناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم « هاج » فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا « ألجأنا » إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا فى أقربها ، فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعر ، ما ندرى مـا قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا ويلك ما أنت ؟ فقـالت : أنا الجساسة ، قالت : اعمـدوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليكم سراعًا وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة .

فقـال : أخبرونى عن نخل بيسـان ؟ فقلنا : عن أى شأنهـا تستخبـر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا له : نعم ، قال :أما إنه يوشك أن لا يثمر .

قال : أخبرونى عن بحيرة الطبرية ؟ قلنا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هى كثيرة الماء ، قال : إن ماءها يوشك أن يذهب .

قال : أخبـرونى عن عين زُغَر ؟ قالوا : عن أى شأنها تستخـبر ؟ قال هل فى العين مـاء؟ وهل يزرع أهلهـا بماء العين ؟ قلنا له : نعم هى كـثيرة الماء وأهلهـا يزرعون من مائها.

قال : أخبرونى عن نبى الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل بيثرب: قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيـف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العـرب وأطاعوه قال : قال لهم : قـد كان ذاك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إنه خير لهم أن يطيعوه،وإنى مخبركم عنى،إنى أنا المسيح ، وإنى يوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخـرج فأسير فى الأرض فلا أدع قـرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة فهما مـحرمتان على كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل

واحدة أو إحداهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتًا « صقيلاً ماضيًا » يصدنى عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قال : قال رسول الله ﷺ - وطعن بمخصرته فى المنبر - هذه طيبة - يعنى المدينة ، ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم ، قال : إنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ،ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ، وأومأ بيده إلى المشرق .

قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ [1] .

(د) صفة الدجال :

عن عبد الله بن عمر قال : قام رسول الله ﷺ فى الناس ، فأثنى على الله بما هو له أهل ، ثم ذكر الدجال فقال :« إنى لأنذركموه ، ما من نبى إلا وقد أنذر قومه ، لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومه ، تعلموا أنه أعور وإن الله ليس بأعور » [2]

كما قال ﷺ عنه « إنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن ، وقال : تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت»[3] .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرانى الناس فقال :«إن الله ليس بأعور،ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية» [4]

وقال ﷺ :« ما من نبى إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر » [5] .

وقال ﷺ : « الدجال ممسوح العين ، مكتوب بين عينيه كافر ، ثم تهجاها :

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم وأحمد
(٤) رواه مسلم
(٥) رواه البخاري ومسلم

كافر ، يقرؤها كل مسلم »(١) .

وقال ﷺ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأى العين ماء أبيض والآخر رأى العين نار تأجج فإما أدركن أحدكم فليأت الذى رآه نارًا ، وليغمض ثم ليطأطىء رأسه فيشرب فإنه ماء بارد ، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب »(٢) .

وقال ﷺ : « ألا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدثه نبى قومه ، إنه أعور ، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتى يقول إنها الجنة هى النار وأنى أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه » (٣) .

(هـ) خروج الدجال :

قال ﷺ : « يخرج الدجال فى خفة من الدين وإدبار من العلم ، وله أربعون ليلة يسبحها فى الأرض ،اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه ، وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعًا فيقول للناس أنا ربكم ، وهو أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كَفَرَ بهجاء يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ، يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة ، حرمهما الله عليه ، وقامت الملائكة بأبوابهما ومعه جبال من خبز ، والناس فى جهد إلا من اتبعه ، ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول له الجنة ونهر يقول له النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهى النار ومن أدخل الذى يسميه النار فهى الجنة ، قال : وسمعت معه شياطين تكلم الناس ، ومعه فتنة عظيمة ، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفسًا ثم يحييها

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه مسلم عن حذيفة

(٣) رواه مسلم

فيما يرى الناس ، ويقول للناس : هل يفعل مثل هذا إلا الرب ؟ قال : فيفد المسلمون إلى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيحاصرهم فيشدد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً ، ثم ينزل عيسى ابن مريم فينا من السَّحر ، فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ، فيقولون : هذا رجل حى فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم فتقام الصلاة فيقال له : تقدم يا روح الله فيقول : ليتقدم إمامكم ليصلي بكم فإذا صلوا صلاة الصبح خرجوا إليه قال :فحين يراه الكذاب، ينماث « يذوب » كما ينماث الملح فى الماء فيمشى إليه فيقتله ، حتى إن الشجرة والحجر ينادى ياروح الله هذا يهودى ، فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله »[1].

وعن أبى أمامة الباهلى قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته حديثًا حدثناه عن الدجال وحذرناه ، فكان من قوله أن قال :« إنه لم تكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال ، وإن الله لم يبعث نبيًا إلا حذر من الدجال ، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج لكل مسلم ، وإن يخرج من بعدى فكلٌ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيعيث يمينًا وشمالاً ، ياعباد الله أيها الناس فاثبتوا وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبى قبلى ، إنه يبدأ فيقول : أنا نبى ولا نبى بعدى ، ثم يثنى فيقول: أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا . وإنه أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة ونارًا ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردًا وسلامًا كما كانت النار على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول لأعرابى أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أنى ربك؟ فيقول له : نعم فيتمثل له شيطانان فى صورة أبيه وأمه فيقولان : يابنى اتبعه فإنه

(١) رواه أحمد وتفرد به .

ربك . وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها ينشرها بالمنشار ثم يلقيها شقتين ، ثم يقول انظروا إلى عبدى فإنى أبتعثه الآن ، ثم يزعم أن له ربًا غيرى ، فيبعثه الله ، فيقول له الخبيث من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم .

ثم قال ﷺ : ذاك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة .

قال : ومن فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت .وإن من فتنته أن يمر بالحى فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتنته أن يمر بالحى فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، حتى تروح عليهم مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر ، وأدره ضروعًا ، وإنه لا يبقى من الأرض شيئًا إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة حتى ينزل عند الطريب الأحمر عند منقطع السبخة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينفى الخبث منها كما ينفى الكير خبث الحديد ، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص .

فقالت أم شريك ابنة أبى العسكر : يارسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل ، وجلهم ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم فصلى الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم ، فرجع ذلك الإمام يمشى القهقرى، ليتقدم بهم عيسى يصلى ، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ، فيقول له : تقدم فصل فإنها لك أقيمت ، فيصلى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : أقيموا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، وينطلق هاربًا ، ويقول عيسى : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها ، فيدركه عند

باب الدار الشرقى فيقتله ، فيهـزم الله اليهود فلا يبقى شيء بها خلق الله يتوارى به يهودى إلا أنطق الله الشيء لا حـجر ولا شجر ولا حائـط ولادابة - إلا الغرقدة فإنهـا من شجـرهم لا تنطق - إلا قال : ياعـبد الله المسلم ، هذا يهـودى فتـعال فاقتله . . » الحديث بتمامه (١) .

وقال ﷺ :« يخـرج الدجال من يهودية أصبـهان معـه سبعون ألفًا من اليـهود عليهم التيجان » (٢)

وقال ﷺ :« إن الدجال يخرج فى أرض بالمشرق يقال لهـا خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة » (٣)

وقال ﷺ :« ينزل الدجـال فى هذه السبـخة فيكون أكـثر من يخـرج إليه من النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى زوجه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا مخافة أن تخرج إليه فيسلط الله المسلمين عليه ، فـيقتلونه ويقتلون شيعته حتى إن اليهودى ليختـبىء تحت الشجرة والحجر فيقول الحجـر والشجرة للمسلمين : هذا يهودى تحتى فاقتله » (٤) .

(و) لماذا لم يذكر الدجال صراحة في القرآن الكريم ؟

ولعل سـائلاً يسأل : مـا الحكمة فى أن الدجـال - مع كثـرة شره وفـجوره ، وانتـشار أمـره وشدة خطره وعظيم فـتنتـه ودعواه الربوبيـة ، وهو فى ذلك ظاهر الكذب والافتـراء وقد حذر منه جمـيع الأنبياء - لم يذكر فى القـرآن ويحذر منه ويصرح باسمه وينوه بكذبه وعناده ؟

(١) رواه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى . رقم ٤٠٧٧

(٢) رواه أحمد

(٣) رواه احمد والترمذى وابن ماجة

(٤) رواه أحمد

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه قد أشير إلى ذكره في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾(1)

جاء فى تفسيرها ما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه ،عن النبى ﷺ قال : « ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا : الدجال ، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها » (2)

الثانى : أن عيسى ابن مريم ينزل من السماء الدنيا فيقتل الدجال ، كما تقدم وكما سيأتى وقد ذكر فى القرآن نزوله فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾(3)

وقد قررنا فى التفسير أن الضمير فى قوله « قبل موته » عائد على عيسى ، أى سينزل إلى الأرض ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافًا متباينًا ، فمن مدعى الإلهية كالنصارى،ومن قائل فيه قولاً عظيمًا وهو أنه ولد ريبة وهم اليهود، فإذا نزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه فيه من الافتراء .

وعلى هذا فيكون ذكر نزول عيس ابن مريم ،إشارة إلى ذكر المسيح الدجال

(1) سورة الأنعام ، آية ١٥٨

(2) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح

(3) سورة النساء ، آية ١٥٩

مسيح الضلال ، وهو ضد مسيح الهدى ، ومن عادة العرب أنها تكتفى بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر ، كما هو مقرر فى موضعه .

الثالث : أنه لم يذكر بصريح اسمه فى القرآن احتقارًا له حيث يدعي الإلهية ، وهو ليس ينافس حالة جلال الرب وعظمته وكبريائه وتنزيهه عن النقص ، فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر ، وأصغر وأقصر من أن يحكى عن أمر دعواه ويحذر ، ولكن انتصر الرسل بجناب الرب عز وجل فكشفوا لأممهم عن أمره ، وحذروهم مما معه من الفتن المضلة والخوارق المضمحلة ، فاكتفى بإخبار الأنبياء وتواتر ذلك عن سيد ولد آدم إمام الأتقياء ، عن أن يذكر أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله فى القرآن العظيم ، ووكل بيان أمره إلى كل نبى كريم .

فإن قلت : فقد ذكر فرعون فى القرآن ، وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان حيث قال :

﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]

وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾[2]

والجواب : أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن وعاقل ، وهذا أمر سيأتى وكائن فيما يستقبل فتنة واختبارًا للعباد فترك ذكره فى القرآن احتقارًا له وامتحانًا به ، إذ الأمر فى كذبه أظهر من أن ينبه عليه ويحذر منه - وقد يترك الشيء لوضوحه ، فترك الله ذكره والنص عليه لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين أن مثل هذا لا يهديهم ولا يزيدهم إلا إيمانًا وتسليمًا لله ورسوله وتصديقًا بالحق وردًا للباطل »[3].

---

(١) سورة النازعات ، آية ٢٤

(٢) سورة القصص ، آية ٣٨

(٣) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير ج١ ص١٦٦ - ١٦٩ بتصرف

(ز) ذكر ما يعصم من الدجال :

١ - الاستعاذة المخلصة بالله تعصم من فتنة الدجال : كما جاء فى الأحاديث الصحاح من غير وجه أن الرسول ﷺ كان يتعوذ من فتنة الدجال فى الصلاة ، وأنه أمر أمته بذلك أيضًا فقال ﷺ :« اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن فتنة القبر ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » [١].

٢ - حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف حفظًا عمليـاً يعصم من فتنة الدجال . كما قال ﷺ :« من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»[٢]

ذكر فى بعض الروايات « أنها من أول سورة الكهف »[٣] وذكر فى بعضها «أنها من خواتيم سورة الكهف »[٤] .

٣ - سكن المدينة ومكة المشرفتين تعصم من فتنة الدجال : كماقال ﷺ :« على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » [٥] وقد ثبت فى الصحيح «أنه لا يدخل مكة ولا المدينة تمنعه الملائكة » [٦] لأنهما حرمان آمنان منه[٧]

ثانيًا : نزول عيسى ابن مريم

(أ) ما الدليل على نزول عيسى ابن مريم ؟

أولاً : قول الله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) رواه ابو داود
(٣) رواه مسلم والترمذى .
(٤) رواه ابو داود
(٥) رواه البخارى ومسلم
(٦) رواه البخاري
(٧) نهاية الفتن والملاحم ج١ ص١٦٩ - ١٧٢ بتصرف

صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[1]

قال ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس قال : قبل موت عيسى ابن مريم وهذا إسناد صحيح .

ثانيًا : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[2]

وقد جاء في تفسير « وإنه لعلم للساعة» أنه عيسى يكون علامة من علامات الساعة بنزوله قبل موته وفي قراءة «وإنه لَعَلَم للساعة» ولا دلالة لهذا المعنى إلا بنزول عيسى عليه السلام .

ثالثًا : ما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتىٰ تكون السجدة خير من الدنيا وما فيها .

---

(١) سورة النساء ، آية ١٥٧ - ١٥٩

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٥٧ - ٦١

ثم يقول أبو هريرة : « واقرءوا إن شئتم

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ »[1] .

وفى رواية قال ﷺ : « يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً ، يقتل الدجال ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية، ويفيض المال ، وتكون السجدة الواحدة لرب العالمين خيرًا من الدنيا وما فيها »، قال أبو هريرة : «واقرءوا إن شئتم

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

موت عيسى ابن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات »[2]

رابعًا : روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل فيكم عيسى ابن مريم وإمامكم منكم »[3] .

خامسًا : قال ﷺ : « الأنبياء إخوة علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبى وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، إنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر ماء وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله فى زمانه الأمم كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ،ثم تقع الأمنة على الأرض ، حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون »[4] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٢) رواه ابن مردويه

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٤) رواه احمد وأبو داود بنحوه بإسناد جيد قوى

وقال ﷺ : « ليمكثن عيسى ابن مريم بالروحاء فيقومن منها بالحج أو بالعمرة أو ثنتيهما جميعًا »[1] .

وقال ﷺ : « ينزل ابن مريم إمامًا عادلاً ، وحكمًا مقسطًا ، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويرجع السلم ، ويتخذ السيوف مناجل ، ويذهب جمة كل ذات جمة ، وينزل من السماء رزقها ، وتخرج من الأرض بركتها ، حتى يلعب الصبى بالثعبان ولا يضره ، وترعى الغنم والذئب ولا يضرها ، ويرعى الأسد والبقرة ولا يضرها »[2] .

(ب) هل مات عيسى عليه السلام أو رفع حياً إلى السماء ؟

قال أبو مالك :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

ذلك عند نزول عيسى ابن مريم وإنه الآن حى عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعين . رواه ابن جرير.

وروى ابن أبى حاتم عنه أن رجلاً سأل الحسن عن قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

فقال قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى ، وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البر والفاجر .

وهكذا قال قتادة بن دعامة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد ، وهو ثابت فى الصحيحين عن أبى هريرة .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) تفرد به أحمد وإسناده جيد قوى صالح

والمقصود من السياق الإخبار بحياته الآن فى السماء وليس كمايزعمه أهل الكتاب الجهلة أنهم صلبوه بل رفعه الله إليه ، ثم ينزل من السماء قبل يوم القيامة،كما دلت عليه الأحاديث المتواترة مما سبق ومما سيأتى أيضًا .

وقد روى عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير فى قوله « قبل موته » على أهل الكتاب ، وذلك لو صح لكان منافيًا لهذا ، ولكن الصحيح من المعنى والإسناد ما ذكرناه وقد قررناه بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة »[1] .

***

(١) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص١٨٣ بتصرف .

(ج) متى ينزل وكيف وأين ؟

أما متى ينزل ؟ فبعد خروج الدجال

وكيف ينزل ؟ على أجنحة ملكين فى ثوبين مصبوغين

وأين ينزل ؟ عند المنارة البيضاء شرقى دمشق

وإليك الدليل حديث لرسول الله ﷺ تحدث فيه عن الدجال ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع « أى حقر من شأنه وعظم من أمر فتنته » حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال ما شأنكم ؟ قلنا يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال :

« غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتى على كل امرىء مسلم، إنه شاب قطط « شعره مجعد » عينه طافية ، إنى أشبهه بعبد العزى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج فى خلة بين الشام والعراق، فعاثث يمينًا وعاثث شمالاً ياعباد الله فاثبتوا، قلنا يارسول الله وما لبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يومًا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يارسول الله : فذلك اليوم الذى كسنة أتكفنا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ، قلنا : يارسول الله ، وما إسراعه فى الأرض؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعًا وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم من أموالهم شىء ، ويمر بالخربة

فيقول أخرجى كنوزك فـتتبعه كنوزها كيعاسـيب النحل « جماعات النحل »، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين « قطعتين » رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهـه وهو يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق فى مهروذتين « ثوبين مصبوغين » واضعا كـفيه على أجنحة ملكـين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحـدر منه جمان كاللؤلؤ ، ولا يحل « لا يمكن » لـكافر يجد ريح نفســه إلا مات ، ونفســه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركـه بباب لُدٍّ « قرب المقدس » فيقتله ، ثم يأتى عيسى ابن مريم قومًا قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم عن درجاتهم فى الجنة ، فبـينما هـو كذلـك إذ أوحى اللـه تعالى إلى عـيسـى إنى قد أخرجـت عبادًا لى لا يـدان « لا قـدرة » لأحد بقتالهم ، فحـرز « ضم » عبادى إلى الطور ، ويبـعث الله يأجوج ومـأجوج وهم من كل حـدب ينسلون ، فيـمر أوائلهم على بحيرة الطبـرية فيشربون ما فيـها ويمر آخرهم فيقولون لقـد كان بهذه مرة ماء ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليـوم ، فيرغب نبى الله عيسى وأصحـابه إلى الله فيرسل الله إليهم النغف « دود يكـون فى أنوف الإبل والغنم » فى رقابهم فيـصبحـون فرسى «قتلى» كمـوت نفس واحدة ، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصـحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملأه زهمهـم « نتن رائحتهم الكريهة » ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل اللـه طيرًا كأعناق البخت فتطرحهم حيث شـاء الله ، ثـم يرسل الله مطرًا لا يكـن منه «لا يمتنع منه » بـيت مـدر ولا وبر فيغسل الله الأرض حـتى يتركهاكالزلفة « المرآة »، ثم يقـال للأرض أنبتى ثمرتك وردى بركتك ، فيومئـذ تأكل العصابة « الجماعة » من الرمانة ويستـظلون بقحفها «مقعـر قشرة الرمانة » ويبـارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكـفى الفئام «الجمـاعة الكثـيرة » من الـناس ، واللقحـة من البقـر لتكفى القبـيلة من الناس

واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر « يرتكبون الفاحشة على ملأ من الناس بلا استحياء فعل الحمر»فعليهم تقوم الساعة » (١) .

وفي الحديث أيضًا عن ابن مسعود في اجتماع الأنبياء يعني « محمد وإبراهيم وموسى وعيسى » عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وتذاكرهم أمر الساعة وردهم إلى عيسى ، وقوله :« أما حينها فلا يعلم به إلا الله ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ومعه قضيبان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر ليقول : يامسلم إن تحتي كافرًا ، فتعال فاقتله، قال : فيهلكهم الله ، ويرجع الناس إلى أوطانهم ، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم ، لا يمرون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس يشكونهم ، فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله ويميتهم حتى تمتلىء الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إلى ربي أن ذاك إذا كان كذلك ، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهارًا » (٢) .

***

(١) رواه مسلم وابن ماجة

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجة بنحوه

ثالثًا : خروج يأجوج ومأجوج

(أ) ما الدليل على خروج يأجوج ومأجوج ؟

قال تعالى في قصة ذي القرنين :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[١]

(١) سورة الكهف ، الآية ٩٢ - ٩٩

وقد ذكر فى التفسير فى قصة ذى القرنين وخبر بنائه للسد من حديد ونحاس بين جبلين فصار ردمًا واحدًا ، وقال : هذا رحمة من ربى أن يحجز به بين هؤلاء القوم المفسدين فى الأرض وبين الناس ، فإذا جاء وعد ربى أى الوقت الذى قدر انهدامه فيه جعله دكًا أى مساويًا للأرض وكان وعد ربى حقًا أى وهذا شيء لابد من كونه ، وتركنا بعضهم يموج فى بعض،يعنى بذلك يوم انهدامه حين يخرجون على الناس فيمرحون فيهم وينسلون ، أى يسرعون المشى من كل حدب ، ثم يكون النفخ فى الصور للفزع قريبًا من ذلك الوقت ، كما قال فى الآية الأخرى[1]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[2]

ومن السنة ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش: « أن رسول الله ﷺ نام عندها ثم استيقظ محمرًا وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ،ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بين أصبعين وفى رواية : وعقد سبعين أو تسعين ، قالت : قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث »[3].

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣.

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩٦ ، ٩٧

(٣) رواه البخارى ومسلم .

يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم: اغدوا فستحفرون غدًا إن شاء الله ويستثنى «يقول ان شاء الله » فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون « يجففون الماء» ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيبعث الله عليهم نغفًا « نوع من الدود» فى أقفائهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً « تسمن وتمتلىء» من لحومهم ودمائهم » (١)

كما قال ﷺ :«تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى :

﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾

فيخش « ينطلق خائفًا » الناس ، وينحازون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم ، فيضربون ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هاهنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ فى حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقى أهل السماء ، قال ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليهم مخضبة دماء للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عليهم داء فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى لنا نفسه « يبيعها » فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال: فينجرد « يبرز » رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها «حملها» على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى : يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم ، فما

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة من غير وجه

يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته»[1] .

وقال ﷺ : « سيوقد الناس من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وتروسهم سبع سنين »[2] .

***

(١) رواه أحمد وابن ماجه بإسناد جيد

(٢) رواه ابن ماجة وغيره .

رابعًا : نزول الدخان من السماء :

الذى يكون قبل يوم القيامة .

قال تعالى :

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[1]

وكما قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ، وذكر الدخان » «الحديث»[2] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثًا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال »[3] .

وعن على رضى الله عنه قال : « لم تمض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وتنفخ الكافر حتى ينفد » هذا وقد وردت آثار عن الصحابة والتابعين

(١) سورة الدخان الآية ١٠ - ١٦ .

(٢) سبق ذكره وتخريجه .

(٣) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

تتوافق مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التى تدل دلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، كما قال تعالى :

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾

أى بين واضح يراه كل أحد ، وليس كما رأى ابن مسعود أنه الجوع والجهد الذى أصاب قريشًا وأهل مكة بعد دعاء النبى ﷺ عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، وفى رواية ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد

فليس الخيال كالدخان المبين الواضح .

وقوله تعالى : ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾

أى يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أى يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[1]

أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم[2] .

---

(١) سورة الطور ، الآية ١٣ ، ١٤

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص١٣٨ - ١٤٠ بتصرف .

خامساً : طلوع الشمس من المغرب :

« لا تنفع توبة التائب بعد طلوع الشمس من مغربها »

قال تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[1]

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ :« يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها قال :طلوع الشمس من مغربها » [2]

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » [3] .

وقال ﷺ :« لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ هذه الآية» [4] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدخان ودابة الأرض » [5]

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨

(٢) رواه الترمذي وأحمد .

(٣) رواه البخاري وبقية الجماعة إلا الترمذي .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه أحمد وكذا مسلم .

وثبت في الصحيحين عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ :« أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا ، قال إنها تنتهي فتسجد تحت العرش ثم تستأذن فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا » (١) .

وقال ﷺ :« إن أول الآيات طلوع الشمس وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا » (٢) .

قال عبد الله بن عمر : وأظن أولاهما خروجًا: طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع ، حتى إذا أذن الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل وأتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفت أنه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت : رب ما أبعد المشرق من لي بالناس ؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استاذنت في الرجوع ، فيقال لها: ارجعي من مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (٣) .

وقوله في الحديث :« إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس . . » الحديث . فالمراد بالآيات هنا الآيات التي ليست مألوفة ، وهي مخالفة للعادات المستقرة ، فالدابة التي تكلم الناس ، وتُعيّنُ الكافر منهم من المؤمن ، وطلوع الشمس من مغربها متقدم على الدابة ، وذلك محتمل ومناسب والله أعلم (٤) .

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه مسلم وأحمد
(٣) رواه أحمد في مسنده
(٣) النهاية في الفتن والملاحم جـ١ ص٢١٨ بتصرف

هذا، ولا يزال فى المسلمين من يقوم الليل عابدًا حتى تطلع الشمس من مغربها!

كما ورد ذلك فى الأحاديث ، ومن ذلك :

عن عبد الله بن أبى أوفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك عرفها المتنفلون ، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ، ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام فبينما هم كذلك، صاح الناس بعضهم فى بعض ، فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها ، قال فحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها » [1] .

وعن حذيفة قال : سألت النبى ﷺ ما آية طلوع الشمس من مغربها قال : «تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فيتنبه الذين كانوا يصلون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنجوم لا ترى قد باتت مكانها ، يرقدون ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ثم يقومون يتطاول الليل فيفزع الناس ، ولا يصبحون فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم » [2]

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال ذات يوم لجلسائه : أرأيتم قول الله :

﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[3]

ماذا يعنى بها . قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : إنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم كانت تحت العرش ، فإذا حضرها طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنت ، فإذا كان اليوم الذى تحبس فيه سجدت له

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره

(٢) رواه ابن مردويه .

(٣) سورة الكهف .

وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته فيقال لها : تأنى فتحبس قدر ليلتين ، قال : ويفزع المتهجدون وينادى الرجل تلك الليلة جاره يافلان ما شأننا الليلة ؟ لقد نمت حتى شبعت ، وصليت حتى أعييت ؟ ثم يقال لها :اطلعى من حيث غربت ، فذلك يوم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » [1] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: « إن الهجرة خصلتان: ، إحداهما أن تهجر الشر ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من الغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل » [2]

وعن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله فتح بابًا قبل المغرب ، عرضه سبعون أو أربعون ذراعًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس»[3].

فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيمانًا أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه وإنما كان كذلك - والله أعلم - لأن ذلك من أكبر أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة » [4] .

***

(١) رواه البيهقى فى البعث والنشور

(٢) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد قوى ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه النسائى وابن ماجة .

(٤) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٢٢ بتصرف .

سادسًا : خروج الدابة من الأرض تكلم الناس :

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]

قال ابن كثير : « هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل من مكة ، وقيل من غيرها ، فتكلم الناس على ذلك ، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة ، ويروى عن على رضى الله عنه : تكلمهم كلامًا أى تخاطبهم مخاطبة ، وقال عطاء الخرساني: تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويروى هذا عن على واختاره ابن جرير ، وفى هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم .

وقال ابن عباس فى رواية تجرحهم ، وعنه رواية قال : كلاً تفعل ، يعنى هذا وهذا، وهو قول حسن ولا منافاة وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان»[2] .

* ففى حديث مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « بادروا بالأعمال الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم »[3] والخويصة تصغير خاصة

والمراد بخاصة أحدكم الموت الخاص لكل إنسان لأنه يخص من وقع به .

---

(١) سورة النمل ، الآية ٨٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ بتصرف .
(٣) رواه مسلم .

أما أمر العامة فالمراد به قيام الساعة لأنه يشمل الأحياء جميعًا فلا يترك فيهم مخلوقًا .

* وروى أبو داود عن حذيفة بن أسيد الغفارى أبى شريحة وأبى جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود ،وحديث طلحة أتم وأحسن ، قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال :« لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تكمن زمنًا طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية يعنى مكة.

قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها، المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهى ترغو « تصوت وتضج » بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتىّ ومعًا ، وبقيت عصابة المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها مثل الكوكب الدرى ، وولت في الأرض ، لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ فتأتيه من خلفه فتقول : يافلان الآن تصلى ؟ فيقبل عليها فتسمه فى وجهه ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول : ياكافر اقضنى حقى ، وحتى إن الكافر ليقول يامؤمن اقضنى حقى »[1] .

***

(١) رواه أبو داود

سابعًا : محو القرآن من الأرض :

روى ابن ماجة عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ :« يدرس الإسلام كما يدرس« يذهب أثره » وشى الثوب « أعلام الثوب » حتى ما يدرى صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويسرى النسيان على الكتاب فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها » رواه ابن ماجة ، وزاد الحاكم : قال صلة بن زفر لحذيفة : ما تغنى عنهم وهم لايدرون ما صيام ولا صدقة . .

- فأعرض عنه حذيفة ثم رددها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة - ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال ياصلة : تنجيهم من النار « ثلاثاً » [1].

وهذا دال على أن العلم يرفع من الناس فى آخر الزمان حتى إن القرآن يسرى عليه النسيان في المصاحف والصدور ، ويبقى الناس بلا علم ، وإنما الشيخ الكبير والعجوز المسنة يخبران بأنهم أدركوا الناس وهم يقولون :« لا إله إلا الله» فهم يقولونها على وجه التقرب إلى الله عز وجل ، فهى نافعة لهم وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها [2] .

***

(١) رواه ابن ماجة والحاكم .
(٢) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير جـ١ ص٤١ بتصرف .

ثامنًا : مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين :

* أخرج الإمام مسلم ،عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، قال : سمعته من رسول الله ﷺ قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا فيتمثلهم - يستولى عليهم - الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون: فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ،وهم فى ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يبقى أحد إلا أصغى ليتًا «صفحة عنقه» ورفع ليتًا ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله «يجصصه»، قال فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطر كأنه الطل أو الظل - شك من نعمان الراوى - فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه مرة أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم « وقفوهم إنهم مسئولون » ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال :من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ، قال : وذلك يوم يجعل الولدان شيبًا ويوم يكشف عن ساق « كناية عن الشدة » (١).

وفى الحديث عن يأجوج ومأجوج السابق وفيه « فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة تحت آباطهم فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس

(١) رواه مسلم .

يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » [١] .

* وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقلت : يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تام . فقال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحًا طيبة يتوفى بها كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم » [٢]

***

العلامة التاسعة والعاشرة والحادية عشر :

ثلاثة خسوف :

١ ـ خسف بالمشرق .

٢ ـ خسف بالمغرب .

٣ ـ خسف بجزيرة العرب .

وهى أعظم الخسوف ، كما جاء ذلك فى حديث حذيفة بن أسيد الذى سبق ذكره.

***

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

آخر العلامات الكبرى هو أول أشراط الساعة وقيامها ، ومقدمات الحشر :

نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

كما جاء فى الحديث عن أنس أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله ﷺ : ما أول أشراط الساعة ؟ فقال : « نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » (١)

وفى رواية : نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشرهم تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » (٢) .

ثم عليهم تقوم الساعة ، كما قال ﷺ :« تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط « يجصص» حوضه فما يصدر حتى تقوم » (٣) .

***

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه أحمد ومسلم وأهل السنن
(٣) رواه البخارى ومسلم .

بداية الانقلاب الحقيقى ، بزوال الدنيا وإقبال الآخرة

إذا أذن الله عز وجل بانقراض الكون ، وانتهاء هذه الحياة الأولى ، أمر ملكًا يدعى «إسرافيل» أن ينفخ فى الصور نفخة واحدة للفناء ، فيكون ذلك أول شىء يطرق أسماع أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة ، فإذا سمع الناس تلك النفخة فزعوا ، فينظرون ، فلا يبقى أحد من أهل الأرض إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا - أى رفع صفحة عنقه وأمال الأخرى - يستمع هذا الأمر العظيم ، الذى قد هال الناس وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا ، وشغلهم بها ، وفى وقوع هذا الأمر العظيم قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[(١)]

وتطول نفخة الفزع هذه ، فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة ، فتنحل بها كل الروابط التى كانت تربط بين أجزاء الكون ، فترتج الأرض رجًا عنيفًا ، وتتزلزل زلزالاً مروعًا ، وتندك مع جبالها دكًا ، فتصير هباءً منبثًا ، وتصاب السماء بانفطار عظيم ، فتتناثر الكواكب ، وتتكدر الشمس ، ويذهب ضوءها ، وتنصهر الأجرام السماوية بجميع مجراتها ، فإذا هى كالنحاس المذاب تمامًا ، بل وتسجر البحار إذا أضرمت نيرانًا ، وإذا العالم كله قد صار خرابًا وبخارًا ، فما حال الإنسان المسكين أمام ذلك الهول العظيم ، إنه لا شىء ، إنه يطير ، ويجرى هنا وهناك كالفراش المبثوث ، بلا روية ولا تفكير ، ولكن سرعان ما يتلاشى ويزول .

إسمع قول الله تعالى يصور لنا تلك الأحداث العظام ، والأهوال الجسام :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ

---

(١) سورة النمل ، آية ٨٧

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(١)

ويقول :

﴿ الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾(٢)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾(٣)

وقال :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾(٤)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾(٥)

(١) سورة الحج ، آية ١ ، ٢
(٢) سورة القارعة آية ١ - ٥
(٣) سورة الزلزلة آية ١ - ٣
(٤) سورة الواقعة آية ١ - ٦
(٥) سورة التكوير آية ١ - ٦

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾(١)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(٢)

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾(٣)

كما قال تعالى :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(٤)

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(٥)

---

(١) سورة الانفطار ، آية ١ - ٤
(٢) سورة الانشقاق آية ١ - ٤
(٣) سورة المعارج آية ٨ - ١٤
(٤) سورة الحاقة ، آية ١٣ - ١٨
(٥) سورة النبأ ، آية ١٨ - ٢٠

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾[1]

– وتطول تلك النفخة ، بأمر الله تعالى ، حتى يصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله كما قال تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾[2]

فإذا تساءلت : ما هو الصور؟ فنجيبك إنما هو القرن أو البوق أو الناقور .

قال الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾[3]

قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » .

قال أصحاب محمد : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا »[4] . وأما عن عظمه ، فكما روى « إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصًا إلى العرش ببصره ، ينتظر متى يؤمر ؟ قال : قلت يا رسول الله ما الصور ؟ قال : قرن ، قال : كيف هو ؟ قال : عظيم ، قال : والذى بعثنى بالحق إن عظم دائرة فيه لعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل

---

(١) سورة النازعات ، آية ٦ – ٩
(٣) سورة المدثر ، آية ٨
(٣) سورة الزمر ، آية ٦٨
(٤) أخرجه الترمذي وأحمد بسند صحيح

السموات والأرض ، إلا من شاء الله ، ويأمره تعالى فيمدها ويطيلها ولا يفتر ، وهى التى يقول الله فيها

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾[1]

فتسير الجبال سير السحاب فتكون سرابًا ، وترتج الأرض بأهلها رجًا، فتكون كالسفينة فى البحر ، تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجه الرياح ، ألا وهو الذى يقول الله تعالى فيه :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾

فتميد الأرض بأهلها ، وتذهل المراضع ، وتضع كل الحوامل ، وتشيب الولدان، ويطير الناس هاربين من الفزع، فتلقاهم الملائكة فتضرب وجوههم فيرجعون ، ثم يولون مدبرين ، ما لهم من الله من عاصم ، ينادى بعضهم بعضًا، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾[2]

فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض بصدعين ، من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرًا عظيمًا، لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ، نظروا فى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم انشقت السماء ، فانتثرت نجومها ، وخسفت شمسها وقمرها ، فإذا تساءلت : من الذين استثناهم الله تعالى : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ .

فهم الأموات : إذ الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك ، إذ الفزع يصل إلى الأحياء .

---

(١) سورة ص ، آية ١٥ .
(٢) سورة غافر ، آية ٣٢ ، ٣٣

والشهداء : لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، لأنه عذاب الله ، يبعثه على شرار خلقه ، فيمكثون فى ذلك العذاب ما شاء الله ، حتى يأمر إسرافيل بنفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله من الملائكة .

كما جاء فى الخبر . أن الله تعالى يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم خمدوا ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يا رب مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله، وهو أعلم بمن بقى ، فمن بقى ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقى جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله ، ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يا رب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل، وبقيت أنا وحملة العرش ، فيقول الله ، فليمت حملة عرشى ، فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار ، فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، كان آخراً كما كان أولاً .

طوى السموات والأرض كطى السجل للكتب، ثم دحاها ثم لفها ثلاث مرات.

وذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا

بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾(١)

وقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢)

ثم يقول أنا الجبار ثلاثًا : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم هتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد فيقول لنفسه : لله الواحد القهار ، وذلك قوله تعالى :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٣)

ثم يبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويسطحها ، ويمدها من الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(٤)

ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم فى مثل ما كانوا فيه فى الأولى ، من كان فى بطنها كان فى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾(٥)

ثم يأمر الله تعالى السماء أن تمطر فتمطر أربعين يومًا ، حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعًا ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت ، فتنبت كنبات البقل، مما تبقى من الأجساد ، إذ يفنى كل شىء إلا عَجْبَ الذنب ، ومنه ينبتون، حتى إذا

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٤
(٢) سورة الزمر ، آية ٦٧
(٣) سورة غافر آية ١٦
(٤) سورة إبراهيم ، آية ٤٨
(٥) سورة النازعات ، آية ١٣ ، ١٤

تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت ، قال الله : ليحيى جبريل وميكائيل ، فيحيان ، ثم يدعو الله بالأرواح ، فيؤتى بها ؛ تتوهج أرواح المسلمين نورًا ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها جميعًا ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل ، قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول الله : وعزتى وجلالى ، ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ، فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم، فيخرجون منها سراعًا إلى ربهم ينسلون . وذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(1)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(2)

وقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾(3)

(1) سورة الزمر ، آية ٦٨
(2) سورة القمر ، آية ٦ ـ ٨
(3) سورة المعارج ، آية ٤٣ ، ٤٤

وقوله جل وعلا :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[1]

هذا وأول من تنشق عنه الأرض هو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، إذ يقول ﷺ: « أنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر »[2] .

وبانتهاء الكلام عما بين النفختين « الصعق والقيام » لعلك تتساءل : كم كان بينهما ؟ فإن النبى ﷺ يجيب على هذا السؤال ، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « بين النفختين أربعون » قالوا يا أبا هريرة : أربعون يومًا ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت ، قالوا أربعون سنة ، قال : أبيت . . قال : ثم ينزل من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظمًا واحدًا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[3] فعدم جزم أبى هريرة - راوى الحديث - شك منه ، غير أنه ورد فى رواية أخرى مفسرًا ، بلفظ « أربعون سنة » قاله النووى فى شرحه على مسلم .

وإذا كانت السماء ستمطر أربعين يومًا ، فيستبعد أن تكون هذه المدة أربعين يومًا، والراجح أنها أربعون سنة ، ولكن لا يدرى ، أهى بأيامنا هذه أم بأيام الله تعالى؟ .. والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة يس ، آية ٥١ - ٥٣

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه البخاري

يوم البعث ، والوقوف على أرض المحشر

مضى بنا الكلام إلى نفخة البعث ، وخروج الناس من قبورهم ، سراعًا ينسلون إلى ربهم ، وهم إذ يخرجون من القبور فإنهم يحشرون إلى ساحة واحدة تدعى عرصات يوم القيامة ، وذلك لفصل القضاء والحكم بينهم ، ومجازاتهم فيحشرون حفاة ، عراة ، غلفًا أو غرلاً ، أى غير مختونين ، وذلك كما فى الآية الكريمة :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1]

وكما قال :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[2]

ولقول النبى ﷺ - فى الحديث الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها - «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قلت : يا رسول الله : النساء والرجال جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض ، قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[3] .

وفى رواية : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، فقالت عائشة يا رسول الله : فكيف بالعورات ؟ فقال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[4].

(١) سورة الأنعام ، آية ٩٤

(٢) سورة الأنبياء ، آية ١٠٤

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه الإمام أحمد وخرجاه في الصحيحين

ولكن هذا لا يمنع من أن يكسى بعضهم كما فى الحديث عن جابر رضى الله عنه قال : « إن المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة ، يؤذن المؤذن ، ويلبى الملبي، وأول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم ثم محمد ثم النبيون ثم المؤذنون» وذكر تمامه[1] .

وفى الحديث أيضًا : « أول من يكسى إبراهيم ، يقول الله ، اكسو خليلي ، فيؤتى بريطتين - الثوب اللين الرقيق - بيضاوين فيلبسهما ، ثم يقعد مستقبل العرش ، ثم أوتى بكسوتى فألبسها ، فأقوم عن يمينه قيامًا لا يقومه أحد غيرى ، يغبطنى فيه الأولون والآخرون »[2] .

*** هذا ويحشر الناس أصنافاً ثلاثة : من يمشى ، ومن يركب ، ومن يزحف**

قال ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم ، قالوا يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك » [3]

وفى القرآن الكريم :

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[4]

وقال تعالى :

(١) ذكره القرطبى
(٢) رواه أبو نعيم ، وذكره القرطبى فى التذكرة
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) سورة الإسراء ، آية ٩٧ ، ٩٨

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[1]

وقال ﷺ : « يحشر المتكبرون فى صور من الذر يوم القيامة ، يعلوهم كل شيء من الصغار »[2]

ثم ماذا ؟ يقف الناس على أرض المحشر ، فى يوم كان مقدره خمسين ألف سنة ، يخففه الله عز وجل على من يشاء حتى يصل إلى مقدار ركعتين يركعهما المسلم فى دنياه ، كما فى الحديث « والذى نفسى بيده إنه ليخف على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا »[3] ، يقفون موقفًا واحدًا ، صفًا واحدًا ، لا ينظر إليهم مقدار سبعين عامًا ، ولا يقضي بينهم ، فيبكون حتى ينقطع عنهم الدمع ، ثم يبكون دمًا ، ويعرقون حتى يبلغ ذلك منهم مبلغًا ، وذلك كما فى الحديث « إن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة ، فتكون منهم على مسافة ميل ، فعند ذلك يعرقون بحسب الأعمال »[4] وفى رواية «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين » قال سليم: لا أدرى أى الميلين ؟ أمسافة الأرض ؟ أم الميل الذى تكحل به العين ؟ قال: فتغمرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه العرق إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه، قال : « يلجمه إلجامًا »[5] .

هذا - وفى تلك الأثناء العصيبة ، نرى أناسًا منعمين ، مستظلين بظل الله يوم القيامة كما فى الصحيح عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلهم

---

(١) سورة مريم ، آية ٨٥ ، ٨٦

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي ، بسند حسن

(٣) رواه أحمد فى مسنده .

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٥) رواه مسلم والترمذى

الله فى ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، وفى رواية : إلا ظل عرشه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، واثنان تحابا فى الله ، اجتمعا على ذلك ، وتفرقا على ذلك ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه »[1] .

وهذا الوقت العصيب يسمع الناس هذا النداء - كما جاء فى الحديث : «ينادى الله عز وجل على آدم فيقول : يا آدم : ابعث بعث النار ، قال : يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، قال : فأبلس الصحابة ، ما ترى لأحدهم سن ضاحكة ، فلما رأى ذلك قال : اعلموا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ، إنكم لمع خليقتين ، ما كانتا فى شىء قط إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم ومن بنى إبليس ، قال : فسرى عنهم ، ثم قال اعلموا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، والرقمة فى ذراع الدابة »[2]

ومع هذا كله نرى جهنم وقد برزت ، وزمجرت ، وتغيظت وزفرت ، وأرسلت بشررها كأنه القصر فى العظم ، والجمال الصفر فى التتابع ، وخرج منها عنق له ثلاثة رؤوس يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبمن أشرك مع الله إلهاً آخر ، وبمن لم يؤمن بيوم الحساب .

كما قال تعالى :

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا

(١) رواه البخارى

(٢) رواه الترمذى والنسائى بسند صحيح

ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾(١)

فهناك تجثو الأمم على الركب ، كما قال تعالى :

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢)

ويشيب الولدان ، كما قال عز وجل :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾(٣)

ولما يطول موقفهم ، ويعظم كربهم ، يقول بعضهم لبعض ، ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تستشفعون إلى ربكم ، فيبحثون عن الشفعاء . فيأتون آدم عليه السلام ، ونوحًا عليه السلام ، وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، فيعتذرون ، ويقولون : نفسى نفسى ، إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبل مثله ، ولن يغضب بعد مثله ، حتى ينتهوا إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، محمد ﷺ ، الذى يقول : أنا لها ، أنا لها ، فيأتى ربه فيخر ساجدًا تحت العرش ، ويلهمه ربه تعالى محامد يحمده بها ، فلا يزال كذلك حتى يقول له الله تعالى : يا محمد : إرفع رأسك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فيرفع رأسه ، ويسأل ربه تعالى الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود

﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾(٤)

(١) سورة المرسلات ، آية ٢٩ - ٣٤
(٢) سورة الجاثية ، آية ٢٨
(٣) سورة المزمل ، آية ١٧
(٤) سورة الإسراء ، آية ٧٩

فتكون الشفاعة العظمى بفصل القضاء أولاً [١]

وهو المقام الذى يقومه رسول الله ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

ثم تكون شفاعته ﷺ لأمته ، وهو يقول : يا رب أمتى ، فيقال له : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب حتى يقال له : أخرج من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان [٢]

ويجرى بعد ذلك القضاء مجراه .

فبعد أن يسأل محمد ﷺ ربه الشفاعة ، يقول : يا رب وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : شفعتك ، أنا آتيكم ، فأقضى بينكم .

وقد جاء في الخبر : أن النبى ﷺ بعد ذلك ، يعود فيقف مع الناس ، ينتظرون فصل القضاء ، فإذا بالناس يسمعون حسًا شديدًا من السماء ، فإذا هم ملائكة السماء الدنيا وعددهم مثل من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وسألهم الناس : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى فى ظلل من الغمام والملائكة ، ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حجزهم ، والعرش على مناكبهم ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذى لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت .

---

(١) راجع أحاديث الشفاعة بتمامها فى فصل الشفاعة فى الجزء الأول

(٢) رواه البخارى ومسلم بتمامه .

وذلك قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾(١)

وقوله سبحانه :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾(٢)

كما قال :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾(٣)

كما قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾(٤)

ثم يضع الله عز وجل كرسيه حيث شاء من أرضه - يعني بذلك كرسي فصل القضاء ، وهو بخلاف الكرسي المذكور في حديث النبي ﷺ : « ما السموات

---

(١) سورة الفجر ، آية ٢١ - ٢٣.
(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٠.
(٣) سورة الزمر ، آية ٦٩ ، ٧٠.
(٤) سورة الفرقان ، آية ٢٥ ، ٢٦.

السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن وما بينهن ، وما الكرسى ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وما الكرسي في العرش إلا كتلك الحلقة بتلك الفلاة ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل »[١] .

ثم يهتف بصوته فيقول :(يا معشر الجن والإنس ، إنى قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا إلى ، فإنما هى أعمالكم وصحفكم ، تقرأ عليكم فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[٢] .

ثم يبدأ ربنا فصل القضاء بين خلقه إلا الثقلين - الإنس والجن - فيقضى بين الوحوش والبهائم ، حتى إنه ليقتص للجماء من القرناء ، فإذا فرغ الله من ذلك، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى ، قال الله لها : كونى ترابًا ، فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابًا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[٣]

ثم يقضى الله بين العباد ، فيكون أول ما يقضى فيه الدماء ، فيأتى كل قتيل فى سبيل الله ، ويأمر الله من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يا رب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول الله تعالى - وهو أعلم - فيم قتلته ؟ فيقول : قتلته يا رب لتكون العزة لك ، فيقول الله : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور السموات ، ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من كان يقتل على غير

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه
(٢) بمعناه فى مسلم
(٣) سورة النبأ ، آية ٣٨ - ٤٠

ذلك، ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول يا رب فيم قتلني هذا؟ فيقول الله - وهو أعلم - فيم قتلته ؟ فيقول : يا رب قتلته لتكون العزة لي . فيقول الله : تعست ، ثم ما تبقى نفس قتلها قاتل إلا قتل بها ، ولا مظلمة إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه ، ثم يقضي الله بين من بقي من خلقه ، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء أن يخلص اللبن من الماء

﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾(١)

فإذا فرغ الله من ذلك ، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم ، فقال : ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئًا إلا مثلت له الهيئة بين يديه ، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ، فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار .

وذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾(٢)

فلما قال المشركون : إذن عزير سيدخل النار ، وعيسى سيدخل النار - فرد الله عليهم بقوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ

(١) سورة غافر ، آية ١٧ (٢) سورة الأنبياء ، آية ٩٨ - ١٠٠

الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1]

فيزج بهؤلاء إلى النار ، وهم يقدمهم آلهتهم وأئمتهم مثل فرعون

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾[2]

وأعتقد أن هؤلاء هم الذين لا يحاسبون ولا يُسألون ولا يقام لهم وزن ، كما قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[3]

وقال عنهم :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾[4]

* ثم ماذا ، ثم يبقى خلق كثير ، هم المؤمنون ، وفيهم المنافقون ، والعصاة والمرتدون ونحوهم فيقال : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم ، وما كنتم تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، ما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم الله، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس : ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فيكشف عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون به أنه ربهم ، فيخرون سجداً على وجوههم ، ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠١ - ١٠٣
(٢) سورة هود ، آية ٩٨
(٣) سورة الكهف ، ١٠٥ ، ١٠٦
(٤) سورة الرحمن ، آية ٣٩

أصلابهم كصياصى البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون رؤوسهم .
وذلك قول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾(١)

* ثم يفصل الله عز وجل بين المؤمنين - الذين صار لهم نور عظيم - وبين المنافقين ، الذين أظلم عليهم ، فليس لهم من الضياء إلا كالشمعة الخافتة على إبهام أحدهم

﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾(٢)

فإذا بهم ينادون أهل الايمان أصحاب النور ،

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٣)

بماذا ينادونهم

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن

(١) سورة القلم ، آية ٤٢ ، ٤٣
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٠
(٣) سورة الحديد ، آية ١٢

مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(١)

* ثم يعرض الناس على ربهم

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾(٢)

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة »(٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾(٤)

فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»(٥).

هذا وأول من يعرضون على الله تعالى الأنبياء .

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ

(١) سورة الحديد ، آية ١٣ - ١٥
(٢) سورة الحاقة ، آية ١٨
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) سورة الانشقاق ، آية ٧ ، ٨
(٥) رواه البخارى ومسلم

عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[2]

كما يشملهم - مع غيرهم - قول الله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3]

وكما يعرض الأنبياء على الله تعرض الملائكة وكذلك الأمم ، ثم تشهد أمة النبى محمد ﷺ للأنبياء ، وعلى الأمم ، وقد جاء فى الخبر « إذا جمع الله عباده يوم القيامة ، كان أول ما يدعى إسرافيل ، فيقول له ربه : ما فعلت فى عهدى ؟ هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت ، فيخلى عن إسرافيل ، ويقال لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول : نعم قد بلغت الرسل : فيقول الله عز وجل لهم : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم ، فيخلى عن جبريل ، ويقال للرسل: ما فعلتم بعهدى؟ فيقولون : بلغنا أممنا ، فتدعى الأمم ، فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدى؟ فيقولون : بلغناهم ، فمنهم المكذب ومنهم المصدق ، وإن لنا عليهم شهداء يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك ، فيقول : من يشهد لكم؟ فيقولون : أمة محمد ، فتدعى أمة محمد ، فيقول الله تعالى لهم : أتشهدون أن رسلى هؤلاء قد بلغوا عهدى إلى من أرسلوا إليهم ؟ فيقولون : نعم يا ربنا شهدنا أن قد بلغوا ، فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولاً ،

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٩

(٢) سورة الأعراف ، آية ٦ ، ٧

(٣) سورة الحجر ، آية ٩٢

وأنزلت إلينا عهدك وكتابك ، وقصصت علينا أنهم قد بلغوا ، فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١)

قال ابن أرقم: فبلغنى أنه يشهد أمة أحمد إلا من كان فى قلبه إحنة (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «يدعى نوح يوم القيامة ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه ، فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، قال : فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، وذلك قوله

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

قال : والوسط : العدل ، قال رسول الله ﷺ : «فتدعون ، فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم » (٣) .

وقال ﷺ : « يجيء النبى يوم القيامة ، ومعه الرجل ، والنبى ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد ، فيقال له : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقول : نعم ، ثم تدعى أمة محمد ﷺ فيقال لهم : هل بلغ هذا أمته ؟ فيقولون : نعم ، فيقال

(١) سورة البقرة ، آية ١٤٣

(٢) رواه ابن أبى الدنيا

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى

لهم: ومن أعلمكم فيقـولون : جاءنا محمد نبيًا ، وأخبـرنا أن الرسل قد بلغوا ، قال : فذلك قوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

قـال : يقول : عـدلاً ، لتكونوا شـهـداء على الناس ويكون الرسـول عليكم شهيدًا» [١] .

وقد ذكـر النبي ﷺ « تشريف إبـراهيم عليه السـلام يوم القيامـة على رؤوس الأشهاد ، وأنه أول الخلائق يكسى يوم القيامة »[٢] .

وذكر موسى عـليه السلام ، وذكر شـرفه وجلالته يوم القـيامة ، وكثرة أتـباعه وانتشار أمته .

هذا ، ومن الأنبيـاء الذين سيعـرضون على الله عز وجـل ، ويتكلم الرب عز وجل معهم يوم القيامة «عيسى عليه السلام» قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة

(٢) رواه السيوطي والبزار

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١)

وهذا السؤال من الله تعالى لعيسى ابن مريم ، مع علمه تعالى أنه لم يقل شيئًا من ذلك ، إنما هو على سبيل التقريع والتوبيخ لمن اعتقد فيه ذلك من ضُلّال النصارى وجهلة أهل الكتاب ، فبرأ إلى الله تعالى من هذه المقالة .

كما تتبرأ الملائكة ممن اعتقد فيهم شيئاً من الإلهية ، حيث يقول الله تعالى :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾(٢)

وكذلك يتبرأ الشركاء من المشركين، قال تعالى :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم

(١) سورة المائدة ، آية ١١٦ - ١١٩

(٢) سورة سبأ ، آية ٤٠ ، ٤١

مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾(١)

وأما مقام الرسول محمد ﷺ عند الله يوم القيامة ، فلا يدانيه مقام ، ولا يساويه أحد ، إذ يحصل له من التشريفات ما يغبطه كل الخلائق من العالمين ، من الأولين والآخرين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وقد تقدم ما ورد فى المقام المحمود من الأحاديث والآثار ، وأنه أول من يسجد بين يدى الله يوم القيامة ، وأول من يشفع فيشفع ، وأول من يكسى بعد الخليل ، إذ يكسى الخليل ريطتين بيضاوين ، ويكسى محمد ﷺ حلتين خضراوين ، ويجلس الخليل بين يدى العرش ، ومحمد ﷺ عن يمين العرش ، فيقول : يارب إن هذا - ويشير إلى جبريل - أخبرنى عنك أنك أرسلته إلىّ ، فيقول الله عز وجل : صدق جبريل»(٢) .

ثم يكون كلام الله تعالى مع الناس ومخاطبته لهم ، وتذكيرهم بنعمه عليهم، وبمعصيتهم له ، كما ثبت فى الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فيلقى الرجل ، فيقول له : ألم أكرمك ؟ ألم أزوجك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا ، فيقول : فاليوم أنساك كما نسيتنى »(٣) وهذا فيه صراحة عظيمة فى تكلم الله تعالى ومخاطبته لعبده الكافر ، وهو لا يتنافى مع قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤)

---

(١) سورة يونس ، ٢٨ - ٣٠
(٢) رواه ابن أبى الدنيا
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) سورة آل عمران ، آية ٧٧

فالمراد من هذا أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم كلامًا ونظرًا يرحمهم به ، كما أنهم عن ربهم يومئذ محجوبون بقوله تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1]

وفى الصحيحين أيضًا ، أن رسول الله ﷺ قال : « يدنى الله العبد يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ، ثم يقرره بذنوبه ، فيقول : عملت فى يوم كذا ، كذا وكذا؟ وفى يوم كذا ، كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا رب ، حتى إذا ظن أنه قد هلك ، قال الله تعالى : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »[2] وهناك آخر ، يكذب بين يدى الله تعالى ، كما روى مسلم وغيره ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ، وقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يوم القيامة ، يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : يقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدًا منى ، قال : فيقول الله : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، قال : فيختم الله على فيه ، ويقول لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعدًا لَكُنَّ وسحقًا ، فعنكن كنت أناضل »[3]

وذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[4]

ويقول عز وجل :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم

---

(١) سورة المطففين ، آية ١٥
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه مسلم
(٤) سورة يس ، آية ٦٥

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾(١)

وكذلك قال سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾(٢)

***

(١) سورة النور ، آية ٢٤ ، ٢٥

(٢) سورة فصلت ، آية ٢٠ - ٢٤

أخذ الصحف أو الكتب

ثم يمضى الناس فى عرضات يوم القيامة لمراحل الحساب ، فيتنظرون تطاير الصحف كما قال تعالى :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(١)

ورحم الله الحسن البصرى إذ قال : لقد أنصفك يا ابن آدم من جعلك حسيب نفسك . فتتطاير الصحف ، فيعطى الناس كتبهم ، إما بأيمانهم أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾(٢)

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الإنشقاق ، آية ٦ – ١٥

وقال تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾[1]

والكل سيقرأ كتابه – سواء أكان أميًا أم متعلماً – وسيجد فيه كل شئ

﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[2]

وكما قال تعالى :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا

(١) سورة الحاقة آية ١٨ – ٣٧

(٢) سورة القيامة آية ١٣

مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١)

فيسعد المؤمن بعمله الصالح ، ويبيض وجهه وهو يقرأ حسناته ، ويسوء الكافر والفاجر عمله الطالح ، ويسود وجهه وهو يقرأ سيئاته ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٢)

وصدق من قال :

مثل وقوفك يوم العرض عريانـاً ... مستوحشاً قلق الأحشاء حيراناً

واقرأ كتابك يا عبدى على مهلٍ ... فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا

لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا

نادى الجليل خذوه يا ملائكتى ... وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا

المشركون غداً فى النار يلتهبوا ... والمؤمنون لدار الخلد سكانا

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٦ ، ١٠٧

ميزان الأعمال

قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(١)

ثم يتقدم الناس لميزان أعمالهم ، وهم عند الميزان صنفان

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾(٢)

كما قال ربنا أيضاً :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾(٣)

فيا سعادة من ثقلت موازينه ، ويا شقاوة من خفت موازينه . قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي

(١) سورة الأنبياء آية ٤٧

(٢) سورة المؤمنون ، آية ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) سورة الأعراف آية ٨ ، ٩

عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[1]

أى يهوى على أم رأسه فى نار جهنم ، والعياذ بالله .

قال القرطبى : قال العلماء : إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغى أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لنفس الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ، فيكون الجزاء بحسبهما . قال : وقوله «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال ، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله سبحانه وتعالى أعلم » ونقل أيضاً : أن الميزان له كفتان عظيمتان ، لو وضعت السموات والأرض فى واحدة لوسعتهما ، فأما كفة الحسنات فنور ، وأما كفة السيئات فظلمة ، وهو منصوب بين يدى العرش ، وعن يمينه الجنة ، وكفة النور من ناحيتها - وعن يساره جهنم - وكفة الظلمة من ناحيتها .

واختلف فى الشيء الموزون ، هل هى الأعمال - وهى لا جرم لها - فكيف توزن ؟ قال ابن عباس : إن الله يخلق الأعراض أجساماً ، فتوزن ، قيل : وقد يوزن العامل نفسه .

والصحيح أنه توزن كتب الأعمال [2]

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال «أثقل شيء يوضع فى الميزان خلق حسن » [3]

وقد ورد : أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ، أرسل إلى عمر ، فقال: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا

---

(١) سورة القارعة ، آية ٧ - ١١

(٢) قاله القرطبى فى التذكرة (٣٧٢ - ٣٧٣) بتصرف

(٣) رواه أحمد والترمذى

وثقله عليهم ، وحق لميزان إذا وضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا ، وخفته عليهم ، وحق لميزان إذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً » (١)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم تلا قول الله تعالى :

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة خردل أو يرجح » (٢)

وهناك من تستوى حسناتهم بسيئاتهم كأهل الأعراف ، فيبحثون عن حسنة ، فلا يجدونها

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(٣)

فينتظرون رحمة الله عز وجل ، وشفاعة النبى ﷺ .

فوجب الإيمان بما أخبر به الله عز وجل ورسوله ﷺ من أن أعمال العباد توزن يوم القيامة بميزان الحق والعدل ، الذى يزن بالخردلة ، وأنه ميزان حقيقى ، وله كفتان .

(١) رواه ابن أبي الدنيا

(٢) رواه ابن أبي الدنيا

(٣) سورة عبس آية ٣٤ - ٣٧

ورحم الله ابن القيم إذ قال فى الشافية الكافية :

أفما تصدق أن أعمـال العـباد تحـط يـوم العـرض فى الميزان
وكذلك تثـقل تارة وتخف أخرى ذاك فـى القـرآن ذو تـبيان
ولـه لسـان كفتان تقيـمه والكفـتان إلـيه ناظـرتان
ماذاك أمـرًا معنويـًا بل هـو المحسـوس حقًا عند ذى الإيمان

وقال آخر :

تذكـر يـوم تأتى الله فـردًا وقد نصبت موازين القـضـاء
وهتكت السـتور عن المعـاصي وجـاء الذنب فكشـف الغطـاء

* * *

مبحث حول «الحوض»

لقد وردت أحاديث مشهورة ومتعددة من طرق مأثورة كثيرة متضافرة ، عن الحوض المحمدى « نسأل الله عز وجل أن يسقينا منه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً» .

ومن ذلك ، ما رواه أبىٌّ بن كعب أن رسول الله ﷺ ذكر الحوض ، فقال أبى ابن كعب : يا رسول الله ما الحوض ؟ فقال : «والذى نفسى بيده إن شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر عدداً من النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبداً ، ولا يصرف عنه إنسان فيروى أبداً » (١).

وقال ﷺ «إن قدر حوضى كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » (٢)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رسول الله ﷺ رأسه مبتسماً ، فقالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ . إنه أنزلت على آنفًا سورة ، فقرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر . . » حتى ختمها ، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول: يارب ، إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » (٣)

وفى لفظ مسلم «هو نهر وعدنيه ربى عليه خير كثير ، هو حوضى ترد عليه

---

(١) رواه الطبرانى

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٣) رواه مسلم وابو داود والنسائى

أمتى يوم القيامة » وقال ﷺ «أنا فرط لكم على الحوض ، وإن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة ، كأن الأباريق فيها النجوم »(١) والفرط هو الذى يتقدم القوم إلى الماء ، يهيئ الدلاء والرشاء ، والرسول ﷺ فرط أمته وسابقهم ومتقدمهم إلى الحوض .

وفي الحديث أيضاً «الحوض مسيرة شهر ، وزواياه سواء يعنى عرضه مثل طوله، وكيزانه «أكوابه » مثل نجوم السماء ، أطيب ريحاً من المسك ، وأشد بياضاً من اللبن ، من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً »(٢)

وهذا الحوض يشرب منه أتباع النبى ﷺ ، المتمسكون بسنته ، ويحرم منه أهل الأهواء والبدع ، ومن غيروا وبدلوا ، ونكصوا على أعقابهم ، وارتدوا عن دينهم كما فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «بينما أنا قائم إذا زمرة ،حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل من بينى وبينهم ، فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ، قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل بينى وبينهم ، فقال هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت: ما شأنهم ، قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم »(٣) أى المتروك من الإبل ليلاً ونهاراً بدون راع.

وكيف يعرفهم ﷺ ؟ قال ﷺ : «إن حوضى أبعد من أيلة إلى عدن ، هو أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإنى لأصد الناس عنه ، كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يارسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء »(٤)

---

(١) رواه مسلم وأبو يعلى
(٢) رواه أحمد فى مسنده
(٣) رواه البخارى
(٤) رواه مسلم

أحاديث أخرى عن الحوض

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما نزلت «إنا أعطيناك الكوثر» قال لنا رسول الله ﷺ : هو نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت ، تربته أطيب ريحاً من المسك ، وطعمه أحلى من العسل ، وماؤه أشد بياضاً من الثلج »[١]

وقال ﷺ «حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً »[٢]

وقال ﷺ : «أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن رجال منكم ، ثم يحتجزون دونى ، فأقول : يارب أصحابى ، فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك »[٣]

وعن عثمان بن مظعون ، عن النبى ﷺ أنه قال : « يا عثمان : لا ترغب عن سنتى : فإنه من رغب عن سنتى ثم مات قبل أن يتوب ، ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة »[٤]

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف ، فصعد على المنبر ، فقال : «إني فرط لكم على الحوض، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضى الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها »[٥] .

وعن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : ما آنية الحوض ؟ قال : « والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة لا

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى وقال حسن صحيح

(٢) رواه البخارى ومسلم (٣) رواه البخارى

(٤) رواه الترمذي (٥) رواه البخارى ومسلم بنحوه

المصحية، مـن آنية الجنة ، يشخب (يسيل) فيه مـيزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل »[1]

وعن أسماء بنت أبى بكر ، قالت ، قال النبى ﷺ : «إنى على الحوض ، حتى أنظر من يرد على منكـم ، وسيـؤخذ أناس دونـى ، فأقـول : يارب . منى ومن أمـتى، فيـقال : هل شـعرت بما عـملوا بعـدك ؟ والله ما برحـوا يرجعـون على أعقابهم»[2] فكان ابن أبى مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا . أو نفتن عن ديننا .

فيـتلخص من مـجموع هذه الأحـاديث المتواترة صـفة هذا الحـوض العظيم ، والمورد الكريم ، من شـراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هـو أشد بياضـاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، وهو فى غاية الإشـباع ، عرضـه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مـسيرة شـهر ، وإنه ينبت فى حال من المسك ، ورضراض من اللؤلؤ ، فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شئ ، لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه .

وهذا الحوض يحرم من الشرب منه أهل الأهواء والبدع ، والردة والعياذ بالله .

ومما سـبق يتبين أن الحـوض قبل الصـراط ، لأن الذين يمنعون مـن الحوض لا يمكن أن يكونوا قـد اجتازوا الصـراط لأن الذى جاوز الصـراط لا يكون إلا ناجيًا مسلماً ، فمثل هذا لا يحجب عن الحوض ، فالحوض قبل الصراط ، والله أعلم، ولكن اختلف : هل يكون الشـرب من الحوض قبل الميزان أم بعـده ، أم من قبل ذلك ، إذ يقـوم الناس من قبـورهم عطاشا ، فكل ذلك مـحتـمل ، لأنه لم يأت دليل قطعى بتحديد وقت ورود الناس للشرب من الحوض ، والله أعلم .

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخارى ومسلم

« الصــــراط »

ثم ينتهى الناس بعد مفارقـتهم مكان الموقف ، إلى الظلمة التى دون الصراط ، وهى على جسر جهنم ، كما فى حـديث عائشة : أن رسول الله ﷺ سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غـير الأرض والسمـوات ؟ فقال : «هـم فى الظلمة دون الجسر »(١)

فما الصراط ؟ قال النبى ﷺ : «الصراط كـحد الشعرة ، وكحد السيف ، وإن الملائكة تحـجز المؤمنين والمؤمنـات ، وإن جبـريل عليه السـلام يحجـزنى ، وإنى لأقول: يارب سلم سلم ، فالزالون والزلات يومئذ كثير »(٢)

وهذا الصـراط قد مـد على متن جهنـم ، ولا سبـيل إلى الجنة إلا بالمرور على الصراط .قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(٣)

وعن عبيد بن عـمير أنه كان يقول : أيها الناس ، إنه جسر مـجسور ، أعلاه دحض مـزلة ، والملائكة على جنبـات الجسـر يقولون : رب سلم ، قـال : وإن الصراط مثل السيف على جسر جهنم ، وإن عليه كلاليب وحسكًا ، والذى نفسى بيده ، إنه ليؤخذ بالكُلاب الواحد أكثر من ربيعة ومضر »

وعن سـعيـد بن أبى هلال ، قال : «بلغنـا أن الصراط يوم القـيامـة وهو على الجسـر يكون على بعض الناس أدق من الشعر ، وعلـى بعض الناس مثل الوادى الواسع »(٤)

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البيهقى بسند صحيح
(٣) سورة مريم آية ٧١ ، ٧٢
(٤) رواه ابن أبى الدنيا

وعن عبد الله بن مسعود ، فى تفسير قول الله تعالى : «وإن منكم إلا واردها» قال : قال النبى ﷺ :

«يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»[١]وعنه - رضي الله عنه - قال: «يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثمّ يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر كمر البرق ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل ، ومنهم من يمر كأجاويد الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرًا، رجل نوره على موضع إبهامى قدميه ، ثم يتكفأ به الصراط ، والصراط دحضًا مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه عليهما ملائكة ، معهم كلاليب من نار يخطفون بها الناس»[٢]

وقال ﷺ فى معرض حديثه عن الشفاعة العظمى «... فيأتون محمدًا ﷺ فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتى الصراط يمينًا وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبى وأمى ، أى شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفة عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرحال تجرى بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم . سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال : وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوس فى النار»[٣] وفى الحديث أيضاً :أن النبى ﷺ قال: «يضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس

(١) رواه الترمذى وأحمد بإسناد صحيح
(٢) رواه الترمذى
(٣) رواه مسلم

بأعمالهم » [٢] وقد قال بعض الوعاظ - فيما حكاه القرطبى ، في التذكرة : «توهم نفسك يا أخى إذا سرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مدلهمة ، وقد تلظى سعيرها ، وعلا لهيبها ، وأنت تمشى أحيانًا ، وتزحف أحياناً أخرى ، ثم أنشد :

أبت نفسى تشوب فما احتيالى ... إذا برز العباد لذى الجلال ؟

وقاموا من قبورهم حيارى ... بأوزار كأمثال الجبال

وقد نصب الصراط لكى يجوزوا ... فمنهم من يكب على الشمال

ومنهم من يسير لدار عدن ... تلقاه العرايس بالغوالي

يقول لهم المهيمن : ياولـي ... غفرت لك الذنوب فلا تبالى

---

(١) رواه مسلم

(٢) التذكرة للقرطبى

القنطـــرة

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

ثبت فى صحـيح البخارى من حديث قـتادة عن أبى سعيـد الخدرى أن رسول الله ﷺ قـال : «إذا خلص المؤمنون من الصراط ، حـبسـوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقـتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حـتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن بدخـول الجنة ، فـلأحـدهـم أهدى إلى منزله فى الجنة من مـنزله الذى كـان فى الدنيا»[١]

فبعـد أن يجتاز المؤمنون الصـراط بسلام ، وأمان من الوقوع فى النار يـوقفون على تلك القنطرة ، بين الجنة والنار ، لتـهذيبهم وتطهيرهم من كل مـا كان بينهم من عداوات أو شـحناء ، أو حقـوق لبعـضهم على بعض ثم يؤذن لهـم بدخول الجنة بعد ذلك ، وقـد طهرت نفوسهم ، وزكت أرواحـهم ، إذ لا يحق لأحد أن يدخل الجنة وفى نفسه من أخيه شىء ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾[٢]

---

(١) رواه البخارى

(٢) سورة الحجر آية ٤٧

مشاهد تراها يوم القيامة

قال الإمام أحمد ، عن أبي هريرة قال : قـام فينا رسول الله ﷺ يوماً ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ،ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيـر له رغاء ، فيقـول : يارسول الله ، أغثني ، فـأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلـغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبتـه شاة لها ثغاء، فيقول يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامـة على رقبته فرس له حمحمـة ، فيقول : يارسول الله أغثنـي فأقول : لا أملك لك من اللـه شيئـاً ، قد أبلغتـك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامـة على رقبته نفس لهـا صياح ، فيقـول : يا رسول الله أغثني ، فأقـول : لا أملك لك من الله شـيئاً ، قـد أبلغتك ، لا ألفين أحـدكم يجئ يوم القيامة على رقبته صامت ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك » [١]

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢]

وفي الصحيحين «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه الله من سبع أرضين »[٣]

ومما تراه ، كما جاء في الصحيحين «من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ » [٤] وفي رواية : «يعذبون ، يقال : أحيوا ما خلقتم »

وفي الصـحيح : «من تحلم بـحلم لم يره ، كلف يوم القـيامـة أن يعقـد بين شعرتين وليس يفعل »[٥] وكذلك ترى حال مانعي الزكاة كما وصفه رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد
(٢) سورة آل عمران آية ١٦١
(٣) رواه البخاري ومسلم
(٤) رواه البخاري ومسلم
(٥) رواه البخاري

بقوله : «ما من صاحب كنز لا يؤدى حقه ، إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى به جبهته ، وجنباه ، وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقدراه خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وذكر بقية الحديث في مانع زكاة الغنم والإبل أنه يبطح لها بقاع قرقر ، تطؤه بأخفافها ، وأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما مرت عليه أخراها عيدت عليه أولاها ، حتى يقضى بين العباد ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[١]

ومما تراه من مظاهر رحمة الله تعالى يوم القيامة :

ما رواه الإمام أحمد ، عن عبدالله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : «إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر ، ثم يقول الله له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ ظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الملك : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : أخبروه ، فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول : إنك لا تُظْلَم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة، قال : فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ،« ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم » أو «ولايثقل مع اسم الله شيء »[٢]

ومما تراه أنك ترى الظالمين مشفقين مما هو واقع بهم ، قال تعالى :

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه بسند حسن غريب ، والحاكم وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي والألباني

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[1]

ومما تراه أنه «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[2] وقال ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر فى صور الرجال ، يغشاهم الذل فى كل مكان ، يسحبون إلى سجن فى جهنم يسمى «بولس » تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »[3] وكذلك ترى حال أناس هم المراءون بأعمالهم ، الذين لم يبتغوا بها وجه الله ، فيكونون أول من تسعر بهم النار .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : فما عملت فيها ، قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال: كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : إنك عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار »[4] المراءون هم أول الناس

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٢ - ٤٤
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الترمذى ، وهو في صحيح الجامع.
(٤) رواه مسلم

يقضى عليهم يوم القيامة ، المراءون الذين لم يبتغوا بأعمالهم وجه الله ، صلوا ليراهم الناس وتصدقوا ليمدحهم الناس ، وحجوا ليحصلوا لقب «الحاج فلان» وتعلموا العلم ليقال : ما أعلمه ، وقرأوا القرآن ليقال ، أقرأ الناس فلان . هؤلاء وإن خفى أمرهم على العباد ، فإنه لا يخفى على رب العباد الذى «يعلم السر وأخفى» .

وكذلك «إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شىء ، قال الرب تبارك وتعالى : «انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك» [١]

هذا ، والجمع بين حديث «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة» وحديث «أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء» بأن الأول فيما يتعلق بحقوق الرب عز وجل ، وأما الثانى فإنما هو فيما يتعلق بحقوق العباد بعضهم البعض .

وسترى أناساً مفلسين يوم القيامة مع كثرة أعمالهم .

ومن هنا قال ﷺ يوماً لأصحابه : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ثم طرح في النار» [٢]

ومن الظلم عدم العدل بين الزوجات ، وقد جاء فى الحديث : «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وشقه مائل» [٣] ومن الظلم حرمان

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم وابن ماجة ، وهو فى صحيح الجامع.
(٣) رواه البخارى

الإناث خاصة من الميراث والتركة « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين »[١] فبادر « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، و إن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٢]

ومن مشاهد القيامة ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ «يغمس » فى النار صبغة ، ثم قال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤسًا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب مامر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط »[٣]

وعنه أن النبى ﷺ قال : «يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول له : يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل وأتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة .

ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع «بقدر» الأرض ذهبًا؟ فيقول : أى رب نعم ، فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار »[٤]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أهل

(١) رواه أحمد وابن ماجة
(٢) رواه البخارى (٣) رواه مسلم
(٤) رواه أحمد وصححه الألبانى ، فى صحيح الجامع

النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[1]

وتلك أعمال تنجي صاحبها من أهوال يوم القيامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[2] وعن عبدالرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة ، فقال : «إنى رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتى والنبيون قعود حلقاً حلقاً كلما دنا لحلقة طردوه ، فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده بجانبى ، رأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها ، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم ، فقالت يا معشر المؤمنين : كلموه ، فكلموه ، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى شرر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلاً على رأسه . ورأيت رجلاً من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم

أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من بين أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتى جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله ، ورأيت رجلاً من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفة فجعلها فى يمينه، ورأيت رجلاً من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » [(١)]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله عز وجل : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » [(٢)]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » [(٣)]

---

(١) رواه الترمذى

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الجماعة

نظرة على أرض المحشر

هل خلت أرض المحشر من أهلها ؟

لقد رحل عنهـا الكثير . ممن ثقلت مـوازينهم ، ودخلوا الجنة ، أو من خفت موازينـهم ودخلوا النار ، لكنها لم تخل بـعد ، ذلك أن قومًا اسـتوت مـوازينهم وتساوت ، فلم تثقل الحسنات ، ولا السيئات ، فأوقفوا على جبل بين الجنة والنار يقال له الأعراف ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا عليهم وهنئوهم ، وطمعوا أن يدخلوا الجنة مثلهم ، وإذا أريـد لهم أن ينظروا إلى أهل النار استعـاذوا بالله منها ومن أهلها ، ودعوا ربهم ألا يكونوا مع القوم الظالمين .

وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1]

فعن حذيفة رضي الله عنه قال : أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة فـإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فـبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك ، قال : قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم »[2]

وإذا نظرت إلى أرض المحـشر مـرة أخرى ، ربما وجدت أنـاساً قصـرت بهم أعمالهم عن دخـول الجنة ، فهؤلاء قوم لهم سـيئات ، ماتوا عليـها ، ولم يتوبوا

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٦ ، ٤٧

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ،وقال: هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه،ووافقه الذهبي

منها ، وآخرون لهم كبائر ، إستوجبت دخولهم النار ، ولكن هؤلاء وأولئك ، أراد الله عز وجل أن يدخلهم فى رحمته بمشيئته

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(١)

فيأذن الله عز وجل فيهم بالشفعاء ، فيشفع النبي ﷺ ، ومن بعده ، كما قال ﷺ : «لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة ، فهى نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً » (٢)

فإذا خلت أرض المحشر من أهلها أذن الله عز وجل للشفعاء أن يخرجوا عصاة الأمة - الذين ماتوا على التوحيد - من النار .

كما جاء فى الحديث : « . . . فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه » ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : إذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا . ثم يعودون ، فيقول ، إذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

قال أبو سعيد : «فإن لم تصدقونى ، فاقرؤوا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾(٣)

«فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار : بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا «احترقوا» . فيلقون فى نهر بأفواه الجنة، يقال له ماء الحياة ، فينبتون فى حافتيه، كما تنبت الحبة في حميل السيل «

(١) سورة النساء آية ٤٨
(٢) متفق عليه
(٣) سورة النساء آية ٤٠

ما يجئ به السيل من طين وغيره» قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل فى رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه»(١) .

وقد جاء فى أحاديث الشفاعة أيضاً : (... فاوتى فأقول : أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن ؛ يلهمنيه الله ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فافعل ، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر ساجداً فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرله ساجداً فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب أمتى أمتى، فيقال لي : انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فافعل . ثم أرجع إلى ربى فى الوابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يارب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال : ليس ذاك لك - أو إليك - ولكنى وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبروتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله »(٢)

---

(١) متفق عليه

(٢)متفق عليه ، وراجع أحاديث الشفاعة بتوسع

حال آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة

وفي الحديث أيضاً : « . . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، فيقول : يارب قد قشبني ريحها «أي آذاني وأهلكني» وأحرقني ذكاؤها «أي لهبها وشدة وهجها» فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله ، فيقول : لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره ، فيقول : لا ، وعزتك لا أسألك غيره ، فيصرف وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك : يارب قربني إلى باب الجنة ، فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فلا يزال يدعو ، فيقول : لعلى إن أعطيتك ذلك تسألني غيره ، فيقول : لا وعزتك، لا أسألك غيره ، فيعطى الله ما شاء من عهد وميثاق أن لا يسأله غيره فيقربه إلى باب الجنة . فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال : رب أدخلني الجنة ثم يقول : أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول : يارب لا تجعلني أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها ، قيل : تمن من كذا ، فيتمنى ، ثم يقال له : تمن من كذا ، فيتمنى حتى تنقطع به الأماني ، فيقول : هذا لك ومثله معه.

قال أبو هريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً ، قال عطاء : و «أبو سعيد» جالس مع أبو هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله : «هذا لك ومثله معه» قال أبو سعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هذا لك وعشرة أمثاله ؟ قال أبو هريرة : حفظت . «مثله معه» (١)

(١) متفق عليه

وبهذا تخلو أرض المحشر من أهلها ، وكذلك يخرج من النار من ليس يخلد فيها ، فيكون من بقى بها سيخلد فيها ، ومن أدخل الجنة سيخلد فيها ولذلك عقب تلك المشاهد كلها ، والعرصات هذه جميعاً ، تكون الكلمة الفاصلة ، إذ يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح ، كما جاء في الحديث ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلي النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة: لاموت ، ويا أهل النار : لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم »[1]

و رواية عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، قال ثم يقال : يا أهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ، قال : ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت فيها ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]
وأشار بيده إلى الدنيا »[3]

وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال – يرفعه إلى رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون ، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار»[4] .

(١) رواه البخارى
(٢) سورة مريم الآية ٣٩
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح

أهل الجنة ينادون على أهل النار
وأهل النار ينادون على أهل الجنة

قص علينا القرآن الكريم فى بعض مشاهد يوم القيامة أن أهل الجنة ينظرون على أهل النار ، ويتم التخاطب بينهم ، وأن أهل الجنة سيضحكون على أهل النار ، وذلك من تحقيق العدل الذي قاله الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(١)

ولذلك نرى القرآن الكريم حكى لنا مشهداً فردياً ، وآخر جماعياً .

أما المشهد الفردى فهو قصة رجل مؤمن كان يحاور رجلاً ملحداً فى الدنيا ، ينكر البعث بعد الموت ، والمؤمن يدعوه إلى الإيمان ، ويأبي الكافر إلا أن يدعوه إلى الدخول معه فى كفره ، فلما فاز المؤمن بالجنة وتذكر قرينه الكافر فأراد أن يعرف أين هو ، فقال : يحكى لأهل الجنة

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم

(١) سورة المطففين آية ٢٩ - ٣٦

مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾(١)

وأما المشهد الجماعي فقد بين ربنا عز وجل أن أهل الجنة ينادون على أهل النار، فقال : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾(٢)

وإذا كان أهل الجنة لهم الحق في النداء على أهل النار وسؤالهم أو السخرية منهم، فلماذا ينادي أهل النار على أهل الجنة ، يقول الله تعالى :

(١) سورة الصافات آية ٥١ - ٦٨

(٢) سورة الأعراف آية ٤٤ - ٤٥

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾(١)

(١) سورة الأعراف آية ٥٠ - ٥١

نهاية المطاف ، والمستقر الأخير
«دار السلام أو دار البوار»

ومن الإيمان باليـوم الآخـر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهـما حـق لاريب فيـه ولا شك، وأن الله عز وجل قد أعد الجنة للمتـقين ، وأعد النار للغاوين ، فالجنة دار أولياء الله ، والنار دار أعداء الله .

وقد أخبر الله عز وجل عنهـما بأسلوب الماضي «أعـدت» فلابد من اعتـقاد وجودهما الآن . كما يجب الإيمان بدوامهما وبقـائهما بإبقاء الله لهما ، وأنهما لا تفنيان أبداً ، ولا يفنى من فـيهما ، فكل من دخلهـما ينطبق عليه «خالدين فـيها أبداً»، ولكن هذا لا ينطبق على عصاة الموحدين الذين تمسهم النار بقدر جنايتهم، ويدخلونها ، ثم يخرجـون منها برحمة الله تعالى ، ثم بشفـاعة الشافعين - على نحو ما أسلفنا .

وأن نعـيم الجنة وعذاب النار يكون بـالروح والجسـد معـاً ، وأنه يشتـمل على مطاعم ومـشارب ، وملبس يختـلف ذلك بين أهل الجنة وأهل النار ، ويزيد أهل الجنة فى النعيم أمر التمـتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة ، على نحو ما سنبين إن شاء الله .

وعند الكلام عن الجنة والنار يحار المسلم ، هل يتكلم عن الجنة أولاً ثم النار أم العكس من ذلك ، لكنى أرى أن اللـه عز وجل إذا تكلم عن الجنة أردف الحـديث عنها بالنار أو العكس منه ، جـمعًا بين الترغيب والتـرهيب ، ولذلك سأحاول - فى كتابي هـذا - أن أبتكر طريقة جديدة فى الحديث عن الجنة والنار مـعاً ، على سبيل المقارنة والموازنة ، وليكون على طريقة القرآن الكريم الذي يقرن فى الحديث بينهما في مثل قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن

يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(١)

وفى مثل قوله تعالى :

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(٢)

وكذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣)

فنقول : وبالله تعالى التوفيق :

الجنة فى الأصل : البستان من النخل أو الشجر ، وهى مأخوذة من جنَّ إذا

(١) سورة النساء آية ١٣ ، ١٤
(٢) سورة البقرة آية ٢٤ ، ٢٥
(٣) سورة يونس آية ٧ - ١٠

ستر ، وسميت بذلك ؛ لأن نخيلها الباسقات وأشجارها المورقة تلتف أغصانها بعضها ببعض ، فتكون كالظلة تستر ما تحتها . والمقصود بالجنة هنا : الدار التى أعدها الله للمتقين جزاء لهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح .

وإذا كان الله تعالى يكافئ الأبرار بالنعيم ، فإنه يجازى الفجار بالجحيم ، عقابًا لهم على ما اقترفوا من كبائر الإثم والفواحش والجحيم هذه هى دار العذاب.

أسماء الجنة والنار

أولاً : أسماء الجنة :

١- الجنة : لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[١]

٢ - المأوى : لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٢]

٣ - عدن : لقوله تعالى :

﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[٣]

٤ - الفردوس : لقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٤]

٥ - النعيم : لقوله تعالى :

---

(١) سورة مريم آية ٦٣
(٢) سورة النازعات آية ٤٠ - ٤١
(٣) سورة البينة آية ٨
(٤) سورة المؤمنون آية ١٠ ، ١١.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾(١)

٦ - المقام الأمين : لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾(٢)

٧ - دار المقامة : لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(٣)

٨ - دار السلام : لقوله تعالى :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٤)

٩ - دار الخلد : لقوله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾(٥)

١٠ - دار الحيوان : لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾(٦)

أي دار الحياة الحقيقية الباقية .

١١ - مقعد صدق : لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾(٧)

---

(١) سورة لقمان آية ٨
(٢) سورة الدخان آية ٥١
(٣) سورة فاطر آية ٣٥
(٤) سورة الأنعام ، آية ١٢٧
(٥) سورة البينة آية ٨ وغيرها
(٦) سورة العنكبوت آية ٦٤
(٧) سورة القمر آية ٥٤ ، ٥٥

ثانياً : أسماء النار :

١ - النار : لقوله تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(١)

٢ - جهنم : لقوله تعالى : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾(٢)

٣ - الجحيم : لقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(٣)

٤ - السعير : لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾(٤)

٥ - الحطمة : لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾(٥)

٦ - الهاوية : لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾(٦)

٧ - لظى : لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾(٧)

٨ - سقر : لقوله تعالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾(٨)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٩

(٣) سورة المائدة آية ٨٦

(٤) سورة الملك آية ٥

(٥) سورة الهمزة آية ٤ - ٧

(٦) سورة القارعة آية ٨ ، ١١

(٧) سورة المعارج آية ١٥ - ١٨

(٨) سورة المدثر آية ٢٦ - ٣٠

٩ - دار البوار : لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾[1]

(١) سورة إبراهيم آية ٢٨

أبواب الجنة ودرجاتها ، وأبواب النار ودركاتها

للجنة ثمانية أبواب ، وثمانى درجات، قال تعالى :

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾(١)

وقال : ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾(٢)

وقال ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع بصره إلى السماء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »(٣) وقال ﷺ : «فى الجنة ثمانية أبواب . باب منها يسمى الريان ، لا يدخل منه إلا الصائمون »(٤) وفي حديث الشفاعة «فيقول الله : يا محمد : أدخل من لا حساب عليه من أمتك الجنة من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فى بقية الأبواب ، والذي نفسى بيده، إن بين المصراعين من مصاريع الجنة أو ما بين عضادتى الباب كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى »(٥)

وقد قيل إن أبواب الجنة تسمى بباب التوبة ، وباب الصلاة ، وباب الصوم ، وباب الزكاة ، وباب الصدقة ، وباب الجهاد ، وباب الريان ، وباب الحج والعمرة

كما فى الحديث « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب - فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الزكاة دعى من باب الزكاة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من

---

(١) سورة ص آية ٥٠
(٢) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤
(٣) رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنة
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد
(٥) رواه البخارى ومسلم

باب الريان » فقال أبو بكر : يا رسول الله : ما على امرئ يدعى من أيها شاء من ضرورة ، فهل يدعى أحد منها كلها ، قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر »[١]

وأما أبواب النار فهى سبعة ، ودركاتها كذلك ، قال تعالى :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[٢]

وهى أبواب مؤصدة ، أى مطبقة ومغلقة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾[٣]

وحولها سرادق وهو سور عظيم محيط بها ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[٤]

أما دركاتها فهى - كما ذكر - جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وعصاة هذه الأمة فى أعلى دركاتها ، والمنافقون فى أسفلها ،كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[٥]

وفى الحديث : إن للجنة ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض »[٦] أى يرجى لأهل التوحيد منهم ما لا يرجى لغيرهم .

هذا ودرجات الجنة تذهب علواً ، ودركات النار تذهب سفولاً . هذا وفى جهنم أودية وجبال ، لورود الوحى بذلك ، ومنها :

الغى كما فى قوله تعالى :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد
(٢) سورة الحجر آية ٤٤
(٣) سورة الهمزة آية ٨ ، ٩
(٤) سورة الكهف آية ٢٩
(٥) سورة النساء آية ١٤٥
(٦) رواه الإمام أحمد

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾(١)

الآثام كما فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾(٢)

الويل : كما قال تعالى : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ (٣)

وكذا : ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٤)

وقيل الويل بمعنى العذاب وضد النجاة .

ومن جبالها : «الصَّعود » ، كما فى قوله تعالى :﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ (٥) وهو جبل يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ويهوي فيه كذلك ، وقيل بمعنى المشقة من العذاب ، وكذلك قيل عن «الحموم » كما في قوله تعالى :

﴿ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴾(٦)

أنه جبل فى جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . وما روى عن جب الحزن ، وسجن بولس ، ووادي لملم ، وكذلك وادى هبهب ، فالله أعلم بصحة ذلك ، وعافانا الله من ذلك .

---

(١) سورة مريم آية ٥٩
(٢) سورة الفرقان آية ٦٨
(٣) سورة المطففين آية ١
(٤) سورة إبراهيم آية ٢
(٥) سورة المدثر آية ١٧
(٦) سورة الواقعة ،آية ٤٣ - ٤٤

دخول المؤمنين الجنة ، والكافرين النار

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[1]

قال على : «والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم تر الخلائق مثلهـا . عليها رحائل من ذهب ، ليركبـوا عليها حتى يضربوا أبواب الجنة »

كما قال تعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[2]

ويقول ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، أول زمرة من أمتي تدخل

---

(١) سورة مريم آية ٨٥ ، ٨٦

(٢) سورة الزمر آية ٧١ - ٧٤.

الجنة سبعون ألفًا لا حساب عليهم ، صورة كل رجل منهم على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد ضوء كوكب في السماء ، ثم هم بعد ذلك منازل »(١)

وقال ﷺ : «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً ، أو سبعمائة ألف - شك في إحداهما - متماسكين ، آخذًا بعضهم ببعض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، ووجوهم على ضوء القمر ليلة البدر »(٢) وفى رواية «أعطيت سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربى عز وجل ، فزادنى مع كل واحد سبعين ألفاً »(٣)

وقال ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لايبصقون فيها ، ولا يمتخطون فيها ، ولا يتغوطون فيها ، وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم من الألوة ، وريحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشية »(٤)

وفى رواية «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم - ما يسرح به - الذهب ، وريحهم المسك ، مجامرهم الألوَّة - العود الذي يتبخر به - وأزواجهم الحور العين ، وأخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم ، ستون ذراعاً »(٥)

وأما عن سنهم وهيئتهم ، فيقول ﷺ : «يدخل أهل الجنة جردا -ليس على بدنهم شعر - مرداً - لا شعر على وجوههم - بيضًا، جعاداً - خفافًا لينين

(١) رواه أحمد (٢) رواه البخاري و مسلم

(٣) رواه أحمد بسند فيه ضعف و الترمذى بنحوه ، في صحيح مسلم « مع كل ألف سبعون ألفًا »

(٤) رواه مسلم وأحمد (٥) رواه مسلم

مجتمعين - مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، على خلق آدم ، ستون ذراعًا فى عرض سبع أذرع »(١)

وفى رواية : «يدخل أهل الجنة الجنة ، على طول آدم ، ستين ذراعاً بذراع الملك ، على حسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ، ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ، جرداً ، مرداً ، مكحلين » (٢)

وأما الكافرون وأهل النار عموماً ، ما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظاً وزفيراً

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾(٣)

ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٤)

وإليك طرف من عذابها :

(١) رواه أحمد بسند صحيح ، وكذا الترمذى

(٢) رواه ابن أبى الدنيا

(٣) سورة الفرقان آية (١٢)

(٤) سورة الطور آية ١٣ - ١٦

ذكر جهنم ، وشدة حرها ، وشدة سوادها وبُعد عمقها ، وشدة عذابها

(أ) شدة حرها :

قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾(١)

كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾(٢)

وقال جل شأنه : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾(٣)

وقوله ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾(٤)

أي حار ، قد تناهى حره و بلغ الغاية في ذلك .

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا : يا رسول الله، إن كانت لكافية ، فقال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً »(٥)

وفي رواية أحمد «ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة

---

(١) سورة التوبة آية ٨١
(٢) سورة القارعة آية ٨ - ١١
(٣) سورة الغاشية آية ١ -٥
(٤) سورة الرحمن آية ٤٤
(٥) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد ومالك

وستين جزءاً كلهن مثل حرها »[١].

(ب) **شدة سوادها** : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة »[٢]

وفى رواية عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣]

وقال : أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء فلا يضىء لهبها »[٤]

(ج) بعد عمقها :

قال رسول الله ﷺ : «لو أن حجراً قذف به فى جهنم ، لهوى سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها »[٥]

وعن أبي هريرة قال : كنا عند رسول الله ﷺ يوماً : فسمعنا وجبة ، فقال ﷺ أتدرون ما هذا ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا والآن انتهى إلى قعرها »[٦] وعن عتبة بن غزوان ، أنه قال في خطبة : «إن الحجر يلقى من شفير جهنم ، فيهوى فيها سبعين عاماً ، لا يدرك لها

(١) رواه أحمد فى مسنده
(٢) رواه الترمذى وابن ماجة
(٣) سورة التحريم ، آية ٦
(٤) رواه ابن مردويه
(٥) رواه الحافظ أبى يعلى
(٦) رواه مسلم وأحمد

قـعراً ، والله لتملأن . أفعجبتم ؟ وقد ذكر لنـا : «إن ما بين مصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام »[١]

(د) سعتها :

كما حدث ﷺ عن سعة جهنم ، فقال : «أتدرون ما سعة جهنم ؟ فقلنا : لا ، فقـال : أجل والله ما تدرون ، إن ما بين شـحمة أذن أحدهم وبـين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً » [٢]

وجاء فى الحـديث «يجاء بجهنم يوم القيـامة تقاد بسبـعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[٣]

(هـ) شدة عـذابها : قال ﷺ : «أدنـى أهل النار عذاباً ينتـعل بنعل من نار ، يغلى دماغه من حرارة نعليه »[٤]

وفى رواية : «أهون أهل النار عـذاباً رجل فى رجلـيه نعـلان ، يغلى منـهمـا دماغه»[٥]

ومن هؤلاء «أبو طالب » الذى ذكر عند النبى ﷺ فقال : لعله تنفـعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح يبلغ كعبه ، تغلى منه أم دماغه » [٦]

وجاء الحديث برواية أخرى : «أهونَ أهل النار عذاباً أبو طالب ، ينتعل بنعلين يغلى منهما دماغه »[٧]

وفى الحديث أيضاً : «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القـيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان ، يغلى منهما دماغه ، كما يغلى المرجل ويغلى القمقم » [٨]

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه النسائي والبيهقي والترمذي وقال: صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) رواه الترمذى والنسائى

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه أحمد

(٦) رواه البخارى

(٧) رواه مسلم

(٨) رواه البخارى ومسلم

(و) حرها وبردها :

قال ﷺ : « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : رب أكل بعضي بعضاً ، فنفسني فأذن لها فى كل عام بنفسين ، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم »(١)

وفى رواية « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : أكل بعضي بعضًا ، فأذن لها بنفسين ، نفس فى الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما يكون الحر من فيح جهنم » (٢)

وإن الكافر ليعذب ببردها كما يعذب بحرّها ، أو أن حرها أهون عنده من زمهريرها .

ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول فى خطبه : «أكثروا ذكر النار ، فإن حرها شديد ، وإن قعرها بعيد ، وإن مقامعها حديد »

(ز) شررها :

قال تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٣)

وعن ابن مسعود قال فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) رواه أحمد

(٣) سورة المرسلات آية ٢٩ - ٣٤

أما إنه ليس مثل الشجر والجبل ، ولكن مثل المدائن والحصون »[١]

وقال النبى ﷺ : «لو أن شررة بالمشرق ، لوجد حرها بالمغرب »[٢]

(ح) عظم خلق أهلها :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٣]

قال ﷺ : «يعظم أهل النار فى النار ، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد»[٤]

وفى الحديث : «ما بين منكبى الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام ، للراكب المسرع »[٥]

(ط) مقامعها وأغلالها :

قال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[٦]

وفى الحديث : «لو أن مقمعاً من حديد من مقامع أهل النار ، وضع فى

---

(١) رواه الطبرانى

(٢) رواه الطبرانى

(٣) سورة النساء آية ٥٦

(٤) رواه أحمد والبيهقى بسند صحيح

(٥) رواه البخارى ومسلم ، موقوفاً

(٦) سورة الحج آية ١٩

الأرض ، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض »[١] وكذا روى «لو ضرب بمقمع من حديد الجبل ، لفتته فعاد غباراً »

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال في أهل النار : «إن الحميم ليصب على رأس أحدهم ، فينفذ من الجمجمة ، حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلب ما فى جوفه ، ثم يمرق من قدميه »[٢]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾[٣]

وقال : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٤]

كما قال جل شأنه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[٥]

وقال سبحانه :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[٦]

وقد روى - بأسانيد جياد - عن كثير من السلف : أن هذه السلسلة تدخل فى فم الكافر ، وتخرج من دبره ، فينظم فيها كما تنظم السمسمة فى الخيط ، والخرزة فى السلك » .

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه أحمد

(٣) سورة الإنسان آية ٤

(٤) سورة المزمل آية ١٢ ، ١٣

(٥) سورة غافر آية ٧٠ - ٧٢

(٦) سورة الحاقة آية ٣٠ - ٣٤

(ى) حياتها وعقاربها :

ماذامت جهنم - أجارنا الله تعالى منها - هى دار العذاب ، وعالم الشقاء ، فالعذاب فيها أنواع متنوعة وصنوف مصنفة ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولذلك فلا يستغرب أبداً وجود حيات فيها ناهشة ، وعقارب لادغة ، يعذب بها أهل النار ، لتكون عذاباً فوق العذاب كما قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾[1]

وقد فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم، وحيات تنهشهم ، عقارب كالبغال، وحيات كالجمال [2] وفى الحديث : «إن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت - الإبل الخراسانية - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة - الضخمة - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها - ألمها - أربعين سنة »[3]

---

(١) سورة النحل آية ٨٨ (٢) تفسير ابن جرير الطبرى ص ١٦٠

(٣) رواه الحاكم ، وقال فيه صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

ذكر الجنة ، سعتها ، وطيب ريحها وقصورها ، وتفاضل أهلها

(أ) سعتها :

ما أوسع دار المتقين ، إن عرضها كعرض السموات والأرض ، كما قال ربنا عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

وربما يقول قائل : هذا عرضها ، فأين طولها ؟ كما سأل هذا السؤال « هرقل » من قبل فأجابه النبي ﷺ : «سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار، وأين النهار إذا جاء الليل »[2]

(ب) طيب ريحها :

ما أطيب ريح الجنة ، وإن ريحها ليشم من مسيرة خمسمائة عام ، كما قال ﷺ : « وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام» [3] وفى رواية «إن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام » [4]

(جـ) قصورها :

إن فى الجنة قصوراً ليعجز الإنسان عن وصفها ، وعن التعبير عنها ، ولم لا ؟ وربنا عز وجل يقول:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣

(٢) رواه أحمد وابن ماجة

(٣) رواه الإمام مالك فى الموطأ

(٤) رواه النسائى وابن ماجة والترمذى

سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾(١)

وها هو النبى ﷺ وهو يتحدث عن آخر رجل يدخل الجنة ، فيقول : يقول «يارب » ألحقنى بالناس ، فينطلق يَرمُلُ فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر ، من درة ، فيخر ساجداً ، فيقال له : ارفع رأسك مالك ؟ فيقول : رأيت ربى ، فيقال له : إرفع رأسك ، إنما هو منزل من منازلك ، ثم يلقى رجلاً فيتهيأ للسجود له ، فيقال له : مه . فيقول : رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول له : إنما أنا خازن من خزانك ، وعبد من عبيدك ، فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، وهو درة مجوفة سقائفها ، وأبوابها ، وأغلاقها ، ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة ، كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى ، في كل جوهرة سرر ، وأزواج ، ووصائف أدناهن حوراء عيناء ، عليها سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء حللها ، كبدها مرآته ، وكبده مرآتها ، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينيه سبعين ضعفاً ، فيقال له : أشرف . فيشرف ، فيقال له : ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك »(٢)

(د) أرضها :

ما تظن - أخى القارئ فى أرض الجنة ؟ هل هى من تراب أبيض أو أحمر ؟ وهل حصباؤها من حجارة ملونة ؟ وهل جدران مبانيها من لبن فى غاية الحسن والجمال ؟ كلا ، إنها أفضل من ذلك ، بل لا وجه للمقارنة ، يقول الصادق المصدوق ﷺ : «إنها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها «طينها» المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، ومن يدخلها ينعم

---

(١) سورة الإنسان آية ٢٠ - ٢٢

(٢) رواه الطبرانى والحاكم بسند صحيح ، وبنحوه فى صحيح مسلم

ولاييأس ، ويخلد ،ولايموت ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم »[١]

وقال ﷺ عن جنة عـدن : « خلق الله جنة عدن بيده ، لبنة من درة بيـضاء ، ولبنة من ياقوته حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، وملاطها المسك ، وحشيشها الزعفران ، حصباؤها اللؤلؤ ، ترابها العنبر ، ثم قال لها إنطقى قالت:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(هـ) خيامها :

فى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون ، من كل ضروب السعادة وصنوف النعيم ، ولذلك لا يستنكر أن يكون فيها خيام ، إذ فى الخيام متع ولذلك قال ربنا عز وجل : «حور مقصورات فى الخيام »[٣] والسؤال هو ما شكل تلك الخيام ؟ وما نوعها ، وما مدى حسنها وجمالها ؟ يجيبك على هذا النبى المعصوم فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها - فى السماء - ستون ميلاً، وعرضها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً »[٤]

(و) أسواقها :

وفى الجنة أسواق ، لأنها بها سرور وحبور ومتعة ، وليس بمستغرب أن تتوق نفس المؤمن فى الجنة إلى دخول سوق من الأسواق ، وخاصة الذين تعودوا الضرب فى الأسواق ، فيقول ﷺ : «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب

---

(١) رواه الترمذى والدارمى وأحمد وابن حبان بسند صحيح
(٢) رواه الطبرانى وابن أبى الدنيا .
(٣) سورة الرحمن آية ٧٢
(٤) رواه مسلم وكذا البخارى

ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً » (١)

(ز) أنهارها :

هذا وفى الجنة أنهار ، سبحان من خلقها ، إنها أنهار عظيمة تجرى بقدرة الله عز وجل من تحت أهل الجنة ، بلا خد ولا حد ، لا يختلط لبنها بعسلها ، ولا بخمرها أو مائها ، إنها أنهار أربعة ، كما قال ربنا عز وجل : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾(٢)

ومع هذه الأنهار العظيمة ، نهر الكوثر ، وما أدراك ما الكوثر ؟ إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته ، وهو أعظم أنهار الجنة وأحسنها ، كما وصفه ﷺ فقال «بينما أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر » (٣)

(ح) أشجارها :

ما أعظم أشجار الجنة : يقول النبى محمد ﷺ : «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا

(١) رواه مسلم
(٢) سورة محمد آية ١٥
(٣) رواه البخارى

مَّمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾(١)

ويحدث «ابن عباس» رضى الله عنهما - عن هذا الظل ، فيقول «الظل الممدود» شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون فى ظلها فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا »(٢) ويقول : نخل الجنة جزعها من زمرد خضر، وكربها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس فيها عجم »(٣)

وصدق ربنا عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾(٤)

(ط) خيلها :

فى الجنة خيل ، يركبها أهل الجنة

يقول عبدالرحمن بن ساعدة رضى الله عنه : كنت رجلاً أحب الخيل ،فقلت: يا رسول الله هل فى الجنة خيل ؟

فقال : إن أدخلك الله الجنة - يا عبد الرحمن - كان لك فيها فرس من

(١) رواه البخارى ومسلم ، والآيات من سورة الواقعة ٣٠ - ٣٤
(٢) رواه الترمذى وحسنه
(٣) رواه الحاكم وصححه ، وذكره المنذرى
(٤) سورة النساء آية ٥٧

الياقوت له جناحان يطير بك حيث شئت »[١]

ويقول ﷺ : «إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت ، لا تروث ولا تبول ، لها أجنحة خطوها مد البصر ، فيركبها أهل الجنة ، فتطير بهم حيث شاءوا »[٢]

(ي) واما عن تفاوت درجاتهم ، وتفاضل ما بينهم :

فذلك أمر لا يقدره إلا الله تعالى ، وذلك يكون بحسب كمال إيمانهم ، وكثرة صالح أعمالهم .

هذا وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام : «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين»[٣]

كما قال ﷺ : «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة «أى أفضلها » ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر - أو تنفجر - أنهار الجنة »[٤]

وفي رواية : «الجنة - مائة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام »[٥]

وقد روى :« إن أدنى أهل الجنة منزلة ، الذى ينظر إلى جنانه ونعيمه ، وخدمه، وسرره ، من مسيرة ألف سنة ، وإن أكرمهم على الله من ينظر إلى

---

(١) رواه الطبرانى ورواته ثقات
(٢) رواه ابن أبى الدنيا وسكت عنه المنذرى
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه البخارى وأحمد
(٥) رواه أحمد

وجهه غدوة وعشية »(١) ثم تلا هذه الآية

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٢) وله شاهد فى الصحيحين

وقد سبق الكلام عن أدنى أهل الجنة منزلة

وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾(٣)

وكذلك قال سبحانه :

﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾(٤)

وبين جزاء عباد الرحمن بقوله :

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾(٥)

وقال ﷺ : «إن فى الجنة لغرفًا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها، فقيل لرسول الله : لمن هى ؟

قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام »(٦)

ومن الحديث عن الجنة ، إلى الحديث عن النار ، ما هو طعام أهل النار وشرابهم ؟

---

(١) رواه أحمد بسند فيه ضعف ولكن له شاهد في الصحيحين

(٢) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة الزمر آية ٢٠

(٤) سورة سبأ آية ٣٧

(٥) سورة الفرقان آية ٧٥ ، ٧٦

(٦) رواه أبو داود والترمذي والطبراني بسند حسن

طعام أهل النار وشرابهم

هل لأهل النار من طعام ؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا ويشربوا ؟

نعم ، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة ، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون ، إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب ، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾(١)

ويتمنون الموت فلا يجدونه ، ويسألونه فلا يستجاب لهم :

﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(٢)

وكذلك : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾(٣)

ولذلك فهم يأكلون ويشربون ، كذا يلبسون ، ويفرشون .

فما هو طعامهم ؟

١ - الزقوم :

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت فى أصل الجحيم ، مذاقه مرٌّ شديد المرارة ، يغص فى الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم ، ومن خواصه أنه يغلى فى البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير الذى إن صب عليه الماء فار وغلا ، قال تعالى - فى بيانه :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ

---

(١) سورة النساء آية ٥٦
(٢) سورة الأعلى آية ١٢ ، ١٣
(٣) سورة فاطر آية ٣٦

نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[2]

وفى الحديث عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[3]

فقـال : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحـار الدنيا ، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه؟»[4]

٢ - الغسلين

وهو ما تجمع من عـصارة أهل النار من قيح ، وصديد ، وعـرق ، وما يخرج من فروج الزناة ، وما يسـيل من لعاب شاربى الخمـور ، والمغتابين ، والكذابين ، وقائلى الباطل ، وشاهدى الزور . وقد ورد ذكر الغسلين فى قوله تعالى :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾[5]

---

(١) سورة الصافات ، آية ٦٢ - ٦٧

(٢) سورة الدخان آية ٤٣ - ٤٦

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٢

(٤) رواه الترمذي وصححه

(٥) سورة الحاقة آية ٣٥ - ٣٧

والمراد من الخاطئين هنا الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك ، كما قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(١)

٣ - الضـريع :

وهو نبات مر ، نتن ، به شوك ، ينشب فى الحلق ، يسيغه الأكل بالحميم ، فيسبب له إسهالاً فظيعاً ، فلذا هو لا يسمن آكله ، ولا يغنيه من جوع ، أو لأنه يقف فى الحلوق لا يخرج ، ولا يستساغ كما قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾(٢)

وهذا الضريع أمر من الصبر ، وأشد حراً من النار ، لا يدخل البطن ، ولا يرتفع إلى الفم ، فيبقى بين ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣)

٤ - الغسَّاق :

وهو نتن بحيث لو أن دلواً أريق منه لأنتن أهل الدنيا ، قال تعالى :

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾(٤)

وأظنه من الشراب ، وليس من الطعام ، والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٨١
(٢) سورة الغاشية آية ٦ ، ٧
(٣) سورة المزمل آية ١٢ ، ١٣
(٤) سورة النبأ آية ٢٤ - ٢٦

وأما شرابهم

الشراب لازم لكل ذى كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد ، فلابد لهم من ماء يشربون ، كما لابد لهم من طعام يأكلون ، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة ، واستمرارها ، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها ، فلذا هم يأكلون ويشربون، ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش ، ولكن ليزيد فى محنتهم وطول عذابهم ، وقد سبق بيان بعض مآكلهم ، وهذا بيان بعض مشاربهم.

١ - الحميم :

وهو ماء حار يجري من عين آنية ، أى أن درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً ، ومن خواصه أنه يصهر به ما فى بطونهم ، ويقطع أمعاءهم ، قال الله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[2]

كما قال :

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[3]

---

(١) سورة الغاشية ، آية ٢ - ٥

(٢) سورة محمد آية ١٥

(٣) سورة الحج آية ١٩ - ٢٢

٢ - ماء الصديد :

وهو ماء كـدر ، يحوي كمـيات من الصديد ، يغص به شـاربه حتى لا يكاد يسيغه ، يعانى شاربه منه آلامًا لا يعلم مداها إلا الله تعالى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾[1]

ومع ذلك يشربه فيشوى وجهه ، ويوقع فروة رأسه ويقطع أمعاءه ، ويخرج من دبره .

٣ - مـاء المهـل :

وهو ماء ثخـين حار حتى لكأنه الـنحاس المذاب ، بحيث إذا أدنـاه أحدهم من فمه ليشربه ، شوت حرارته جلدة وجهه ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾[2]

٤ - ماء نهر الغوطة :

وهو ماء يتـجمع مما يسيل من فـروج الزواني من النسـاء ، كمـا قال النبى ﷺ «ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر ، ومن مات مـدمن الخمـر سقـاه الله ـ جل وعلا - من نـهر الغوطـة، قيل : وما نـهر الغوطة؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن »[3]

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٥ - ١٧ (٢) سورة الكهف آية ٢٩

(٣) رواه أحمد

هذا ، وننهى الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلى رواه الترمذي موقوفاً عن أبي الدرداء رضى الله عنه - حيث يقول « يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيتذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلاليب من الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، قال : فيقولون : أدعوا مالكاً : فيقولون : يا مالك ليقض علينا ربك : قال : إنكم ماكثون » قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ، قال : فيقولون : أدعو ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون :

«ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » قال فيجيبهم : «اخسئوا فيها ولا تكلمون » قال : فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير ، والحسرة والويل»[1]

وبعد أن ذكرنا طرفاً من طعام أهل النار وشرابهم ، ننتقل إلى الحديث عن طعام أهل الجنة وشرابهم . .

(١) رواه الترمذى ، باب صفة جهنم

طعام أهل الجنة وشرابهم

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى ، زعموا أن نعيم الجنة روحانى بحت ، لا شيء فيه من النعيم للجسم بالمرة ، وهذا المعتقد خطأ محض ، وباطل لا شك فى بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى ، وعن رسله عليهم السلام، وذلك لأن الأرواح التى يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقى إلا إذا كانت حالَّة فى أجسام تلائمها ، وتستقر فيها وتقوم بها ، ولأن الله قادر على ذلك ، كما هو فى الدنيا، كذلك فى الآخرة بصورة أجل وأكرم ، ولتفضيل الآخرة على الدنيا حتمًا ، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم فى الدنيا جثمانيًا وروحيًا ، وفى الآخرة روحيًا فقط ، وإذا كان العقل يحتم ذلك فإننا ندعمه بالأدلة السمعية الدينية الشرعية التى هى أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله ﷺ

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[1] والنبى عليه الصلاة والسلام

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2]

فربنا سبحانه وتعالى يخبر بما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فيقول وهو أصدق القائلين :

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ
مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢

---

(١) سورة النساء آية ٨٧

(٢) سورة النجم آية ٣ ، ٤

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[١]

وقال عز من قائل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[٢]

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[٣]

ويقول الرسول الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم : « أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يبولون ولا يتغوطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»[٤] .

ويقول : « إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة ،في كل واحدة لون ليس فى الأخرى مثله ، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها ، يجد

(١) سورة الزخرف آية ٦٨ - ٧٣

(٢) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١

(٣) سورة الواقعة آية ١٧ - ٢١

(٤) رواه مسلم ، وفى البخارى بنحوه

لآخرها من الطيب واللذة ما يجد لأولها ، ثم يكون ذلك ريح المسك الأذفر ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتمخطون »[١] .

وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[٢]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[٣]

وكذا قال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾[٤]

يا عبد الله : إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه ، فيخر بين يديك مشوياً .

وقال سبحانه : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[٥]

هذا ومما يأكله أهل الجنة ما ورد عن عبد الله بن سلام أنه سأل رسول الله ﷺ لما قدم المدينة عن أشياء منها : « وما أول شيء يأكله أهل الجنة ؟ فقال : زيادة كبد الحوت »[٦]

وفي رواية : « أن يهوديًا سأل رسول الله ﷺ قال : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد حوت » قال فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : يخر لهم

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني ، وقال المنذري رواته ثقات

(٢) سورة الحاقة ، آية ٢٤

(٣) سورة الإنسان آية ٥ ، ٦

(٤) سورة الإنسان آية ١٥ – ١٨

(٥) سورة المطففين آية ٢٥ – ٢٨

(٦) رواه البخاري

ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين تسمى سلسبيلا . قال : صدقت »[١] .

ومن شرابهم : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾[٢]

قال ابن مسعود : الرحيق : الخمر ، مختوم : يجدون عاقبتها ريح المسك .

وعن ابن عباس : «ومزاجه من تسنيم» قال : هو أشرف شراب أهل الجنة ، يشربه المقربون صرفًا ويمزج لأهل اليمين .

وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة بصفات جميلة حسنة ، ليست فى خمور الدنيا ، فذكر أنها أنهار جارية كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾[٣]

وكما قال تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[٤]

فهذه الخمرة أنهار جارية ، مستمدة من بحار كبار هناك ، ومن عيون تنبع من تحت كثبان المسك ، ومما يشاء الله عز وجل ، وليست كخمر الدنيا فى كراهة المطعم ، وسوء الفعل فى العقل ، ومغص البطن ، وصداع الرأس ، بل هى لذة للشاربين ، حسنة المنظر ، طيبة الطعم . ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[٥]

«لا فيها غول» وهو وجع البطن « ولا هم عنها ينزفون» أى لا تذهب عقولهم.

---

(١) رواه مسلم
(٢) سورة المطففين آية ٢٥
(٣) سورة الغاشية آية ١٢
(٤) سورة محمد آية ١٥
(٥) سورة الصافات آية ٤٥ - ٤٧

وإنما المقصود من الخمر إنما هو الشدة المطربة ، وهى حالة البهجة التى يحصل بها السرور للنفس ، وهذا حاصل فى خمر الجنة ، فأما إذهاب العقل ، بحيث يبقى شاربها كالحيوان أو الجماد ، فهذا نقص ، إنما ينشأ من خمر الدنيا ، فأما خمر الجنة فلا تحدث هذا ، إنما يحصل عنها السرور والابتهاج . ولهذا قال :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾(١)

أى لا يورث لهم صداعًا فى رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم . وفى الجنة أكواب: وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .

وأباريق : بخلافها من الوجهين .

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (٢) الكاس هو القدح فيه الشراب ، «دهاقا» أى ملأى مترعة ليس فيها نقص .

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾(٣)

أى لا يصدر عنهم فى شرابهم شىء من اللغو ، وهو الكلام الساقط التافه ولا تكذيب . كما قال ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ (٤)

وكذا قال : ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾(٥)

وأيضًا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾(٦)

يطوف بها الخدم والغلمان:

---

(١) سورة الواقعة آية ١٧ - ١٩
(٢) سورة النبأ آية ٣٤
(٣) سورة النبأ آية ٣٥
(٤) سورة الطور آية ٢٣
(٥) سورة الغاشية آية ١١
(٦) سورة الواقعة آية ٢٥ ، ٢٦

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[١]

من جمالهم وكثرتهم .

وقال ﷺ : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة »[٢] .

وكما عرفت شيئًا عن طعام أهل الجنة وشرابهم وكذا أهل النار ، فماذا عن لباسهم وفراشهم .

(١) سورة الإنسان آية ١٩

(٢) رواه البخارى ومسلم

لباس أهل النار وفراشهم

هل لأهل النار لباس ؟ وكيف تبقى عليهم ؟ وهل لهم فراش وغطاء؟

نعم ، إن لأهل النار لباسًا وفراشًا وغطاءًا ، كما ذكر ذلك القرآن الكريم .

فما هو لباسهم ؟

١ - ثياب من نار : قال تعالى :

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾[1]

وكان إبراهيم التيمى إذا تلا هذه الآية يقول : سبحان من خلق من النار ثيابا .

٢ - سرابيل من قطران : قال تعالى :

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[2]

وعن ابن عباس قال : فى قوله « قطران » هو النحاس المذاب .

وفى الحديث : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تأتي يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »[3] قيل : وقد اختير لهم القطران لأنه خبيث الرائحة، قبيح اللون ، شديد الإشتعال .

وما هو فراشهم وغطاءهم ؟

حكى القرآن الكريم أن لأهل النار فراشًا ، يسميه مهادًا وما هو بالمهاد ، فالمهاد شيء لين ، ولكنه سمى بذلك تهكمًا ، وغطاءً يسميه «غواش».

---

(١) سورة الحج آية ١٩

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٩ ، ٥٠

(٣) رواه مسلم

قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[١]

فالمهاد هو الفراش، والغواش هى اللحف .

كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾[٢]

قال الحسن : فراشًا ومهادًا ، وقال قتادة : محبسًا حصروا فيها .

وعن الحسن أنه كان إذا ذكر أهل النار قال فى وصفهم : قد حذيت لهم نعال من نار ، وسرابيل من قطران ، وطعامهم من نار ، وشرابهم من نار ، وفرش من نار ، ولحف من نار ، ومساكن من نار ، فى شر دار ، وأسوأ عذاب فى الأجساد، أكلاً أكلاً ، وصهرًا صهرًا ، وحطمًا حطمًا .

وقال وهب بن منبه : أما أهل النار الذين هم أهلها فهم فى النار لا يهدؤون ولا ينامون ولا يموتون ، ويمشون على النار ، ويجلسون على النار ، ويشربون من صديد أهل النار ، ويأكلون من زقوم النار ، فرشهم ولحفهم نار ، وقمصهم نار وقطران ، وتغشى وجوههم النار ، وجميع أهل النار فى سلاسل بأيدى الخزنة أطرافها يجذبون مقبلين ومدبرين ، فيسيل صديدهم إلى حفر فى النار ، فذلك شرابهم . قال : ثم بكى «وهب» حتى سقط مغشيًا عليه ، وغلب «بكر بن خيس» عند روايته هذا الحديث البكاء حتى قام فلم يقدر أن يتكلم ، وبكى «محمد بن جعفر» بكاءً شديدًا .

كما قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾[٣]

فهذا لباس أهل النار وفراشهم -أعاذنا الله منه- فما لباس أهل الجنة وفراشهم؟

---

(١) سورة الأعراف آية ٤١

(٢) سورة الإسراء آية ٨

(٣) سورة الزمر آية ١٦

لباس أهل الجنة وفراشهم

إن نعيم أهل الجنة ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب ، بل يتعداه إلى لبس الحلل ، والتحلي بالحلي ، والجلوس على الأرائك ، والتمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة .

١ - ما هو لباسهم :

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَهُدُوٓا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ ﴾(١)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(٢)

كما قال جل وعلا :

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾(٣)

وقال تعالى :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ

(١) سورة الحج آية ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة الكهف آية ٣١

(٣) سورة الإنسان آية ٢١

﴿ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[1]

وقال ﷺ : « تبلغ الحلة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[2] وقال الحسن البصرى : الحلة فى الجنة على الرجال أحسن منها على النساء .

فأهل الجنة مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر ، وعليهم أكاليل در ، وياقوت ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب ، جرد ، مكحلون .

وقال ﷺ : « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[3].

٢ - ما هى أسرتهم وفرشهم ؟

يقول الله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾[4]

كما قال سبحانه :

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[5]

وكذا قال ربنا :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[6]

---

(١) سورة فاطر آية ٣٣
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) رواه أحمد ، وبنحوه فى مسلم
(٤) سورة الواقعة آية ١٠ - ١٦
(٣) سورة الإنسان آية ١٢ - ١٤
(٦) سورة الرحمن آية ٥٤

قال ابن مسعود : بطائنها من إستبرق ، فكيف بظواهرها . أو قال : إذا كانت البطائن من إستبرق فما بالك بالظهائر ؟

وكذلك بين ربنا حال هذه الأسرة ، كما أنها موضونة ومبطنة ، كذلك هي «مرفوعة» ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾(١)

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾(٢)

والنمارق هي الوسائد والمساند مصفوفة ها هنا ، وها هنا في كل مكان في الجنة، والزرابي : البسط المفروشة

ومن خصائص تلك الأسرة أيضا ما ورد : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض ، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، ويسير سرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعًا ، فيتكىء هذا ويتكىء هذا ، فيقول أحدهم لصاحبه : أتعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كذا ، في الوضع كذا ، فدعونا الله تعالى فغفر لنا »(٣) .

وعلى تلك الأسرة يكون التمتع بالنساء « بالحور العين »

قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾(٤)

كما قال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥)

كذلك قال الله عز وجل :

(١) سورة الغاشية آية ١٣ (٢) سورة الغاشية آية ١٥ ، ١٦

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبزار ، وسكت عنه المنذري.

(٤) سورة الصآفات ، آية ٤٨ ، ٤٩

(٥) سورة الواقعة آية ٢٢ - ٢٤

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾[1]

أى أنشأهن الله بعد الكبر والعجز والضعف فى الدنيا ، فصرن فى الجنة شباباً طريًا أبكارًا عربًا أى متحببات إلى بعولهن ، أترابًا فى مثل أعمارهم ، لأصحاب اليمين .

ويقول ﷺ : « لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ، ولأضاءت ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها »[2].

كما قال ﷺ : « لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لملأت الأرض ريح مسك ، ولذهب ضوء الشمس والقمر »[3] .

« على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء »[4] ،« وإن عليهن التيجان ، وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب »[5] .

وهؤلاء الحور ، كما قال العزيز الغفور :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[6]

(١) سورة الواقعة آية ٣٤ ـ ٤٠
(٢) رواه البخارى بنحو هذا اللفظ
(٣) رواه الطبرانى والبزار بإسناد حسن
(٤) رواه الطبرانى بسند صحيح
(٥) رواه الترمذى وأحمد
(٦) سورة الرحمن آية ٥٦ - ٦٠

وهن كما قال الله : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1]

والعبقرى هى عتاق البسط أو أجودها وخيارها وحسانها .

وقال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾[2]

أى من الحيض والنفاس ، والبول ، والغائط والبزاق والمخاط ، لا يصدر منهن شيء من ذلك ، وكذلك طهرت أخلاقهن وأنفاسهن وألفاظهن ولباسهن وسجيتهن .

* ومع هذا كله تغنى الحور العين بغناء لم تسمع الخلائق بمثله .

يقول ﷺ : « إن فى الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات ، فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له »[3]

وكذلك ورد : « إن فى الجنة نهرًا طول الجنة ، حافتاه العذارى قيام متقابلات، يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق ، حتى ما يرون فى الجنة مثلها ، قيل لأبى هريرة : ما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس والثناء على الله عز وجل »

---

(١) سورة الرحمن آية ٧٠ -٧٨

(٢) سورة البقرة آية ٢٥

(٣) رواه البيهقى والترمذى وقال غريب

قال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)

* هذا ومع وجود الأسرة فى الجنة ، والفرش ، لكن أهل الجنة لا ينامون لئلا يشتغلوا بالنوم عن الملاذ والحياة الهنية ، وطيب العيش ، ولذلك ورد أن رسول الله ﷺ قال : النوم أخو الموت ، وإن أهل الجنة لا ينامون »(٢) .

وبعد - أخى المسلم الكريم - كما ذكرنا هذا الذى ذكرناه عن أهل الجنة وأهل النار ، فإننا نجمل صوراً من العذاب ، أو ألواناً من النعيم ، قد ذكرت فى القرآن الكريم ، وفى السنة المطهرة فيما يأتى :

(١) سورة الزمر آية ٣٤

(٢) رواه الطبرانى والبيهقى

صور من عذاب أهل النار

١ - عذاب أهل النار بالتوبيخ والتقريع والتأنيب :

ما إن تستقر تلك الجماعات الهالكة ، والزمر الخاسرة فى جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين ، حقيرين ، ذليلين ، حتى ينزل بهم عذاب نفسانى أليم ، مهين ، ذلك هو عذاب التوبيخ واللوم والتقريع ، والتأنيب الذى يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم ، مثل قولهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (١)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (٢)

ويقال لهم ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٣)

﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

وكذلك ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (٥)

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل ، وما ذكرناه قليل من كثير .

وأما تلاومهم فحدّث ولا حرج ، ويكفينا أن نصغى إلى بعض الآيات القرآنية التى سجلت تلاومهم بأمانة وصدق ، فنسمع خاشعين إلى قول رب العالمين - وهو يخبر عنهم - فيقول :

(١) سورة الملك ، آية ٨
(٢) سورة الزمر ، الآية ٧١
(٣) سورة الطور ، آية ١٤
(٤) سورة الطور ، آية ١٦
(٥) سورة النبأ ، آية ٣٠

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(١)

ويقول :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٢)

ويقول تعالى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ

(١) سورة الأعراف ، آية ٣٨ ، ٣٩

(٢) سورة سبأ آية ٣١ - ٣٣

عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾(١)

ويقول سبحانه :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾(٢)

٢ - خطبة إبليس فى أهل النار :

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال فى غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب وأفصحها وأشدها أثرًا ووقعًا في نفوس سامعيها -أقمأهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب - فقد ينصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه ، فيزيدهم فى كربهم ، وطول حزنهم ، وشدة إبلاسهم ، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة ، والحسرة القاتلة ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبليسية ، فلنستمع إليها : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا

(١) سورة الصافات آية ٢٧ - ٣٣

(٢) سورة ص ، آية ٥٥ - ٦٤

كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)]

٣ - بكاء أهل النار وعويلهم :

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام ، ومقاساة الشدائد والأهوال ، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص ، ويتذوقون من العذاب ، حزنهم دائم، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف ، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل ، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح ، فهم يتضاغون فيها ويصطرخون ، ويدعون بالويل والحسرة والثبور .

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾[(٢)]

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾

فترد الملائكة عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[(٣)]

وفي الحديث « إن أهل النار يبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم ، يعني مكان الدمع »[(٤)]

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ (٢) سورة الفرقان ، آية ١٣

(٣) سورة فاطر ، آية ٣٧

(٤) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي

ويأخذ أهل النار فى النداء مع العويل

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾[١]

فيدعون مالكًا فيقولون : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾[٢]

فينادون على الله عز وجل ، فيقولون ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

فيجيبهم الله تعالى بقوله : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[٣]

فعند ذلك ينقطعون عن الكلام ، فيزداد عليهم العذاب ، لأنه كان لهم فى الكلام متنفس ، وقد منعوا منه ، ثم يتصل عذابهم لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا لحظة ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[٤]

وكذلك ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[٥]

٤ - ومن أشد ألوان العذاب لأهل النار :

أنهم يحرمون من رؤية الله عز وجل، ويحجبون عنها ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة غافر ، آية ٤٩ ، ٥٠
(٢) سورة الزخرف ، آية ٧٧
(٣) سورة المؤمنون ، آية ١٠٦ - ١٠٨
(٤) سورة الإسراء ، آية ٩٧
(٥) سورة السجدة ، آية ٢٠

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1]

* وبعد أن عرفت صورة مجملة عن عذاب أهل النار ، نختم حديثنا ببعض نعيم أهل الجنة ، نسأل الله حسن الخاتمة ، ونسأله الجنة وما يقربنا إليها من قول أو عمل ، ونعوذ به من النار وما يقربنا إليها من قول أو عمل .

(١) سورة المطففين ، آية ١٥ ، ١٦

صور من نعيم أهل الجنة

١ - عند باب الجنة : ماذا عند باب الجنة ؟

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عـينان ، قد خصصت إحداهما لشـراب الداخلين ، وثانيـتهـما لتـطهيـرهم ، فـإذا شربوا من الأولى جـرت في وجوههم نـضرة النعيم ، فـلا ييأسـون أبدًا ، وإذا اغتسـلوا من الثانية لـم تشعث أشعارهم أبدًا ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا ، قول الله تعالى :

﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[١]

وفي الحـديث ، يقول الرسـول ﷺ : « وإذا شجـرة على باب الجنة ينبع من أصلها عـينان ، فإذا شـربوا من إحداها جـرت في وجوههم نضرة الـنعيم ، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدًا »[٢] .

* هذا ، وإن ملائكة الـرحمن لتسـتقـبل وفود الرحمن عند دخـولهم إلى دار السلام ، وأول المستقبلـين هو «رضوان» خازن الجنان ، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله ، قال تعالى :

﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[٣]

كما قال سبحانه :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾[٤]

وقال أيضًا : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[٥]

(١) سورة الإنسان آية ٢١

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهما مرفوعاً ، وعن علي موقوفاً عليه ، وهو أصح وأشهر

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٣ (٤) سورة الزمر آية ٧٣

(٥) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤

فشتان شتان بين استقبال الملائكة لأهل الجنة ، واستقبالهم لأهل النار .

* هذا وفى الوقت الذى يتلاوم فيه أهل النار ، يكون حال أهل الجنة ، كما قال ربنا صاحب المنة :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(1)

يلقى بعضهم التحية والسلام على بعض ، كما قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(2) .

فهذا سلام المؤمنين ، ومن قبله سلام الملائكة ، ولهم من قبل ذلك ومن بعد ذلك ، وأفضل من ذلك - السلام من ربهم السلام

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾(3)

---
(1) سورة الحجر آية ٤٥ - ٤٨
(2) سورة يونس آية ٩ ، ١٠
(3) سورة يس آية ٥٥ - ٥٨

كما يلحق الله عز وجل الذرية بالآباء ، وكذا الآباء بالذرية ، من كان فى درجة أدنى إلى من هو فى درجة أعلى ولا يكون العكس منه ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾(١)

٢ - إن الجنة فيها - بإخبار الله تعالى - ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين ، أو تسمع به أذن ، أو يخطر على قلب بشر ، كما جاء ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢)

ويقول النبى ﷺ - فيما يرويه عن رب العـزة جل وعلا - : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(٣) .

ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٤)

٣ - هذا وثمار الجنة - نسأل الله تعالى أن يطعمنا منها بمنه وكرمه آمين - أنواع وألوان : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾(٥)

---

(١) سورة الطور آية ٢١ (٢) سورة الزخرف آية ٦٨ - ٧٢

(٣) رواه مسلم

(٤) سورة السجدة ، آية ١٧

(٥) سورة الرحمن آية ٦٨

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾[1]

وهو قريب فى متناول اليد والفم ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[2]

وكذلك ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[3]

وهى لا تنقطع فى فصل من الفصول ، ولا تمتنع لسبب من الأسباب .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[4]

كما قال تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[5]

وصدق ربنا عز وجل : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[6]

وقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[7]

وقال سبحانه :

---

(١) سورة الرحمن آية ٥٢
(٢) سورة الرحمن آية ٥٤
(٣) سورة الإنسان آية ١٤
(٤) سورة الواقعة آية ٣٢ ، ٣٣
(٥) سورة الرعد آية ٣٥
(٦) سورة البقرة آية ٢٥
(٧) سورة المرسلات آية ٤١ - ٤٤

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ليس فى الجنة من الدنيا إلا الأسماء » .

وإذا كان السدر الذى فى الدنيا وهو لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة ، وهو النبق ، وشوكه كثير ، والطلح الذى لا يراد منه فى الدنيا إلا الظل ، يكونان فى الجنة فى غاية من كثرة الثمار وحسنها ، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعًا من الطعوم والألوان . التى يشبه بعضها بعضًا ، فما ظنك بثمار الأشجار التى تكون فى الدنيا حسنة الثمار كالتفاح ، والنخل والعنب ، وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين والأزاهير ؟ وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله من فضله[2] .

٤ – وعن أعظم نعيم روحانى يتم لهم فى دار السلام ، كما جاء عن النبى ﷺ يقول : « إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم ملك فيقول لهم : إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه ، فيجتمعون ، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام ، فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل ، ثم توضع مائدة الخلد ، قيل يا رسول الله : وما مائدة الخلد ؟ قال : زاوية من زواياها أوسع مما بين المشرق والمغرب ، فيطعمون ثم يكسون ، فيقولون : لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل ، فيتجلى لهم فيخرون سجدًا ، فيقال : لستم فى دار عمل ، إنما أنتم فى دار جزاء »[3] .

وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[4]

(١) سورة الواقعة آية ٢٠ – ٢٤
(٢) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير ج٢ ص ٣١٠
(٣) رواه أبو نعيم ، وسكت عنه المنذرى
(٤) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣

ويقـول ﷺ « بينمـا أهل الجنة فى نعيـمهم إذ سطـع لهم نور ، فـرفعـوا رؤوسهم، فإذا الرب جل جـلاله ، قد أشرف عليهم من فوقهم ، فـقال السلام عليكم يا أهل الجنة ، فلا يلتفتون إلى شىء مما هم فـيه من النعيم ماداموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم ، وتبقى فيهم بركته ونوره »[1]

وصدق ربنا عز وجل

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2]

ويقول ﷺ «إن اللـه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة ، فـيقولـون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقـول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقـد أعطيتنا مـا لم تعط أحدًا من خلقك ، فـيقـول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فـيقولون يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فـيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[3]

وكما قال ربنا عز وجل

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾[4]

وفى الصحيح « إنكم سترون ربكم عـيانًا ، كما ترون هذا القمر ، لا تمارون فى رؤيته ،فإن استطعتم فداوموا على الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[5]

وإن الأبرار الأخيـار ليرون ربهم عز وجل وهم على أرائكهم وسررهـم ، كما

(١) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذرى
(٢) سورة يونس آية ٢٦
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) سورة المطففين آية ٢٢ - ٢٤
(٥) رواه البخارى وغيره

يرى القمر فى مثل هذه الأحوال ، يرون الله تعالى أيضًا فى المجمع الأعم الأشمل، وهو فى مثل أيام الجمع ، والتى تسمى بيوم المزيد وإنما سميت بيوم المزيد ، لأن أهل الجنة يزادون فيها ، رؤية الله عز وجل ، فيزدادون كرامة

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [1]

كما قال تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [2]

وعن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة: إن لكم عند الله وعدًا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم تثقل موازيننا، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وتزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم »[3] .

وخطب « أبو موسى الأشعرى » خطبة على منبر البصرة ، فقال : « إن الله يبعث يوم القيامة ملكًا إلى أهل الجنة ، فيقول : يا أهل الجنة : هل أنجزكم الله ما وعدكم ؟ فينظرون ويرون الحلى والحلل والأنهار والأزواج المطهرة ، فيقولون نعم ، قد أنجزنا ما وعدنا ، يقولون ذلك ثلاث مرات ، فيقول قد بقى شىء إن الله يقول ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ ألا إن الحسنى الجنة ، والزيادة هى النظر إلى وجه الله عز وجل »[4] .

فهذه بعض صور من نعيم الجنة ، فهلا من مشمر لها ، ومستعد لدخولها ؟

يقول ﷺ : « ألا مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا مثل لها ، وهى - ورب

(١) سورة ق آية ٣٥ (٢) سورة يونس آية ٢٦
(٣) رواه مسلم وأحمد (٤) موقوف

الكعبة - نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمر نضيج ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة فى مقام أبد ، فى دار سليمة ، وفاكهة وخضر ، وجيرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية ، قالوا يا رسول الله : نحن المشمرون لها ، قال : فقولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله »(١) .

وصدق ربنا عز وجل وهو يدعونا إلى الجنة :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾(٢)

ويرغبنا فيها : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)

كذا قال : ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٤)

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٥)

---

(١) رواه البزار وقال لا نعلم له طريقاً إلا هذا ، ورواه ابن ماجه بنحوه.
(٢) سورة يونس آية ٢٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٣٣
(٤) سورة الحديد آية ٢١
(٥) سورة التوبة آية ١١١

وقال ﷺ : « حـفت الجنة بالمكاره ، وحـفت النار بالشـهوات »[١] فاللهم نسألك الجنة ونعوذ بك من النار

هذا ، فمـا أعظم وصف الجنة ، وما أطيب ريحها ، ونورها ، وبهـاءها ، وما أطيب فناءها ، وما أحـسن منظرها ، ولكنها حفت بالمكاره وهى الأعمـال الشاقة من فعل الخيـرات وترك المحرمات ، وملذات الدنيا وشهـواتها - على النقيض من النار التى حـفت بالشهـوات - هذا والكلام عن الجنة يمكن أن يطول ، ويطول ، فـلا تتـسع المجلدات لذكـره ، ولكنـهـا الإشارات الـتى تغنى عن العـبـارات ، والعبـارات التى اختـصرت المطولات . فنسأل الله الجنة بفـضله وجوده وكـرمه ، اللهم آمين .[٢]

فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد

(٢) راجع بتوسع :

(أ) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد للشيخ حافظ بن أحمد حكمى ج ٢ ص ١٨٠ - ٢٦٥ مكتبة زهران .

(ب) النهاية فى الفتن والملاحم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى ج١ ، ج٢ ط دار التراث الإسلامى

(ج) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ٣٣٤ - ٣٩١ ط مكتبه الكليات الأزهريه

(د) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٢٢٧ - ٢٧٢ ط الفتح للإعلام العربى

(هـ) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم

(و) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار للحافظ أبى الفرج ابن رجب الحنبلى

(ز) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبى ج١ ، ج٢

(ح) رحلة فى رحاب اليوم الآخر للشيخ عبد العظيم بن بدوى الخلفى

(ط) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية للشيخ أحمد فريد ص ٢١٤ - ٢٢٠ ط مكتبة التوعية الإسلامية

(ى) الإيمان - أركانه - حقيقته . الدكتور محمد نعيم ياسين ص ٥٨ - ٩٧ .

(ك) مشاهد القيامة فى القرآن للشيخ سيد قطب

(ل) الجزاء - الجنة - النار محمت صدقى ص ٦٧ - ٨٩ ط دار الإعتصام

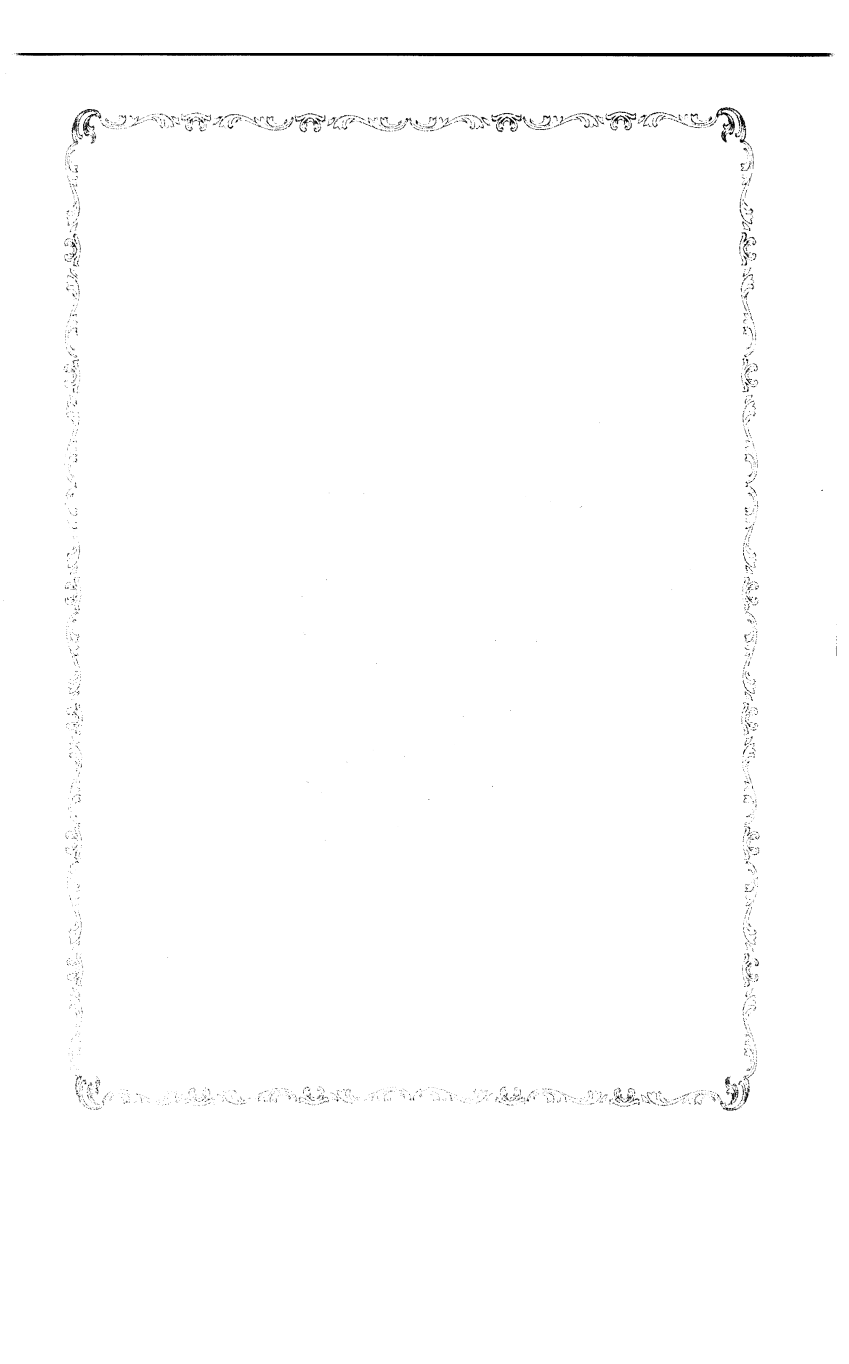
(م) أهوال القيامة كما يصورها القرآن والسنة للشيخ عبد الملك على الكليبي

(ن) القيامة رأى العين . للشيخ محمد محمود الصواف

الباب الخامس

الإيمان بالقضاء والقدر

* أعداء الإسلام يحاربون عقيدة القضاء والقدر
* معنى القضاء والقدر
* أنواع القضاء والقدر
* نزاع الناس حول القضاء والقدر
* مراتب القضاء والقدر
* وجوب الإيمان بالقضاء والقدر
* مسائل فى القضاء والقدر
* حكمة الإيمان بالقضاء والقدر
* ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر



الركن السادس :

« من أركان الإيمان » : الإيمان بالقضاء والقدر

تمهيد حول القضاء والقدر :

إنه ماتزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الإنقلاب العظيم وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية ، وخلخلتها للكيان البشري المهزوز .

منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أطاح بصروح الباطل ، ودك عروش الشر والكفر والفساد ما تزال العقيدة الإسلامية تستهدف للطعن الشديد ، وتتعرض للنقد القاسي المرير ، من خصومها الألداء ، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء ، علمًا منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدى أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية .

فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها . ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين ، ويومها فقط تسنى لهم أن يوقفوا تيارها ، ويقطعوا أسلاك أنوارها ، فتعود الظلمة إلى العالم الإنسانى ، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الردى ،وأسقطتها في جحيم لا يطاق .

وعقيدة « القضاء والقدر » هى أحد أجزاء العقيدة التى لقيت ضربات عنيفة، وتعرضت لطعن عنيف ، وتشكيك سخيف ، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب ، حتى إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدي مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر ، والقول بالجبر ، ومذهب الاعتزال والتشيع ، ونجم الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وتعرضت الأمة الإسلامية بعقائدها ، وبلادها ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التى زلزلت كيانها ، تتهاوى تحت ضربات الحانقين ، وطعنات الناقمين .

ولما هوى ذلك النجم الذى أضاء المعمورة وغمر الحياة بالهدى والخير ، قال الذين كفروا - تشفيًا من الإسلام ، وإمعانًا في الإجرام - إن ما أصاب المسلمين من الإنهيار والسقوط ، بعد التفكك والضعف الكبير ، كان نتيجة بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر « عقيدة القضاء والقدر » ، وكان ذلك منهم إفكًا مفترىً، وكذبًا مقلوبًا ، مشوهًا للحقيقة .

إذ الواقع هو أن الذي أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون ، لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب ، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الغير صحيح ولا المطلوب ، وذلك بما دس فيها الأعداء ، وما شوهوها به من تأويل باطل وتحريف سخيف قضى عليها، وأماتها في نفوسهم أوكاد .

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسىً وحزنًا ، إن أعداء الإسلام ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم ، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها ، فضعفوا لذلك ، وهانوا ، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستجيبين لها .

ومن المؤسف حقًا أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يعرفوا داءهم ، ولا ماكادهم به أعداؤهم ، إذ أننا نرى كثيرًا منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه ، وتهربه من مسئولياته ، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره ، وميسره إلى ما خلقه له ، فينسب إليه تعالى الظلم، ويعترض عليه في قضائه ، وأقداره وعادل أحكامه .

ومن هنا فقد رأيت أن أعتني بهذا الجزء من عقيدة المؤمنين ، أو الركن السادس من أركان الإيمان ، مع توضيحه وتبسيطه قدر الإمكان ، عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم فى بلبلة فكر ، واضطراب نفسي ، أو مرض قلبي حول عقيدة القضاء والقدر فتنقطع بلبلة أفكارهم ، ويزول اضطراب نفوسهم ، وأمراض

قلوبهم، فيؤمنون بالقضاء والقدر ويرضون ، ويعملون بطاعة الله ورسوله ، فينجون ويسعدون ، والله الهادي إلى سواء السبيل . [١]

أولاً : معنى القضاء والقدر :

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان ، وهو الركن السادس ، فمن كفر بقدر الله خرج من دين الله عز وجل . هذا وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر فمنهم من جعلهما شيئًا واحدًا ، ومنهم من عرف القضاء تعريفًا يغاير القدر.

فقال : القضاء : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته .

والقدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل .

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر ، وتعريف القدر للقضاء ، والأمر محتمل ، ومن عرفهما تعريفًا واحدًا ، فقال : هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها » [٢]

أقول : والكلام محتمل ، لأن القضاء والقدر كلمتان مترادفتان ، وبينهما عموم وخصوص ، فإذا ذكر أحدهما دخل فيه الآخر ضمنًا ، ويكون بمعناه ، وإذا اجتمعتا في نص واحد فلا شك أن يتغاير المعنى ، فيصبح القضاء هو علم الله تعالى الأزلي السابق .

والقدر وقت تحققه ووقوعه مثلاً ، والله أعلم .

« هذا وقد قال الإمام أحمد عندما سئل عن القدر : هو قدرة الرحمن»

وقال ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية :

(١) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٤٠٣ - ٤٠٥ بتصرف .
(٢) الإيمان أركانه - حقيقته ، محمد نعيم ياسين ص ٩٨ بتصرف .

فحقيقة القدر الذي حار الورى | في شأنه هو قدرة الرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد | لما حكاه عن الرضى الرباني

والإيمان بالقدر إيمان بعلم الله القديم ، وبمشيئته النافذة ، وقدرته الشاملة »[1]
وقال النووي : إن الله تعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه ـ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة : فهي تقع حسب ما قدرها[2]

وقيل : القدر هو سر الله تعالى المكتوم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، مكتوب في اللوح المحفوظ في الكتاب المكنون الذي لا يطلع عليه أحد ، ونحن لا نعلم بما قدره الله لنا أو علينا ، أو بما قدره الله تعالى في مخلوقاته إلا بعد وقوعه أو الخبر الصادق عنه [3]

وخلاصة القول : هو علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم ، والخلائق والأحداث والأشياء وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضى بوجوده في كميته وكيفيته ، وصفته وزمانه،مكانه وأسبابه ، ومقدماته ،ونتائجه ، بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانه « وقته وزمانه » ولا يتقدم عما حدد له من زمان ، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان ، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال .

وذلك : لسعة علم الله تعالى ، وعظيم قدرته ، فما شاء الله كان وما يشأ لم يكن ، ولربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علوية وسفلية على حد سواء. [4]

(١) الإيمان أركانه حقيقته ص ٩٩ بتصرف .
(٢) العقائد الإسلامية ، سيد سابق ص ٨٣
(٣) الإيمان أركانه حقيقته ص ٩٩ بتصرف
(٤) عقيدة المؤمن ص ٤١٧ - ٤١٨ بتصرف .

ثانياً : أنواع القضاء والقدر : نوعان

النوع الأول : القدر المسَلّم به أو القدر المبرم

وهو القـدر المـرتبط بخلق الكون والـنظام الذي ربط به والسنن الـتي تحكم كل أجزائه ومـا في ذلك من الدقة والإحـكام ما يثيـر الدهشة والعـجب ، في الكون كله، علويه وسـفليـه ، وسـواء كـان في الإنسـان ، أو الحيـوان أو النبـات أو الجمادات، أو ارتبط بالشمس أو القمـر أو النجوم وسائر الكواكب ، على مر هذه الحياة الطويلة ، والآفـاق الواسعة إنما هو مربوط بسنن لا تتبدل ، وبنظـم لا تتغير تسير إلى غايات مـحددة لها ، وكل ذلك إنما السر فيه هو القـدر الإلهي والتقدير الأولي ، والعلم الشمولي ، الذي هو القضـاء والقدر ، والذي لا يتم إيمان العبد إلا به .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(1)

كما قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(2)

وكذلك ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾(3)

وقال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾(4) سبحان ربي الأعلى .

---

(1) سورة الحجر آية ١٩ - ٢١ .
(2) سورة القمر : آية ٤٩.
(3) سورة الفرقان : آية ٢ .
(4) سورة الأعلى : آية ١ - ٣ .

فهذا النوع من القدر سلم به العقلاء ، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى ، ولم ينكره أحد ، أو يمار فيه آخر .

ومثل هذا النوع من القدر ما كان من خلق العالم ، وما فيه من سنن ، وكل ما يجرى فيه من أحداث كالحياة والموت ، والقحط والجدب ، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميمًا ، طويلاً أو قصيرًا ، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة ، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً .

وكذا تحديد رزقه ، وتقدير أجله .

وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به ، يجب الرضى به والتسليم لله تعالى فيه ، فإنه على وفق رضى الله تعالى ، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقة وإنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة عالية مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى ، ومطلق التسليم [1] .

النوع الثاني : القدر المختلف عليه ، أو المعلق

وهذا النوع من القدر ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ولاقدرة له على دفعها أو تغييرها ،إذ هي جارية على نظام السنن التى قال تعالى فيها : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [2] .

وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد ، حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها والمرتبط بقضية الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، والثواب والعقاب ، وهذا النوع هو الذي اختلف عليه ، وأثيرت حوله الشبهات ، لمن لم يحسن فهمه ،

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٤١٧ - ٤٢٠ بتصرف .

(٢) سورة فاطر : آية ٤٣

وأول ما ظهر القول فيه كـان في حدود المائة الأولى من الهجرة ، وأول من أظهره ودعا إلـيه ، وقـال به « غيـلان الدمشـقي » الذي قتله « هشـام بن عبـد الملك » لزندقته .

وهذا لا ينافي ما روي مـن أن القول بنفي القدر كـان في أواخر أيام الصـحابة رضي الله عنهم إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليـهم من وجد من أصـحاب رسول الله ﷺ كـابن عمر ، وابن عـباس رضي الله عنهم ، حتى قضوا عليه ، وأخمدوا نار فتنته إلى حين (١) .

وصـار الناس بعد ذلك . في هذا النوع مـن القدر ـ أصنافًا وفـرقًا ، منهم من ينكرذلك القدر ، أو من يؤمن به ويفهمه فهمًا خاطئًا .

وذلك على النحو التالي :

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢١ - ٤٢٢ بتصرف .

نزاع الناس حول القضاء والقدر

أولاً: «القَدَرِيَّة»: هم أول من تكلموا فى مسألة «القضاء والقدر» وأول من قال به «غيلان الدمشقي» أخذه عن سنسويه النصرانى فنفوا القدر المتعلق بأفعال العباد، وقالوا: لم تـقض أزلاً، ولم تكتب فى كتـاب المقادير، أى اللوح المحـفوظ الذى كتب الله فـيه كل شيء، وزعموا أن الله لم يعلمـها قبل وجودها وقالـوا قولتهم المشهورة: «لا قدر، والأمر أنف» أى نفوا القدر المتعلق بأفعال العباد، والأمر أنف أى مستأنف، لم يعلمه الله قبل وقوعه.

وقد أخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن هؤلاء النفر أو تلك الطائفة فقال لمن أخبره بذلك : « إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به « عبد الله بن عمـر » لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفق في سبيل الله ما قُبل منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم ذكر الحديث الذي سمعه من أبيه « عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل . . . . . الحديث »[1]

ومما زعمته تلك الطائفة أن العبـد يخلق أفعاله بنفسه ، وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ولا عـمل ، وأن أعمال الـعباد لم تقـدر ولم يعلمهـا الله تعالـى قبل وجودها .

وقالوا : كيـف يفعل الله القـبيح وهو ينهى عنه ويـحرمه ، وهذا هـو أساس شبهـتهم التي بنوا عليهـا مذهبهم في كون الـله تعالى لم يخلق أفعال العـباد ولم يقدرها لهم أو عليهم وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله .

وأضافوا إلى شـبهتهم هذه شبـهة أخرى وهى قولهم : كيـف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقـبهم عليها » وأصبحـوا بهذا يعرفون « بالقَدَريَّة » أي نفاة الـقدر ،

---

(١) رواه الجماعة .

ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح ربًا يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، وبطل بذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سمو بمجوس هذه الأمة ، لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه ، لا بمقتضى قدرة الله وعلمه .

وكفروا بذلك لإنكارهم القدر الذي تضافرت نصوص الكتاب والسنة في إثباته بحيث يعد منكرها كافرًا ، لا مقام له بين المسلمين .

ولكن للعلم نقول : يبدو أن هذه الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها ، وذهب باطلها ، وانتهت نهائيًا من الوجود »[1] .

ثانيًا : « الجبرية » :

وهم على العكس من القدرية نفاة القدر ، وهم طائفة من المعتزلة ، وأول من ظهر منهم « الجعد بن درهم » وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام ، وتلقاه عنه « الجهم بن صفوان » رئيس الطائفة الجهمية ، نفاة الصفات المعطلين .

وحقيقة مذهب الجبر : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ، فهي نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار ، إذ هي أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ولا اختيار .

ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله ، وأنه لا يعاب منه فعل ، ولا يلام عليه ولو كان في غاية القبح والفساد ، ومهما ارتكب من معاصي ، أو اقترف من الذنوب وتجعله معذورًا أمام نفسه ، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحت منفعلاً لما يختار ... مني ففعلي كله طاعات

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٢ - ٤٢٤ بتصرف .

وأصبح كثير من الناس يتقاعسون عن العمل ، ويقعدون عن كل خير ، ويبررون ذلك بمثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزقك ويُرزق في غيابته الجنين

فالعبد لا قدرة له ولا اختيار وإنما هو مسير لا مخير ، كالريشة في مهب الريح، وكالشجرة تعصف بها الرياح ، فهو مجبر على كل شيء ، لا فرق بين فعل اختياري وآخر إجباري .

تلك خلاصة المذهب الجبري ، وهو - كما ترى - أفسد وأشد شرًا من سابقه الذى هو مذهب القدرية .

والذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضررًا وفسادًا من عقيدة نفي القدر ، فقد ظلت ظاهرة في المسلمين ، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها ، ولا رغبة فيها ، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقى التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي أو يقترف من الذنوب ، وكلما ضل العبد ،أو سلك طريق الضلال فإنه يحتج بأن الله أراد له ذلك ، وعند الطاعة تراه ينسب ذلك إلى نفسه وإلى فعله .

فما هذا ، أيجدر بالإنسان أن يكون عند الضلالة جبريًا ، وعند الطاعة قدريًا ؟ كلا ، لا يليق بالإنسان ذلك ، وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع ، فضعفوا وهانوا ، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر، حتى أصبحوا مضرب المثل في العجز والكسل ، والتخلف في ميادين العمل والإنتاج .

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل ، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة ، أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ، ماذا كان

يحدث للحياة كانت ؟ تنتهي وكفى !! (١)

ثالثًا : الإبليسية : وهى فرقة حيرى مترددة ، تنسب إلى إبليس

زعمت أنه مادام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾(٢)

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » (٣)

فكيف يجوز إذًا عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتمًا ، ثم يؤاخذه عليها ؟

بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحًا فقالوا : مادام الله تعالى قد علم مصير العبد ، وقرره ، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام « اللوح المحفوظ » ، وأصبح العبد لامحالة صائرًا إليه شاء أم أبى ، أحب أم كره ، فكيف يؤمر العبد إذًا وينهى ، ويطالب بفعل الطاعات ، وترك المعاصى ، والأمر قد بت فيه ، وفرغ منه ، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له نهاية ، فمثل هذا يؤمر وينهى ، ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونهى عنه ، وعدمها .

فهذا ملخص المذهب الثالث ، وإنه ليبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه .

ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شرًا من إبليس ، ألا وهو الاعتراض على الله تعالى ، ونسبة الظلم إليه ، وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٥ - ٤٢٦ بتصرف .
(٢) سورة النساء : آية ٤٠ .
(٣) رواه مسلم .

نقص، سبحانه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

فسبحان الله : ماذا يفعل التضليل بالناس : وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التى هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة ، المدمرة في العالم ، كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية ، الناقمين عليها ، ومن هنا فإني لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر ، كهذا المذهب الإبليسي وكمذهب التشيع ، وأكثر طرق التصوف ، الكل طبخ في مطابخ اليهود وقدم طعامًا مسمومًا للمسلمين ليموتوا به ، ويهلكوا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [1] .

رابعًا : « أهل السنة والجماعة »

وهم الذين آمنوا فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، لقد سلكوا في ذلك مسلكًا وسطًا ، بعيدًا عن الغلو والتسيب ، والإفراط والتفريط، فالقدرية قد جفوا، والجبرية قد غلوا ، وهدى الله السلف الصالح لمعرفة الحق والصراط المستقيم ، ووفقهم الله تعالى للتوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله ، مريدًا لها مختارًا فيها ، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيرًا ، وللعقاب عليها إن كانت شرًا ، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها ، مع اعتقاد عدل الله وتنزيهه عن الظلم .

وقد قام هذا المذهب على الدليل الشرعى من القرآن والسنة .

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر ، والعدل والإرادة ، والمشيئة ، والحكمة، ولم يصعب عليهم ـ كما صعب على غيرهم ـ التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى ، وكتبه عليه وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء ، وبين كون العبد فاعلاً لفعله ، مريدًا له مختارًا في فعله وفى تركه ، يحاسب به ، ويجزى

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٨ - ٤٣٠ بتصرف .

عليه ، ولا بين كون الله يقضي للعبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ، ويجزيه حسب عمله الذي قدر له ، وكتبه له أو عليه .

فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، وسعادة أو شقاء ، قد قدره مربوطًا بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به .

فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مكره عليها ، ولا مجبورًا على فعلها [1]

والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختياره ، وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار ، فالإنسان ينزل من السطح بالسلم نزولاً اختياريًا يعرف أنه مختار .

ولكنه يسقط هاويًا من السطح ، ويعرف أنه ليس مختارًا في ذلك .

ويعرف الفرق بين الفعلين ، وأن الثاني إجبار ، والأول اختيار ، وكل إنسان يعرف ذلك ، وكذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض كسلس البول مثلاً ، فإن البول يخرج منه بغير اختياره ، وإذا كان سليمًا من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره ، ويعرف الفرق بين هذا وذاك ، ولا أحد ينكر الفرق بينهما .

وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين مايقع اختيارًا أو بين مايقع اضطرارًا وإجبارًا ، بل إنَّ من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو باختيار العبد ولكن لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسي والنائم ، والمكره ، لا اختيار له ، ولا يؤاخذ بفعله [2] .

والحجة في ذلك قول رسول الله ﷺ « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله

---

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ بتصرف

(٢) القضاء والقدر لابن العثيمين ص ٨ ، ٩ بتصرف .

بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار » (١) .

ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقى لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب .

وكذلك مبني على علم الله ،وحكمه وحكمته ،وإرادته مع عدله ورحمته ، واستحالة الظلم عليه فهو مقدر مقادير العباد ، من أعمار وأرزاق ، وسعادة وشقاء،قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه إلا أن يشاء الله ـ كما هو الحال بالنسبة لسائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة .

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ :

« إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النارحتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (٢) .

وهذا الحديث الصحيح قد يفهمه البعض خطأً ، ولكن لو علم أن كل ذلك مرتبط بأسبابه ما كان ليضل أو يفهم خطأ ، فالإنسان مكتوب رزقه ولكن لابد من

(١) رواه مالك في الموطأ ، وأبو داود في سننه والترمذي وأحمد .
(٢) رواه البخاري ومسلم .

السعي عليه ، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، والإنسان مكتوب أجله ، ولكنه عليه أن يحافظ عليه وأن يأخذ بأسباب النجاة ، وكذلك هو مأمور بالعمل الصالح منهي عن العمل الطالح ، وعليه أن يأخذ بأسباب السعادة والبعد عن أسباب الشقاء .

وفي قوله ﷺ : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع . . . إلخ فهو مرتبط بأسبابه أيضًا ، إذ لا ظلم عند الله

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] » .

فالرجل يعمل العمل رياء ، وهو في الظاهر يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وليس كذلك ، ومثله الرجل يعمل بالطاعة ثم ينتوي المعصية ، وكذلك من يعمل الطاعة في الظاهر ، ويخفي المعصية ، أو يرتكب المعاصي في خلوته ، وكذا الرجل يعمل صالحًا ولكنه يظلم الناس فتؤخذ حسناته ، ويطرح عليه من سيئاتهم ، والرجل يجاهد ثم يجرح فيبادر بنفسه فينتحر ونحو ذلك وأما الصنف الثاني فهو رجل عصى ثم تاب ، وكان كافرًا ثم آمن ثم مات ونحو ذلك [2] .

(١) سورة فصلت آية ٤٦

(٢) انظر بتوسع كتابنا « تصحيح المفاهيم الخاطئة »

ثالثًا : مراتب القضاء والقدر ـ عند أهل السنة والجماعة ـ أربع مراتب :ـ

المرتبة الأولى : العلم وهى أن يؤمن الإنسان إيمانًا جازمًا بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، وأنه يعلم ما في السموات والأرض جملة وتفصيلاً سواء كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته ، وأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء .

فهو يعلم عدد أوراق الأشجار ، وحبات الرمال ، و قطرات الأمطار ، ومكاييل البحار ، وأوزان الأنهار.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

المرتبة الثانية : الكتابة وهى أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء وقد جمع الله تعالى بين هاتين المرتبتين في قوله

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٢)

فبدأ سبحانه بالعلم ، وقال إنَّ ذلك في كتاب أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما جاء به الحديث عن رسول الله ﷺ « إن أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال رب ماذا أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن ، فجرى فى تلك

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .
(٢) سورة الحج : آية ٧٠ .

الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة »[(١)]

ولهذا سئل النبي ﷺ عما نعمله أشيء مستقبل أم شيء قد قضى وفرغ منه ؟ قال : إنه قد قضى وفرغ منه .

وقال أيضًا حين سئل : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الأول ؟ قال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق به» فأمرهم النبي ﷺ بالعمل- فأنت - يا أخي - اعمل وأنت ميسر لما خلقت له - ثم تلا ﷺ قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[(٢)]

المرتبة الثالثة : المشيئة وهي أنَّ الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معدوم في السموات أو في الأرض ، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله تعالى ، وما عدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى ، وهذا ظاهر في القرآن الكريم ،وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله ومشيئته في فعل العباد ، فقال الله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[(٣)]

كما قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾[(٤)]

وكذلك ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[(٥)]

فبين الله تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته ، وأما فعله تعالى فكثير ، قال

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وأحمد ، وقال الترمذي حديث غريب .
(٢) رواه البخاري ومسلم والآيات من سورة الليل : آية ٥ - ١٠ .
(٣) سورة التكوير : آية ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) سورة الأنعام : آية ١٣٧ .
(٥) سورة البقرة : آية ٢٥٣ .

تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[١]

وقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[٢]

إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى ، فلا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة لكل موجود أومعدوم ، فما من معدوم إلا وقد شاء الله تعالى عدمه ، وما من موجود إلا وقد شاء الله تعالى وجوده ، ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله تعالى .

المرتبة الرابعة : الخلق : أى أن نؤمن بأنَّ الله تعالى خالق كل شيء ، فما من موجود في السموات والأرض إلا الله خالقه ، حتى الموت يخلقه الله تبارك وتعالى، وإن كان هو عدم الحياة ، يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[٣]

فكل شيء في السموات أو في الأرض فإن الله تعالى خالقه لا خالق إلا الله تبارك وتعالى .

وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله سبحانه وتعالى بأنه مخلوق له ، فالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والإنسان والبهائم كلها مخلوقات لله ، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات ، وأحوال كلها أيضًا مخلوقة لله عز وجل .

ولكن قد يشكل على الإنسان كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري إنه مخلوق لله عز وجل ؟

فنقول : نعم يصح أن نقول ذلك . لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين :

أحدهما : القدرة ، **وثانيهما** : الإرادة

---

(١) سورة السجدة : آية ١٣ .   (٢) سورة هود : آية ١١٨
(٣) سورة الملك : آية ٢ .

فإذا كان فعل العبد ناتجًا عن إرادته وقدرته ، فإن الذي خلق هذه الإرادة وجعل قلب الإنسان قابلاً للإرادة هو الله عز وجل ، وكذلك الذي خلق فيه القدرة هو الله عز وجل ، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب .

نقول : إن خالق السبب التام خالق للمسبب أي أنه خالق المؤثر خالق للأثر ، فوجه كونه تعالى خالقًا لفعل العبد أن نقول : إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما : - **الإرادة والقدرة**

فلولا الإرادة لم يفعل . ولولا القدرة لم يفعل ، لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل لعجزه عن الفعل ، وإذا كان قادرًا ولم يرد لم يكن الفعل ، فإذا كان الفعل ناتجًا عن إرادة جازمة ، وقدرة كاملة ، فالذي خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله . وبهذه الطريقة عرفنا كيف يمكن أن نقول إن الله تعالى خالق لفعل العبد،وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة ، فهو المتطهر وهو المصلي ، وهو المزكي وهو الصائم وهو الحاج وهو المعتمر ، وهو العاصي وهو المطيع ، لكن هذه الأفعال كلها كانت ووجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل ، والأمر - ولله الحمد - واضح .

وهذه المراتب الأربع المتقدمة يجب أن تثبت لله عز وجل ، وهذا لا ينافي أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوي الإرادة .

كما أننا نقول : النار تحرق ، والذي خلق الإحراق فيها هو الله تعالى بلا شك فليست محرقة بطبيعتها ، بل هي محرقة بكون الله تعالى جعلها محرقة ، ولهذا لم تكن النار التي ألقي فيها إبراهيم محرقة ، لأن الله قال لها :

﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1]

فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم ، فالنار بذاتها لا تحرق ولكن الله تعالى خلق

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٩ .

فيـها قـوة الإحراق ، وقـوة الإحراق هي في مـقابل فـعل العبـاد، كإرادة العـبد وقدرته، فبالإرادة والقدرة يكون الفعل ، وبالمادة المحرقة في النار يكون الإحراق، فلا فرق بين هذا وهذا ، ولكن العبد لما كان له إرادة وشـعور واختيار وعمل صار الفعل ينسب إليه حقيـقة وحكمًا ، صار مؤاخذًا بالمخالفة معـاقبًا عليها لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار .[1]

رابعًا : وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

يجب على كل مـسلم أن يؤمن بعقـيدة القـضاء والقـدر إيمانًا راسخًا لا يقـبل الشك، بل إنه لا يصح إسـلام امـرئ ولا يقبل إيمانه إلا بـيقـينه الجـازم بالقضـاء والقدر، لأن عقيدة القضاء والقدر ركيزة من ركائز الإيمان الست .

وذلك لأن عقيدة القضاء والقدر قد دل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة فمن القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[3]

وقال سبحانه :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[4]

وقال جل وعلا : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[5]

---

(١) القضاء والقـدر لابن العثيمين ص ١٩ - ٢٦ بتصرف ، وانظر / الـثمرات الزكية في العقـائد السلفية ص ٢٢٣ - ٢٣٨ ، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلي علم الأصول للحافظ الحكمي ص ٢٦٨ - ٢٨٤ .

(٢) سورة القمر : آية ٤٩ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٨ .

(٤) سورة التغابن : آية ١١

(٥) سورة يس : آية ١٢ .

وقال عز وجل : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]

وفي السنة : يقول ﷺ « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال النبي ﷺ : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك »[3] .

وقال ﷺ : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، ثم قال : اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة »[4] .

وقال ﷺ : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستخرج صحفتها ولتنكح ، فإن لها ما قدر لها »[5] وقال ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[6] .

فالإيمان بالقدر جزء من عقيدة المؤمن ، وركن من أركان الإيمان ، وإنكاره أو التشكيك فيه ، كفر بالله ورسوله ، عياذًا بك اللهم .

وقال صاحب العقيدة الطحاوية : « . . . خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم

---

(١) سورة الحديد : آية ٢٣ .
(٢) رواه مسلم وابن ماجة .
(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه .
(٤) رواه أبو داود والترمذي وأحمد وصححه الألباني .
(٥) رواه البخاري ومسلم والنسائي .
(٦) رواه الستة

أقداراً، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، وأمرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، آمنَّا بذلك كله ، وأيقنا أن كلاً من عنده .

... وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة ، وعدد من يدخل النار جملة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه .

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وكل ميسر لما خلق له .

والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقى بقضاء الله .

وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ، ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1]

فمن سأل لِمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُنَوَّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في

(١) سورة الأنبياء : آية ٢٣ .

الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود .

ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ،ليجعلوه كائنًا ، لم يقدروا عليه جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكمًا مبرمًا ليس فيه ناقض ولا معقب ،ولا مزيل ،ولا مغير ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[2]

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا ، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا ،وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا .

.... وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له .

والخير والشر مقدران على العباد .

والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف

(١) سورة الفرقان : آية ٣

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٨ .

المخلوق به ، فهي مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ، إليها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(١)

وأفعال العباد خلق الله ،وكسب العباد .

ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم ، وهو تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله » .

نقول : لا حيلة لأحد ، ولا حركة ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله .

وكل شيء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها ، يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبدًا، تقدس عن كل سوء وحَيْن ، وتنزه عن كل عيب وشَيْن

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾(٢) ا. هـ (٣)

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٣ .

(٣) انظر : متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي ، وكذا شرح العقيدة الطحاوية

خامساً : مسائل في القضاء والقدر .

١- مسألة : هل الإنسان مسير أم مخير ، مجبر أم مختار ؟

وتنشأ المشكلة إذا قلت أنا مثلاً : لا أدري أفلان كريم أم بخيل ؟

وذلك لأني رأيت له بعض التصرفات كان فيها كريمًا ، وبعض التصرفات الأخرى كان فيها بخيلاً ، فترددت في المسألة أهو كريم أم بخيل ؟ لكن لو أن كل التصرفات التي أخذتها عليه « كرم » ما نشأ شق السؤال : أم هو بخيل؟ ولو كانت كل التصرفات «بخلاً» ما نشأ : أم هو كريم ؟

على هذا النمط نشأ السؤال : الإنسان مسير أم مخير ؟ لو كان في ظاهر الحياة . أن الإنسان يرى نفسه مجبرًا على كل أعماله لما نشأت فكرة : أهو مخير ؟ ولو أنه مخير في كل أعماله لما نشأت فكرة :أهو مسير ؟

إذًا فالإنسان يجد أفعالاً كثيرة تحدث فيه بدون اختيار منه ، فيرى أنه ما دام لم يوجد له اختيار فهو مسير فيها ، وأشياء كثيرة تقع على حسب ماقدر واختار . كمن يريد أن يلبس ثوبًا لونه كذا ،ويريد أن يأكل طعامًا شكله كذا ، ويريد أن يتعلم في مدرسة كذا ، ويريد أن يعمل كذا ، فتقع الأمور كما يقرر أو قريبًا مما يقرر،إذًا فهنالك أمور للاختيار دخل فيها ، وأمور ليس للاختيار دخل فيها ، ومن هنا نشأت المشكلة ، ولكن لا مشكلة إذا ما عرف ما هو الإنسان الذي نريد أن نعرف : مسير هو أم مخير ؟

الإنسان أولاً : هو ذلك الكائن من الكائنات الموجودة في الأرض وليس الجنس الوحيد فيها ، بل هناك أجناس أخرى تشاركه في الوجود .

ولكن بالاستقراء وجدنا أن الإنسان أرقى هذه الأجناس ، وكل الأجناس في خدمته ، وأقرب الأجناس إليه من جهة الدنو والمدركة بالحس هي الحيوانات ،

وتحت الحيوانات النباتات ،وتحت النباتات الجماد ، إذًا فالأجناس الموجودة: جمادات ، ونباتات وحيوان وإنسان .

الجماد له حيز يشغله ، والنبات ينمو ويتطور ، والحيوان يحس ويتحرك ، والإنسان يعقل ويفكر ، فامتاز النبات عن الجماد - الذى له جرم وحيز - بأنه ينمو، وامتاز الحيوان عن النبات بأنه يحس ويتحرك ، وامتاز الإنسان عن الحيوان بالفكر والعقل .

وما معنى الفكر فى الإنسان . الفكر معناه المقياس الذى يختار بين البديلات (يفعل أو لا يفعل) والأمر الذى لا بديل فيه ، لا عمل لعقلك فيه ، وهنا يمكن أن تتضح معالم القضية .

فالإنسان على الرغم من كونه أعلى الأجناس. إلا أنه فيه من تلك الأجناس التى يعلو عليها ، ففيه حيوانية ،وفيه نباتية ، وفيه جمادية ، فما فى الإنسان من قدر الجمادية ، وما فيه من قدر النباتية ، وما فيه من قدر الحيوانية ، فهو مسير فيه كالجماد وكالنبات وكالحيوان وإذا تصورنا أن إنسانًا يستطيع أن يرفع نفسه عن الأرض إلى أعلى فسوف يسقط بعد ذلك كقطعة الحجر .لأن قانون الجماد يتحكم فيه ، وقانون الجاذبية يحكمه ويشده إلى أسفل ، وأيضًا فهو ينمو ، ولا دخل له في ذلك النمو ، وليس له عمل فيه .

كذلك فهو يحس ويتحرك وليس له عمل فى الإحساس ولا فى الحركة ولا إدارة أجهزة جسمه . ولا دخل له فيها أبدًا ، بل ولا يعرف كيف تدور الدورة الدموية ولا يعرف كيف تصنع الرئة فعلها ، ولا الجهاز الهضمى ولا الجهاز التناسلى ، ولا أى جهاز ، لا يعرف الإنسان شيئًا من هذا ، أو بمعنى آخر : هو لا إرادة له فيها ولا يصنعها ، إذًا فما فيه من الحيوانية أيضًا فهو مسخر فيه كالحيوان تمامًا ، ولا اختيار له فى شيء ، ومن رحمة الله أن جعلنى مسيرًا فى

ذلك كله ، فإن إدارة أجهزة جسمي كانت ستؤجل إلى أن يصير لي عقل ، فأعرف كيف أشغل أجهزة الجسم ، فمن رحمة الله أنه جعلني مسيرًا ولا عمل لى فى هذه المسألة البتة . لأنها تؤدى مهمتها وأنا نائم ، فإذا كان لي اختيار ، فمن يديرها لى وأنا نائم؟

إذًا ما فى الإنسان من جمادية ونباتية وحيوانية مسير كهذه الأجناس تمامًا ولا اختيار له فى شيء .

وأما جانب التخيير فيه فهو فيما تميز به - والذى جعله إنسانًا - وهو العقل والفكر . وهى المنطقة التى يعرض فيها الفعل على العقل ، يفعل أو لا يفعل ، فتلك هى المنطقة التى يوجد فيها الاختيار ، وهى منطقة التكليف من الله ،

ولذلك فإن فاقد هذه لا يكلف من الله ، لماذا لا يكلف المجنون ؟ لأنه فقد أداة الاختيار بين البديلات . . . والذى لم ينضج عقله بعد لم يكلف أيضًا ، لأنه لم يكن أهلاً للحكم على الأشياء . إذًا فربط التكليف بالعقل وجودًا ونضجًا ، يدل على أن مهمة التكليف هى فى الأمر الاختياري الذي يجد الإنسان فيه بديلاً ، يفعل، أو لا يفعل .

ولو أن الإنسان لم يكن مخيرًا ، لاستوى أن يكلف المجنون وغير ناضج العقل، إذًا مادام قصر التكليف على العاقل . والعاقل الذى نضج عقله . أي الذي بلغ سن الرشد ، فما دام التكليف منصبًا عليه، فيكون التكليف هو فى منطقة الاختيار ، ومنطقة الاختيار هذه هى التمييز ، إذًا فالذي يقول : إن الإنسان على إطلاقه مسير ، يكون مخطئًا ، أو يقول : إن الإنسان على إطلاقه مخير يكون مخطئًا ، بل هو مسير ومخير ،على نحو ما بينا[1]

---

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي صـ ٤٣ - ٤٧ بتصرف

٢- مسألة : هل علم الله تعالى السابق يجبر العبد على الفعل ؟

علمنا أن القضاء والقدر مبنى على علم الله تعالى السابق الذى دون فى اللوح المحفوظ . فهل هذا العلم يحمل معنى الإجبار ،لأنه لا يتخلف ؟

نقول : وبالله تعالى التوفيق : العلم ليس صفه جبر ،إنما العلم صفة انكشاف فقط ، تكشف الأشياء على ما هى عليه .

وأنا سأضرب مثلاً بسيطًا جدًا ،لو جاءنى زائر فى البيت ، وعندى خادم فأرسلته يحضر مشروبًا للضيف من البقال ، فلما خرج أبطأ ، فقلت لضيفى ، هل تعرف لماذا أبطأ، قال :لا ، قلت : ولكني أعرف ، أكيد أنه لما نزل إلى الشارع التقى بولد آخر مستول عليه ، وحينما يراه خارجًا لشراء حاجته ، يأخذه ويلعب معه ، ويأخذ منه النقود ، أو تضيع منه ، وهو خائف أن يأتى .

هذا الكلام قد قلته وأنا فى منزلي مع ضيفي ، وبعد ذلك جاء الولد فسألناه ما الحكاية . فقال كما قلت أنا : هل يا ترى - عندما تكلمت أنا عن الولد وما يصنعه ، وقلت إنه سيحصل منه كذا وكذا ،أكنت قد أرسلت معه قوة لترغمه على فعل ما توقعته منه ؟ أم هو فى حاله ؟ إذًا فكيف قلت أنا هذا الكلام عنه ؟ قلته لأنني أعرف سوابقه مع أن معرفتى لسوابقه تكون للعلم فقط ، ولكن ليس عندى قدرة ترغمه على تنفيذ ما أقول .

كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ علم الله سبحانه وتعالى أزلاً ما يكون من عبده المختار ، فقال : سيكون من عبدى كذا وكذا ، فهو كتب ، لا ليلزم ، ولكنه كتب لأنه عالم بما يكون من العبد ، والفرق بين الصورتين ،أن العلم فى البشر قد يتخلف فيه شيء ، من الجائز أننى أعرف أن هذا الولد صفته صحيحة ،وسأحكم هذه الأحكام ،ولكن يمكن أن يخرج هذه المرة . فتصدمه سيارة فينقل إلى المستشفى ،ولا يحدث شيء مما قلته .

أقول : هذا خطأ فى علمى أنا ، لأنى بشر ، وعلمى قاصر .

لكن الحق لاخطأ عنده فى علـمه ، لأنه علم إلهي شـمـولى ، إذًا فالله كـتب قديمًا لأنه علم ما يكون من عبده باختياره ، فهو لا يكتب ليلزم ، لأن العلم صفة انكشاف وليس صفة تأثير وإجبار كالقدرة .(١)

وهذا مثل آخر : المدرس الذي يدخل الفصل ، ويتفرس وجوه التلاميذ .

فيقـول لتلميذ : أنت ستـتفوق هذا العام ، ويقول للثـانى : وأنت ستنجح ، ويقـول للثـالث : وأنت ستـرسـب ، ويمضى العـام الدراسى بـطوله ، وكـذا الامتحانات ،وتظهر النـتيجة ، ويكون الأمر كما قال الأستـاذ ، فهل كان للأستاذ دخل فى تلك النتيجة، أو هو أجبر واحدًا منهم على ما يقول ؟ كلا ،ولكنها خبرة أو فراسة جعلته يقول ما قال .

ولله المثل الأعلى ، كتب حسب علمه الشمولى ، فالأمر كما علم وكتب ،

وما وجه الغرابة فى ذلك ، والإنسـان المخلوق المحكوم بقوانين القدر ، التى لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغـيرة .ثم يأخذ فى بنائه ، فيخرجه - إن كان ذا قدرة وعلم كافيين - صورة طبق الأصل ، فلا يختلف شيء مما قدره فيه ، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له .

إذا كان الإنسان على ضعـفه وعجزه لا يستغرب منـه ذلك ، بل يحمد عليه ، ويثنى عليه به ، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم ، ذي القوة المتين ؟!!(٢)

---

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي صـ٦٠ ،٦١ بتصرف .

(٢) عقيدة المؤمن صـ ٤١٩ بتصرف

« إن العلم الإلهى يمتاز بالإحاطة التامة والشمول الكامل لأعمال الناس على مختلف القرون :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾(١)

ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل ؟

والجواب سهل : قف أمام مرآة مجلوة صافية ،وأنت عابس الوجه ،ومقطب الجبين ، فماذا ترى ؟ سترى صورتك كما هى عابسة مقطبة .

أى ذنب للمرآة فى ذلك ؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهى قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكًا لا شك فيه .

كذلك صفحات العلم الإلهى ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح ، فهى تتبع العمل ولا يتبعها العمل .

غاية ما يمتاز به العلم ،أنه لا يكشف الحاضر فقط ،ولكنه يكشف كذلك الماضى والمستقبل . فيرى الأشياء على ما كانت عليه ، وعلى ما ستكون عليه ، كما يراها وهى كائنة ، سواء بسواء ». (٢)

---

(١) سورة طه آية ٥١ ، ٥٢

(٢) عقيدة المسلم صـ ١٠٨ بتصرف

٣- مسألة : هل القضاء والقدر يتنافى مع عدل الله ؟ وهل العبد يخلق أفعاله بنفسه ؟!

وحينما نتعرض لهذه المسألة فلابد أن نتناولها على أساس أن لله وصفين :

الوصف الأول : أنه هو الخالق وهو الفعال لكل شيء ، هذه واحدة

والوصف الثانى : أنه عدل ، ولا ينبغى لأحد أن يأخذ صفة على حساب صفة

فالذى يقول : إن الله هو الذي يفعل للإنسان كل شيء فهو يريد أن يحقق لله صفة الخلق لكل شيء ، وبعد ذلك يحله عن صفة العدل ، فما دام هو الذي فعل كل شيء ، فلماذا يعذبني حينما أعصاه ؟ فنجد مسألة العدل هذه ستنتهى .

وآخر يريد أن يحقق فكرة العدل لله فنجده يجعل للإنسان فعل كل شيء

ونحن نقول للاثنين : لا ، فأنتما على خطأ ، فلابد أن تأخذ كل صفة سبيلها . فهو خالق كل شيء ، نعم ولكنه عدل أيضًا ، وكلمة عدل تتطلب منا أن نفهم أن الله لم يكلفنا إلا بما خلقنا صالحين لفعله ، وصالحين لعدم فعله ، فيوجه لنا الوجهة ، والأدلة صالحة أن تفعل . . أو لا تفعل .

فأنا مثلاً حينما أرجح طريقًا على طريق ، لايقال : خلقت الفعل ، وإنما وجهت الطاقة المخلوقة لله ، بالعقل المخلوق لله ، للمادة المخلوقة لله ، فأنا ليس لى فعل، وإنما أنا وجهت الأدوات الفاعلة فقط ، وما دمت أنا الذى وجهت ، فالفعل ليس منى ، وإنما التوجه فقط للفعل منى أنا ، فإذا الإنسان المؤمن يقول : الله يفعل كل شيء ، نعم هو يفعل كل شيء ولكنه مع ذلك عدل .

نأتى هنا ونقول : ما مهمة الرسل إذًا ؟ إن مهمة الرسل هى أن ترسم منهج الله لتقول لك : افعل كذا ، أو لا تفعل كذا ، الله لا يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، إلا إذا كان خلقك صالحًا لأن تفعل أو لا تفعل ، فعندما يقول : افعل

هذا فلابد أن يكون قد خلقني صالحًا لأن افعله أو لا أفعله ، ولو كان قدخلقنى صالحا لأن أفعل فقط لما قال لى : لا تفعل . ولو كان قد خلقنى صالحًا مثلاً لئلا أفعل ، لما قال لى : افعل ، فإذًا لابد أن يكون قد خلقنى فى هذا الأمر الناضج ، الاختيار بين البديلات الأمر العقلى وأنا صالح لأن أفعل هذا ،ولأن أفعل هذا [1]

٤- مسألة : هل القضاء والقدر يتنافى مع الأخذ بالأسباب ؟

معلوم أن القضاء والقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، إذ الأخذ بالأسباب واجب ، وتركها معصية ، والاعتماد عليها شرك .

وعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، التى توصله إلى النتائج ، فهو يأخذ بالأسباب التى تنفعه ، وتنأى به عما يضره ، ويأخذ بالأسباب التى تهديه ولاتضله .

وإذا كان الله عز وجل قد قدر أجله فإنه يأخذ بأسباب النجاة والحياة ، وإذا كان قدر رزقه ، فهو يأخذ بأسبابه بالسعى عليه والضرب فى الأرض ، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، وإذا كان قد قدر عمله فهو مطالب بأن يمتثل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه ،وإذا كان قدر أزلاً سعادته أو شقاوته فإنه يجب عليه أن يأخذ بأسباب السعادة ، ويتجنب مزالق الشقاء . وكل ميسر لما خلق له . فليس القدر إجبارا على أن نفعل ، وإنما هو إخبار عن علم الله بكسب العبد وصدوره عن تقدير منه تعالى ، وخلقه له ، وعلمه سبحانه بما سيقع ، من غير تأثير فى إرادة لأن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير كما بيّنّا . هذا ما ينبغى أن نفهمه عن القدر، وهو مقتضى فهم الرسول ﷺ وفهم أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

وفى الحديث « دخل رسول الله ﷺ يومًا على الإمام على رضى الله عنه بعد

(١) القضاء والقدر للشعراوي صـ ٤٧ - ٤٩ بتصرف

صلاة العشـاء ، فوجده قد بَكَّرَ بالنوم ، فقال له: هلا قـمت من الليل ، فقال : يارسول الله : إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أن يبعثـها بعثها ، فانصرف رسول الله ﷺ ورجع وهو يضرب على فخذه ويقول: وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً »[١]

وسرق أحد اللصوص ، فلما حـضر بين يدى عمر رضى الله عنه ، سأله : لم سرقت فقال : قدر الله ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه : اضربوه ثلاثين سوطًا، ثم اقطعوا يده ، فـقيل له : ولم ؟ فقـال : يقطع لسرقتـه ،ويضرب لكذبه على الله[٢] .

إن القدر لا يتـخذ سبـيلاً إلى التـواكل ، ولا ذريعة للمعـاصى ولا طريقًا إلى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتـخذ سبيلاً إلى تحقيق الـغايات الكبرى من جلائل الأعمال ، إن القدر يرفع بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ،وقدر الظمأ بقدر الرى ، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما فر من الطاعون : أتفر من قدر الله، قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم ؛ نفر من قدر الله إلى قدر الله [٣]

أي يفرمن قـدر المرض والوباء إلى قدر الصـحة والعافـية ،ثم ضرب له مـثلا بالأرض الجدباء والأرض الخـصبة ، وأنه إذا انتـقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها إبله ،فإنه ينتقل من قدر إلى قدر .

لقـد كان يمكن للرسـول ﷺ وصحـابته أن يسـتكينوا كمـا يستكـين الضعـفاء الواهنون مـعللين أنفسـهم بالفهم المغلوط الذى يتـعلل به الفاشلون ، ولكـنه جاء

(١) رواه البخـاري
(٢) رسائل في العقيدة والعقائد الإسلامية ص٨٥
(٣) رواه البخاري

يكشف عن وجه الصواب فلم يهن ولم يضعف ، واستعان بالقدر علي تحقيق رسالته الكبرى ،ملتزمًا سنة الله فى نصره لعباده .

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصى بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل . وما غزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التى تجرى حسب مشيئة الله وقدره . هذا هو القَدْرُ الذى ينبغى أن نعرفه عن القَدَرِ ، وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحلُ لنا البحث فيه ولا التنازع فى شأنه ، فإن هذا من أسرار الله التى لاتحيط العقول بها ، ولا تدركها الأفكار [١] .

قال الخطابى : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ماقدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمون ، وإنما معناه الأخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد ، وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرها وشرها .

والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر » [٢]

فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهيأ لها أسبابًا ، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب فى المعاش والمعاد ، وقد يسر كلاً من خلقه لما خلق له فى الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له وميسر له ، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها ، كان أشد اجتهادًا فى فعلها والقيام بها أعظم منه فى أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سببًا فى وجود الزرع ، والنكاح سببًا فى وجود النسل ، وكذلك العمل الصالح سببًا فى دخول الجنة ، والعمل السيء سببًا فى دخول النار .

(١) العقائد الاسلامية صـ ٨٥ ،٨٦
(٢) العقائد الإسلامية صـ ٨٤

وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر : ما كنت بأشد اجتهاداً مني الآن .

وقال النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قَدَّرَ الله وما شاء فعل»[1]

وفي الحديث « أن رجلا أتى النبي ، فقال : أرأيت رقىً نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هي من قدر الله»[2]

يعني أن الله تبارك وتعالى قدر الخير والشر وأسباب كل منها .[3]

٥- مسألة : الاحتجاج بالقدر :

معلوم أنه يحتج بالقدر في المصائب ، لا في الذنوب والمعائب .

ولكن قومًا احتجوا بالقدر في المعاصي والذنوب ، واستدلوا على ذلك بحديث « احتجاج آدم وموسى » كما في الصحيحين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال نبي ﷺ : احتج آدم وموسى . فقال موسى . يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد له ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذي كلمك الله تكليمًا ، وكتب لك التوراة ، فبكم تجد فيها مكتوبا ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قبل أن أخلق ، قال : بأربعين سنة ، قال فحج آدم موسى »[4] وقد روى بطرق أخرى

(١) سبق تخريجه
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد
(٣) الثمرات الزكية في العقائد السلفية صـ ٢٤٢ ، ٢٤٣ بتصرف ، ومعارج القبول صـ ٢٩٧ .
(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي

وقد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفى الملام على الذنب

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه : رد هذا الحديث من لم يفهمه مع أن الحديث متفق على صحته ، وأما من قال بصحته فقد اختلفوا فى فهمه أو فهم حجة آدم التى حج بها موسى فمنهم من قال : حجه لأنه أبوه ، كما يحج الرجل ابنه ، وهذا الكلام لا محصل فيه البتة .

ومنهم من قال : إنما حجه لأن الذنب كان فى شريعة ، واللوم فى شريعة أخرى ، وهذا من جنس ما قبله ، ومنهم من قال : إنما حجه لأنه قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لومه ، وهذا وإن كان أقرب مما قبله ، إلا أنه لا يصح ، لأن آدم لم يذكره ، ولأن موسى يعرف ذلك.

ومنهم من قال : إنما حجه لأنه لامه فى غير دار التكليف ،،وهو فاسد من وجهين : عدم اعتراض آدم بقوله : لمتنى فى غير دار التكليف ، ولأن الله يلوم العباد فى غير دار التكليف .

ففى الحقيقة كل هذا باطل لم يصح ، وفاسد لوجوه كذلك ، وأسباب مختلفة، وأدلة قوية . ولنرجع إلى حديث احتجاج آدم وموسى : فنقول : موسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه وهداه واصطفاه ،وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته ، بل إنما لام موسى آدم على المصيبة التى نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم ، فذكر الخطيئة تنبيهًا على سبب المصيبة والمحنة التى نالت الذرية ، ولهذا قال له : « أخرجتنا ونفسك من الجنة » وفى لفظ « خيبتنا » فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ، وقال : إن هذه المصيبة التى نالت الذرية بسبب خطيئة كانت مكتوبة بقدره قبل خلقه والقدر يحتج به فى المصائب دون المعائب أي أتلومنى على مصيبة قدرت على وعليكم قبل خلقى

بكذا وكذا سنة ،وهذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [١]

فآدم عليه السلام ما خلق ليعيش في الجنة ، وإنما ليكون في الأرض خليفة يحكم بحكم الله ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. الآية ﴾ [٢]

وهذا الحديث لا يدل على شيء قط مما يفكر فيه المعتذرون بالقدر ، فالحديث ورواياته الأخرى، يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها ، ويرجع شقاء أبنائه جميعًا إلى أكلته المشئومة من الشجرة ، وقد دافع آدم عن نفسه بصدق .

فإن وجود الحياة البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنب آدم .

كان من الممكن جدًا أن يعاقب آدم على خطئه بأي عقاب آخر ،كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك ، أما ترتيب وجود العالم الزاخر بآلامه وآماله على هذه المعصية فهذا قدر إلهي محض ، لم يدر بخلد آدم ، ولا يجوز أن يعاتب عليه، ومن هنا حج آدم موسى .

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذي استغفر الله منه ، فلا صلة له بهذا الحديث .

إن خطيئة آدم ليست سببًا شرعيًا ، ولا علة عقلية ، لوجود العالم وانتشار الناس في القارات الكبرى يشقون ويكدحون .

ولما توهم موسى ذلك عاتبه آدم ورده إلى أن ذلك القضاء المكتوب ، فلا يجوز لأي امرئ أن يحمل الأب الأول هذه الأوزار كلها .

---

(١) نقلاً عن الثمرات الزكية ورسائل في العقيدة لابن عثيمين

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

إن آدم يعلم – من غير مراء – أنه أخطأ حين أكل من الشجرة . وقد اعترف بذلك عن صدق ،وطلب من الله المغفرة فغفر له .

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء فهذا ما أنكره – وهو محق – وجعله من شئون القدر الأعلى ، واقتنع بذلك موسى كما رأيت .

ومن السخف أن نخطئ نحن ثم نسوق كلمة آدم عذرًا لنا على خطئنا .

إن الصورة التى يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن .(1)

إن آدم لم يظلم أولاده ، بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وإنما أهبط آدم وحواء،و لم يكن معهما ولد . حتى يقال : إن ذنبهما تعدى إلى ولدهما ، ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد ، فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلمًا يستحقون به ملامه ، وكونهم صاروا فى الدنيا دون الجنة أمر كان مقدرًا عليهم،لا يستحقون به لوم آدم ، وذنب آدم كان قد تاب منه ، قال الله تعالى

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾(2)

كما قال ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾(3)

فلم يبق مستحقًا الذم ولا العقاب . ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا لمن أذنب ، لما كان آدم تاب واستغفر .وأيضًا فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له ، فلماذا أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ؟!

فإن قيل : وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض ؟ قيل : التوبة قد

(1) عقيدة المسلم للغزالي صـ ١١٤ ، ١١٥ بتصرف
(2) سورة طه ، آية ١٢١ ، ١٢٢
(3) سورة البقرة ، آية ٣٧

يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته ، وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾(١)

وإذا كان الله تعالى يبتلى العبد من الحسنات والسيئات ، والسراء والضراء ، فالتائب أحق بالابتلاء فهبوط آدم ابتلاء له (٢)

٦- مسألة فى الهداية والإضلال

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٣)

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾(٤)

وقال جلا وعلا : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾(٥)

هذه الآيات الكريمة وما فى معناها فى القرآن الكريم من الآيات التى فهمها كثير من الناس فهمًا خاطئًا ، واستغلق عليهم فهمها ، وفسرها على غير وجهها المراد،

(١) سورة آل عمران ، آية ٨٩.

(٢) الاحتجاج بالقدر ، لابن تيمية صـ ١٩ -٢٢ بتصرف

(٣) سورة إبراهيم ، آية ٤

(٤) سورة النحل آية ٩٣

(٥) سورة فاطر آية ٨

أو معناها الصحيح . ولو أدرك أن الله عـز وجل موصوف بالعدل المطلق ، وأنه لا يظلم الناس شيئـا ، ما كان يذهب بعيدًا ، ولو فهم أن الهـداية والإضلال مرتبطان بأسبابهما ما فهم الآيات فهمًا خاطئًا ، ولو علم أن العبد إذا أكره على شيء ، فإنه لا تقع عليه عقـوبة ، ما كان ينسب ما نسـبه إلى الله ظلمًا وزورًا ، يزعم أن الله أضله ثم يعاقبه !!

ولو جمع هذه الآيات الكريمة ، المرتبطة بقضية الهـداية والضلال ، وحمل فيها المطلق على المقيد ، لاتضحت له معالم القضية ، ولما ضل السبيل .

إن الله عز وجل خـلق الإنسان ، وجعل فـيه صلاحـية للهـداية والضلال ، أو الإيمان و الكفـر ، فهو مـخلوق صالح لأن يكون شـاكرًا ، ومخـلوق صالح لأن يكون كفورًا ، وليس مخلوقًا على حالة تناقض الحالة الثانية

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(١)

والنفس صالحة لأن تكون فاجـرة ، وصالحة لأن تكون تقية ، هذه مخلوقـيتها لله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾(٢)

إذًا فما دام الأمر للاثنتين ، وأنت صالح أن تتجه لواحدة منهما ، فكونك تميل إلى هذه الجهة أو لا تميل إلا هذه الجهة فهذا هو محل الحساب ومحل المؤاخذة .

ولذلك إذا رأيت آية مطلقة كـقوله تعالى : ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ فلابد أن تحمل المطلق في القرآن على مـقيده ، فالهداية هنا التي هي بمعنى تذليل الـعقبات

(١) سورة الإنسـان ، آية ٣

(٢) سورة الشمس ، آية ٧ ـ ١٠

والحمل على طريق الخير لمن استمع لله وآمن به ، وأقبل على منهجه ، فالمعونه تأتى من الله لصاحب ذلك ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(1)

فمن أناب إلى الله تعالى ورجع إليه وأقبل عليه ، فإنه يهديه ، ويزيده هدى .

وإذا قرأت قوله تعالى ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾

فإنما هو الذى لا يؤمن بالله ولا يستمع منه ولا يقبل على منهجه ، فكيف يهديه ، وكيف يعينه الله ، وقد اختار طريق الكفر والضلال ، ولذلك تحمل المطلق على المقيد ، فى هذه الآية ، فتجد أن قوله تعالى

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ يفسره مجموع آيات فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾(2)

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾(3)

وقوله عز وجل :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾(4)

وكذلك في مثل قول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(5)

وأيضًا فى قول الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(6)

---

(1) سورة الرعد آية ٢٧ ، ٢٨ — (2) سورة غافر آية ٧٤
(3) سورة إبراهيم آية ٢٧ — (4) سورة البقرة آية ٢٦
(5) سورة البقرة ، آية ٢٦٤ — (6) سورة البقرة آية ٢٥٨ والصف آية ٧ والجمعة ٥

وقوله جل وعلا : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١)

كذلك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(٢)

لكن أن يحملك الله تعالى على شيء ثم يحاسبك عليه ،فأين هذا من عدل الله؟!! والدليل على المراد فى توافر حرية الاختيار أن المكره على شيء لا يعاقب عليه ، وما معنى الإكراه ، أن يحملك على ما لا تختار ، مادام يكرهك ، أى يحملك على ما لا تختار فلا يتعلق عقاب ، إذ الذى يفسد عليك الاختيار يرفع عنك العقوبة ، فمعنى ذلك أن المكلف هنا من له الاختيار ، بدليل أنه حين يأتى واحد ويكرهك على العمل فلا يكون عليك عقوبة .

فمعنى هذا أن الذى خلقك ، وخلقك مختارًا ، فلابد أن تكون مؤمنًا بكل ما يكون منه ، فإذا تدخلت قوة لتكرهك على شيء وأنت تختار غيره ،فيكون الحساب فى هذه قد ارتفع عنك . أما المسألة الأخرى وهى مسائل الدنيا وغيرها،فإن مسائل الدنيا عادة نجد أن النفس مقبلة عليها بطبيعتها ، لكن هناك المناهج التى تحدد حركة المؤمن فى الحياة ، لا يوجد أحد يحث على أمر دنياه أبدًا، كل الناس مقبلون على أمور دنياهم بالأسباب والوسائل ، فالذى يتقن الأسباب مؤمنًا كان أم كافرًا ، يأخذ خيرها ، يقول الله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(٣)

ويقول : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ

(١) سورة المائدة آية ١٠٨ ،والصف ، آية ٥

(٢) سورة الزمر ، آية ٣ (٣) سورة الشورى ، آية ٢٠

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(1)

وعالم الأسباب فى مسائل الدنيا مطروح أمام الخلق ، فالذى يأخذ للشيء أسبابه ويتقن عمله يأخذ خيره مؤمنًا كان أو كافرًا ، لكن لا يأخذ منهج الله إلا من آمن بالله ، فمنهج الله هذا مخصوص بالمؤمنين ، إن الذى يريد أن يصل إلى شيء ما فإنه يأخذ بأسبابه ، فالذى يريد النجاح يجتهد فى المذاكرة ، والذى يريد المال يذهب إلى العمل ، والذى يحرص على منفعة لا يقول : أنتظر القدر !! فالطالب الحريص على الامتحان يستيقظ له مبكرًا ، ومارأينا من بين آلاف الطلاب من تأخر عن امتحانه ، لأنه أخذ بالأسباب .

ولكن رأينا الآلاف من الناس يتأخرون عن صلا الفجر ، ثم يقولون : قضاء وقدر !!

فلماذا تدخل القدر هنا ولم يتدخل هناك ؟ !!

لماذا لم يتدخل القدر إلا فى الأمور المطلوبة تكليفيًا ، وفى أمور الدنيا ترتب تلك الأمور ، هذا سؤال أثاره المسرفون على أنفسهم « مسير أم مخير »

ولذا الدليل على ذلك ، أن المسألة ليس فيها تناقض عقلى ، لأنه لو كان هناك تناقض عقلى لكانوا سيقولون : إذا كان الله كتب على الإنسان المعصية ، فلماذا يعذبه ؟

ولنا هنا أن نقول : أنه يأتى الشق الثانى ، وإذا كان كتب عليه الطاعة فلماذا يثيبه ؟

لم نسمع السؤال الثانى أبدًا ! كل سؤال يرد يقال فيه : إذا كان الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبنى ؟ ولم نسأل أبدًا ، وإذا كان كتب عليه الطاعة فلماذا

---

(1) سورة الإسراء ، آية ٢٠.

يشيه ؟ لماذا ؟! . لأن المسألة الأولى جاءت له بظلم - كما يرى - والثانية جاءت له بيسر فهو يريد أن يوجد لنفسه منفذًا ليخلص منه . . من ذلك الغرم .

ولذلك نأتى ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى مادام قد خلق له عقلاً ، وجعل العقل هو مطية التكليف ، بحيث إذا لم يكن عاقلاً لا يكلف ، وإذا أكره يسقط عنه التكليف ، وإذا لم يكن عقله ناضجًا أيضًا فمعنى ذلك أن الاختيار الموجود فيه مشروط فى إقباله على العمل ، والاختيار لا يكون إلا مع قدرته على هذا العمل وقدرته على العمل الآخر .والعقوبة ليست على الفعل ، بل على توجيه الفعل إلى شيء أنت نهيت أن تفعله . ولا يقول العبد : مادام الله قد كتب عليَّ ، فماذا يكون عملى أنا ؟

ويكون ردنا عليه : وما الذى أدراك ، أطلعت الغيب أم اتخذت عند الرحمن عهدًا ؟ !!

ومن أعلمك أنك مكتوب من أهل الشقاء والضلال ؟ هل قال لك ذلك أحد ؟ لم يقلها لك أحد ، وقد يرد بأن يقول : حين أقبل على العمل السيء أفهم أننى من أهل الشقاء ، فنقول له : وهل أنت تقبل على كل عمل شرير ،فلا يوجد ناس مطبوعون على الخير المحض . وناس مطبوعون على الشر المحض ولكن الله كتب عليك أزلاً . . لماذا ؟ لأن لله الخلق والقدرة والعلم ، صفة العلم عند الله هى التى جعلت الحق سبحانه وتعالى كأنه يقول : أنا سأخلق عبدى فلان وسأخلقه مختارًا فى بعض الأعمال ، وغير مختار فى بعضها الآخر ، وغير المختار فيه لادخل فيه للحساب ، وسأدخل الحساب فيما له فيه اختيار ، لكن عبدى أنا أعلم أنه سيختار كذا وكذا ، لذلك كتب أزلاً لأنه علم ، والله أعلم.[1]

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوى صـ ٥٣ ـ ٦٠ بتصرف

٧ - مسألة : هل هناك تعارض بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾(١)

وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢)

فهو مرة نفى عنه بـ لا النافيه «لا تهدى» ومرة أثبت له ذلك بلام التوكيد «إنك لتهدى» ولا يمكن أن يكون النفى والإثبات متعلقين بمعنى واحد فى الهداية ، بل الهداية هنا لها معنيان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

أما التى للرسول ﷺ فالهداية بمعنى الدلالة

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣)

أى تدل الناس وترشدهم على طريق الخير . يسلكونه أو لا يسلكونه ، هذا موضوع آخر ، يؤمنون به ، أو لا يؤمنون به ، هذا موضوع آخر ، فالذى يؤمن به، ويقبل على منهج الله فيه ويصدق الله فيه ، يكون عمل الله فى أن ييسر عليه الأمر ويعينه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾(٤)

إذًا فالهداية ترد بمعنيين ، بمعنى الدلالة ، وبمعنى الحمل على الخير ، فالتى بمعنى الدلالة فالكل مشترك فيها ، وأما الحمل على الخير ، فالذى يقبل على الله مؤمنًا به ، ومصدقًا لهداه يقول له مادمت آمنت بى وصدقت بى وأقبلت بنفسك على منهجى ، أعينك أنا على ذلك المنهج وأمكنك منه وأريك حلاوته ، فيزيدهم هدى وتقوى . وأما الذى لا يقبل هداية الدلالة ، فإن محمدًا ﷺ لا يستطيع أن

---

(١) سورة القصص ، آية ٥٦

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣) سورة محمد ، آية ١٧

يمنحه هداية المعونة ، ولو كان أقرب الناس إليه ، وأحب الخلق إليه ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وذلك كالذى حدث مع عمه أبى طالب .

ومما يدل على هذا المعنى من الآيات ، قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١)

فهديناهم أى دللناهم ، « فاستحبوا العمى على الهدى» أى أنهم قالوا : لا نحن غير مؤمنين بأن هناك رباً ، وليس هناك من توجيه ، فإذا كانوا غيرمؤمنين بأن هناك رباً ، وبأن منه التوجيه فكيف يُمكنهم من الهداية ؟ . لا يمكنهم ، وإنما يمكن من أقبل مؤمناً به ، مصدقًا له ، إذًا فهداية الرسل تأتى بمعنى الدلالة ، والدلالة أنك تهدى إنسانًا إلى شيء ، أى تدله على طريق الخير ، مثلاً هناك فرق بين هداية تدل، وهداية تعين وتحمل .

هداية تدل : هذا قدر مشترك حتى مع الكفار كما فى الآية « وأما ثمود فهديناهم » على المعنى العام بعدها قال مباشرة « فاستحبوا العمى على الهدى » فكلمة « هديناهم » هنا ليست بمعنى حملناهم على أن يكونوا مهديين ، ولكن هديناهم هنا ، أى دللناهم على الطريق الموصل للخير ، فهل استمعوا أم لم يستمعوا ؟ لم يستمعوا ، إذًا فوردت الهداية فى القرآن بمعنى الدلالة على الطريق الموصل للخير ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾(٢)

---

(١) سورة فصلت ، آية ١٧
(٢) سورة البلد ، آية ١٠

وكذا ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(١)

ووردت أيضًا بمعنى آخر وهو التمكين من فعل الخير والمعونة عليه كيف هذا ؟ نقول مثلاً : ـ ولله المثل الأعلى ـ أنا أمضى فى الطريق وأريد أن أذهب إلى مكان ما ، وأنا لا أعرف الطريق الموصل إليه ، فجاء جندى المرور ، وقال لى : هذا هو الطريق المؤدى إلى المكان الذى تريد ، فدلنى على الطريق بكلامه ، إذا أنا انصعت له وشكرته ، وبعد ذلك اتجهت لأسير فيه ، فأجده يقول لى : اسمع ، هذا الطريق فيه عقبة فى مكان كذا ، ويصح أن تعمل كذا ، حتى تنتهى منه ، أى يرشدنى إلى شىء فى الطريق ، والثانية أنه قد يطلب منى أن يذهب معى حتى يخلصنى من هذه العقبة ، فإذًا هناك هدايتان ، هداية دلت على الطريق فقط ، وهداية أعانت على أن تسلك الطريق .أعان جندى المرور من ؟ الذى انصاع له وآمن بمشورته فى أن الطريق هو هذا ، أما الذى لا يأتمر بأمره ويقول له : لا أنت لا تعرف الطريق ، وماذا عرفت أنت عن الطريق ، فالطريق ليس هناك أيمكن لجندى المرور أن يعينه عملاً بأن يسير معه إلى أن يدله ؟ بالطبع لا، كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ الهداية بالنسبة لله ، الله يهدى الجميع مؤمناً وكافرًا ، يهدى بمعنى يدل الجميع على طريق الخير ، وبعد ذلك فالذى يؤمن به إلهًا ويستمع إليه بعد ذلك ،يعينه ويسهل عليه المهمة ، والمعونة لاتتأتى إلا من مقبل على عمل وبعد ذلك تعينه ، أما غير المقبل على عمل فكيف تكون المعونة ؟ فالمعونة لا تأتى لشخص لا بعمل ، ثم تجعله يعمل ، لا ، ولكن المعونة أن تجد واحدًا مقبلاً على عمل ، وبعد ذلك تعينه أنت على العمل (٢) .

---

(١) سورة الإنسان آية ٣

(٢) راجع القضاء والقدر ، للشيخ محمد متولى الشعراوى صـ ٤٩ ـ ٥٢

٨ - مسألة حول مشيئة الرب ومشيئة العبد :

قد يقال : إذا كان الله منح العبد الحرية والاختيار، فما معنى قوله

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(١)

فنقول : معناها أن الإنسان لا يشاء شيئاً إلا إذا كان فى حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : طريق الهداية ، أو طريق الضلالة .

فإذا اختار الطريق الأول ففى نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار الطريق الثانى ففى نطاقها أيضًا ، وكل الآيات التى جاءت على هذا النحو فمعناها لا يتعدى ما ذكرناه .

وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم ، وأنه لو لم يشأ أن يكونوا مشركين لما كانوا كذلك ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٢)

---

(١) سورة التكوير آيه ٢٨ ، ٢٩

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٨

فالقرآن يرد على المشركين من وجهين :

الأول : أن الله أذاق الكافرين الأول بـأسه ، وأنزل بهم عقـابه ، فلو لم يكونوا مخـتارين للجرائم والمآثم والكـفر والشرك لما عـذبهم الله ، لأن الله عدل لا يظلم مثقال ذرة .

الثاني : أنهم زعمـوا ذلك عن جهل بالله ، وجـهل بدينه ، وأنهم ليس عندهم من علم يمكن أن يسـتند عليـه ، ويرجع إليـه ، وإنما كـفـرهم هذا تمرد على دينه وافتيات على الحق الذى أنزله على ألسنة الرسل .

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها ، وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتجـون بها ، فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنيـة لاتقوم عليها حجة ولا ينهض بها دليل ، وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء ،و لو شاء الله لأجبرهم على الهـداية ، وإذًا فلن يكونوا حينئذ من البشـر ، لأن البشر فطر على الحرية والاختيار .

وقـد عاتب الله عـز وجل رسـوله ﷺ أن يكون في دعـوته معنى الإرغـام أو الإلزام، فقال :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾(١)

ومعناه ، لو أراد أن يجبرهم على الإيمان ، لآمن كل أهل الارض بمجرد صدور كلمة التكوين منه سـبحانه وتعالى ، وهى « كن » ولكنه لم يفـعل لأنه خيرهم ، ولم يجبرهم ، ولذلك قال له :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(٢)

(١) سورة يونس آية ٩٩ (٢) سورة الكهف آية ٢٩

ومثل المشيئة تكون الإرادة ، كما قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(١)

وكذا قال ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢)

فما أراد المخلوق شيئًا ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاء ذلك ، وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق ، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً .

وبهذا تتأكد الحقيقة أن الرب غير العبد ، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب ، وسابقة لها، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى ، لم فعل كذا ؟ أو لم لم يفعل كذا ؟ قال تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(٣)

(٩) مسألة : الأمر الإلهي أمران « أمر كوني ، وأمر شرعي » .

فهذا أمر يجب التنبيه عليه ، والتنبه له ، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علمًا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر ، وأمره سبحانه وتعالى نوعان :

١ـ أمر كوني قدري . ٢ـ أمر ديني شرعي .

فمشيئته سبحانه وتعالى متعلقة بخلقه ، وأمره الكوني ، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره ، كله داخل تحت مشيئته ، كما خلق إبليس وهو يبغضه ، وخلق الشياطين ،والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها ، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ (٢) سورة النحل آية ٤٠

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٣

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذى شرعه على ألسنة رسله ، فما وجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته .

وما وجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته ولم يتعلق به محبته، ولا رضاه ولا أمره الدينى ، ومـا لم يوجد منها لم تتعلق به مـشيئته ولا محـبته، فلفظ المشيئـة كونى ، ولفظ المحبة دينى شرعى . كـما أن لفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هى المشيئة ، وإرادة دينية فتكون هى المحبة ، إذا عرفت هذا ،

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾(١)

وقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾(٢)

وقوله ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(٣)

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الـدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره ، فإن المحـبة غير المـشيئة ، والأمـر غير الخلق ونظير هذا اللفظ الأمـر فإنه نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع، والثانى قد يعصى ويخالف، بخلاف الأول .

فقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٤)

أمركونى لايناقض قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾(٥)

فالأول تكوين ، والثانى تشريع .

هذا ، وقد ذكر بعض العلماء أن فى قوله عز وجل

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(٦)

---

(١) سورة الزمر آية ٧
(٢) سورة البقرة آية ٢٠٥
(٣) سورة البقرة آية ١٨٥
(٤) سورة يس آية ٨٢
(٥) سورة الأعراف آية ٢٨
(٦) سورة الإسراء آية ١٦

أنه أمر تكوين .

وأوضح الشنقيطى - رحمه الله - فى أضواء البيان : فساد هذا الرأى ، لأن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء وإنما هو أمر تشـريع ، أي يأمرهم بطاعته وترك معاصيه فيخـالفون أمره ويخرجـون عن طاعته ،ويرتكبون مـا نهى الله عنه ، فيسـتحقون بذلك العذاب[1]

١٠- مسألة : الحسنة والسيئة :

الحسنة حسنتان : « حسنة كونية وحسنة شرعية » .

والسيئة سيئتان : « سيئة كونية وسيئة شرعية » .

فالحسنة الكونية بمعنى النعمة والعطاء . والخيـر والصحة والعافية والنصر والعز والجاه ، فهذه الحسنة من الله تعالى .

والسيئة الكونية بمعنى النقمة والابتلاء والشر ، والنقص والمرض ، والهزائم وما إلى ذلك فهـذه من عند الله تعالى أيضًا . لأنـه عز وجل هو الذى يبلو العـباد ، امتحانًا وانتقامًا حسب مقتضيات رحمته فى تربية عباده . وتدبير شأنهم

وكما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2]

وقال عز من قائل : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾[3]

---

(١) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية . الشيخ أحمد فريد صـ ٢٤٩ ، ٢٥٠ بتصرف

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٥

(٣) سورة الفجر الآية ١٥- ١٧

وأما الحسنة الشرعية بمعنى الطاعة وفعل الخيرات ، فإنها تنسب إلى الله عز وجل لأنه هو الذى بها أمر ، وهو الذى شرعها للعبد ، وعلمه إياها ، وأمره بفعلها ، وأعانه عليها ، ووعده بحسب المثوبة عليها ، ترغيبًا له فى فعلها .

وأما السيئة الشرعية التى هى بمعنى المعصية والمخالفة ، فهذه السيئة لا تنسب إلا إلى العبد فاعلها ، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبدًا ، لأن الله تعالى لم يشرعها ولم يأمر بها ولم يرغب فيها ، بل حرمها وتوعد عليها منفرًا منها ، فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم ،لا .

ونحن نستطيع بذلك أن نفهم قوله تعالى :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾(١)

إذًا الحسنة الشرعية والسيئة الشرعية كما قال

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾

والحسنة الكونية والسيئة الكونية كما قال

﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

ردًا على المنافقين الذين كانوا ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى ، وينسبون السيئة بمعنى النقمة والبلاء والشر إلى رسول الله ﷺ ، فرد الله تعالى

(٣) سورة النساء آية ٧٨ ، ٧٩

عليهم قولهم هذا وعابه عليهم ونسبهم إلى سوء الفهم وقلة الإدراك ، وأخبر مقرراً أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى ، وبهذا زال - والحمد لله - الإشكال الذى كان يقف عنده كثيرمن المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا : إن بين الآيتين تناقضًا أو تعارضًا فى حين أنه لا تناقض بينهما ولاتعارض - كما رأيت - وحاشا لكتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضًا ، تناقضًا أو تعارضًا ، وكيف يكون ذلك، والله منزله وهو العزيز الحكيم ؟ يقول:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١)

---

(١) سورة فصلت الآية ٤١ ، ٤٢

وأخيراً : حكمة الإيمان بالقدر :

وحكمة ذلك : أن تنطلق قوى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السنن ، ولتدرك هذه القوانين وتعمل بمقتضاها فى البناء والتعمير ، وفى استخراج كنوز الأرض والانتفاع بما أودع فى الكون من خيرات .

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية فى الحياة كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا الوجود ، فيرفع من نفسه إلى معالى الأمور من الإباء والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق ، والقيام بالواجب .

والإيمان بالقدر يرى الإنسان أن كل شيء فى الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولايبطر وإذا برىء الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ،ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنسانًا سويًا متزنًا ، بالغًا منتهى السمو والرفعة ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة وثمرات طيبة ، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ،إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، خلت

---

(١) سورة الحديد. آيا٢١ ، ٢٣

جميع أعماله من الحيـرة والتردد وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد مايترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليـه فى غير ما خوف ولا هيبة ولاتردد ، ومن هنا فإنه لا يحزن علـى ماض ، ولا يغتم لحاضر ، ولا يؤلمه هم المسـتقبل ، وبذلك يكون أسـعد الناس حـالاً ، وأطيبـهم نفسًا ، وأصلحـهم بالاً ، وأهدأهم خاطرًا ، ومنهـا أيضًا : أنه يكون من أشجع الناس عـقلاً وقلبًا ، وأكرمـهم قولاً ونفسًا ، إذ من عرف أن أجـله محـدود ، ورزقـه معـدود ، فـلا الجبن يزيد فى عمره،ولا الشح يزيد فى رزقه ، نافس فى البطولات ، وسابق فى المكرمات.

ومما لا شك فـيه أن هذه الصـفـات قـد تجلت واضحـة فى هذه الأمـة - أمـة الإسلام- أيام كانت عقيدة القضـاء والقدر واضحة فى نفوسهم ، قوية فى قلوبهم ، فقد فـاقوا الناس شجاعة وكـرمًا وصبرًا وحلمًا ، ومعـرفة وعلمًا ، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر :

الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، بل يعتمد بقلبه على الله عز وجل ويعلم أن كل شيء ، بقدر الله عز وجل .

وكذلك أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدره من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة .

ومنها : الطمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، وتهون على العبد المصائب لعلمه بأن ذلك من عند الله سبحانه ، وما كان من عند الله سبحانه فالرضى به والتسليم له ، شأن كل عاقل ، لأنه خالقه وموجده من العدم، فهو حقه وملكه يتصرف به كيف يشاء ، كما يتصرف العباد فى أملاكهم من غير حرج عليهم .

ولذلك قال ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » [1]

ومنها : أن يعتقد العبد أن ماوصل إليه من الخير على أى صفة كان ، وبيد من أجرى فهو من الله عز وجل ، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقادر قدره ، لما له من العظمة التى تضيق أذهان العباد عن تصورها ، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها .

وما أحسن ماقاله الحربى - رحمه الله - « من لم يؤمن بالقدر لم يتهنَّ بعيش » وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب وضاقت بها الأنفس وحرجت بها

---

(١) رواه مسلم

الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر» .[1]

فاللهـــم ارحمنا برحمتك فإن بنا من الضعـــــف ما أنت أعلم به منـــا
ومن عــدم الصبر على حــوادث الزمـــان مالا يخفـــى عليــك
ومن عـــــدم الثبـــات على المحـــن ما لديــك حقيقتــه
ولكننا نسـألك العافية التى أرشدتنا إلى سؤالها منك
كما نسـألك الثبات والتثبيت على الحــق
وعلى صراطـــــك المســـتقيم
وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العـالمين .

*

***

(١) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية صـ ٢٥١ ، ٢٥٢ بتصرف

الخـاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ، ونصلي ونسلم على خير خلق الله أجمعين ، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ..

فإنه من تيسير الله عز وجل ورحمته أننا قد وقفنا على « ركائز الإيمان » التي يجب على كل مسلم معرفتها والاعتقاد بها ، والإلمام بمسائلها ، والتعرف على جوانبها ، وقد حاولت جاهداً الإلمام بمحتوياتها مع التركيز على أهمها ، بتبسيط أسلوبها وهذه الأركان ـ كما ترى ـ قد تناولت الركن الأول منها « الإيمان بالله » في الجزء الأول من « حقيقة الإيمان » ، ثم تناولت بقية الأركان في هذا الجزء الثاني من كتابنا « حقيقة الإيمان » بفضل الله عز وجل .

وصدق رسول الله ﷺ ـ وقد سئل عن الإيمان ـ فقال : الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » [1]

وهذا الإيمان كالشجرة التى لابد لها من ثمرة .

* وثمرة الإيمان بالله تعالى هى حبه سبحانه وتعالى وتعظيمه وخشيته ، وطاعته بفعل محابه وترك مكارهه ، والاستقامة على شريعته ، والتصديق بوعده ووعيده، وكذا بحب رسول الله ﷺ وتعظيمه وطاعته والتأسي به ، ومتابعته ﷺ قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]

* وثمرة الإيمان بالملائكة هو الاعتبار بطاعتهم ، لأنهم لا يعصون الله ما

(١) رواه مسلم (٢) سورة الأنفال آية ١

أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون ، والاستحياء منهم ، وإكرامهم ، لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين لا يفارقونه ، وكذا هو وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم ، وقدرته عليهم ، إذ يقول سبحانه

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]

* وثمرة الإيمان بالكتب أنها الوسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة علمه وأسمائه ، ووعده ووعيده ، كما هي وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها، وأنزلت عليهم ، وكذا وسيلة إلى معرفة شرائع الله تعالى ، وجميع ما يحبه الله ويرضاه ، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات والأقوال والأفعال ، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخره .

* وثمرة الإيمان بالرسل وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى، وبيان كيفيات أداء عباداته ، ووسيلة إلى محبة رسل الله الباعثة على طاعتهم والتأسي بهم، واتباعهم والتزام شرائعهم و الاهتداء بهديهم ، واتباع ما جاء به أفضلهم وخاتمهم محمد ﷺ .

* وثمرة الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيري الدنيا والآخرة ، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله ، والرهبة من عقابه ، وبما أعده الله للمؤمنين من النعيم ، وللكافرين من الجحيم .

* والإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على مافات ، وعدم الخوف على ما هو آت ، والرضى بما ينزل بالعبد من ابتلاءات ، وترك الفرح والبطر والأشر بما يؤتى الإنسان من ملذات ، كما هو وسيلة إلى الصبر والتجمل ، والطمأنينة والسكون بكل ما قضى رب الأرض والسموات .

وبناء على ما سبق ، فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة ،

(١) سورة النحل : آية ٥٠

المكونة لعقيدة المؤمن ، يثمر للمؤمن ثمرة خاصة . وأن هذه الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الإنسان الذاتي والروحي ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، إذ كل كمال للإنسان وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله ﷺ ، تلك الطاعة المزكية للنفس والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾(٢)

والحمد لله أولاً وآخرًا ، إن كنت قد أصبت فذلك الفضل من الله ، وإن كانت الأخرى فذلك مني ، وأستغفر الله . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٣).

وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وسلم تسليماً كثيراً .

تم تحرير هذا الكتاب في شوال سنة ١٤١٤ هـ مارس سنة ١٩٩٤ م

(١) سورة الشمس : آية ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم
٢- الكتاب المقدس «الأناجيل الأربعة»

* كتب السنة

٣- صحيح البخاري
٤- صحيح مسلم
٥- سنن أبي داود
٦- سنن الترمذي
٧- سنن النسائي
٨- سنن ابن ماجه
٩- سنن الإمام أحمد بن حنبل
١٠- سنن الدارمي
١١- مستدرك الحاكم
١٢- معجم الطبراني
١٣- فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني - الكليات الأزهرية
١٤- شرح السنة للإمام البغوي - دار الكتب
١٥- صحيح الجامع للألباني
١٦- السلسلة الضعيفة للألباني
١٧- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - محمد فؤاد عبد الباقي - الريان للتراث
١٨- الترغيب والترهيب للمنذري - شباب الأزهر

* كتب في التفسير

١٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - مكتبة التراث الإسلامي
٢٠- تفسير ابن جرير الطبري
٢١- تفسير الفخر الرازي
٢٢- صفوة التفاسير ،محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم

* كتب فى السيرة

٢٣- السيرة النبوية لابن هشام - دار التراث العربي
٢٤- الشمائل البنوية للترمذي
٢٥- دلائل النبوة للبيهقي
٢٦- دلائل النبوة للأصبهاني

٢٧- الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي
٢٨- قصص الأنبياء لابن كثير - دار الحديث
٢٩- قصص الأنبياء د/ عبد الوهاب النجار - دار التراث.
٣٠- مع الأنبياء في القرآن الكريم ،عفيفي عبد الفتاح طبارة - دار العلم للملايين

*** كتب في العقيدة**

٣١- للإيمان أركان- حقيقتة - د/ محمد نعيم ياسين
٣٢- إظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي - دارالتراث العربي
٣٣- أهوال القيامة كما يصورها القرآن والسنة - للشيخ عبد الله الكليبي - دار الكتب السلفية
٣٤- الاحتجاج بالقدر لابن تيمية - المكتبة السلفية
٣٥- التذكرة في أهوال الموتي والدار الآخرة للقرطبي - المكتبة السلفية
٣٦- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي - مكتبة الإيمان
٣٧- تعصب اليهود د/ عمر عبد العزيز - تحت الطبع
٣٨- تعصب النصارى د/ عمر عبد العزيز - تحت الطبع
٣٩- تصحيح المفاهيم الخاطئة د/عمر عبد العزيز - تحت الطبع
٤٠- الثمرات الزكية فى العقائد السلفية ، الشيخ أحمد فريد - مكتبة التوعية الإسلامية
٤١- الجزاء « الجنة ، النار » نعمت صدقي - دار الاعتصام
٤٢- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم
٤٣- حقيقة الإيمان « الجزء الأول» د/ عمر عبد العزيز - دارالهدي
٤٤- رحلة فى رحاب اليوم الآخر ، الشيخ عبد العظيم بن بدوي - التوعية الإسلامية.
٤٥- رسائل في العقيدة / لابن عثيمين
٤٦- شرح العقيدة الطحاوية مجموعة من العلماء - شباب الأزهر
٤٧- عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري - مكتبة الكليات الأزهرية
٤٨- عقيدة المسلم للشيخ الغزالي - دار الكتب الحديثة
٤٩- عالم الملائكة ، للشيخ عبد الحميد كشك - المختار الإسلامي
٥٠- عالم الملائكة الأبرار ، للشيخ عمر سليمان الأشقر

٥١- العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق - الفتح للإعلام العربي
٥٢- القضاء والقدر للشيخ الشعراوي - دار الشروق
٥٣- القضاء والقدر لابن عثيمين
٥٤ - القيامة رأي العين . الشيخ محمد محمود الصواف - دار الإعتصام
٥٥- مشاهد القيامة فى القرآن ، للشيخ سيد قطب - دار المعارف
٥٦- المهدي المنتظر ،أبي الفضيل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري
٥٧- معارج القبول ، بشرح مسلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ الحافظ أحمد الحكمي - مكتبة زهران
٥٨- النهاية فى الفتن والملاحم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير - دار التراث الإسلامي

*** كتب متنوعة**

٥٩- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف
٦٠- القنديل في فقه الدليل لأبي المنذر عبد الحق بن عبد اللطيف - مكتبة مكة
٦١- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير - د/ محمد أبو شهبه
٦٢- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، د/ أحمد سيد الكومي ، د/ محمد أحمد القاسم .

الفهـرس العام

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ـ المنيب
ت : ٧٧٧٩٣٩٨